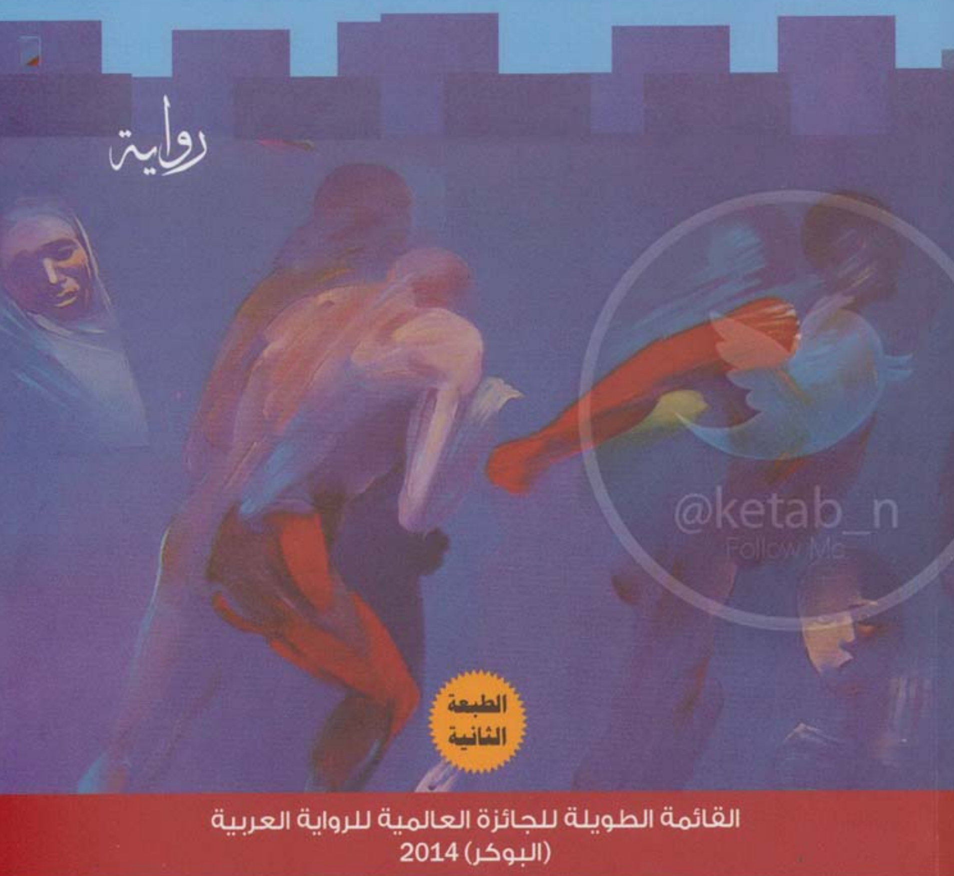
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبراهيم نصر الله

شرفة الهاوية



رواية

الطبعة الثانية

القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية
(البوكر) 2014

IBRAHIM NASRALLAH.BALCONY OF ABYSS

إبراهيم نصرالله

شُرفة الهاوية

رواية

هناك معارك خاسرة نخوضها ونُهزم فيها بقسوة لا تحتملها مكانتنا، ولا ظروفنا، ولكننا نخوضها من جديد
كلما فَتحتْ لنا الهاوية شرفتها!

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

شُرفةُ الهاويةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

الطبعة الثانية
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-0675-8

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لوحة الغلاف: الفنان **جمال غريبة**
تصميم الغلاف: الفنان **محمد نصر الله**

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

عتبات شرفة الهاوية



ذلك الأحمر النحيف
الذي اختطف قلب أبي

أمسكتُ بالكتاب، كتابي، وأبعدتُ الغلاف، فبدت الصفحةُ البيضاء مستعدّة على نحو كامل لاستقبال تلك الكلمات التي سأكتُبها.

عدتُ ونظرتُ إلى الشاب، وأنا أحاول الابتسام، وإنهاء الأمر بسرعة؛ فلم يكن يشغلني شيء مثلما يشغلني دخول السيارة والاختلاء بتلك البطاقة الصغيرة التي في جيبي!

سألته بلطف، هل هي لك، أم ستهديها إلى شخص ما؟

- أرجو أن يكون الإهداء لي، مع أنني سأقدِّمها هدية لشخص آخر!

نظرتُ إليه منتظرًا أن ينطق اسمه، لكنه لم يفعل! كما لو أنه صديق قديم أعرفه، ومن غير اللائق أن أسأله عن اسمه! سألته: اسمكَ من فضلك!

- قاتِلُك!

- ماذا؟!

- قاتِلُك!

وقبل أن أُظهر أيّ علامة استنكار لمزاح بهذا الثِّقل، أحسستُ بطعنتين عميقتين تشقّان جسدي، والصفحة البيضاء يحتلّها السّواد.

امتدَّت يده تستعيد الكتاب الذي هوى معي، التقطتْهُ، حتى

قبل أن يلامس الأرض!

كل ما تمنّيته في تلك اللحظة أن يبتعد، لكنه لم يفعل؛ انحنى، وأحسستُ بيده تتجوّل في جيب سترتي الدّاخلي. لم يجد صعوبة في الوصول إلى ما يريد. أخرج البطاقة، دسّها في جيب قميصه، ثم خطا ثلاث خطوات مبتعدا. سمعت صندوق السيارة يُفتح، ثم يُغلق من جديد، وحين استطعت أن أفتح عينيَّ، رأيته يبتعد حاملا باقة الزّهور!

الجحيم الذي أوصلني إلى تلك اللحظة!

فوجئتُ برنّة الموبايل؛ ولأنني لم أعد أسمعها إلا نادرًا، تلفتُّ حولي باحثا عن شخص آخر، لا بدّ أن الهاتف يعود إليه!

كانت الكلمات التي سمعتُها قليلة ومفاجئة: سلمان بيك يريدك في مكتبه!

- لماذا؟!

- دكتور كريم! نصيحتي، لا تتأخّر!

- ومتى يريدني؟

- في التاسعة والنصف تمامًا، وحدّد ليَ العنوان.

- متى؟

- اليوم!

نظرتُ إلى ساعتي، كانت عقاربها تشير إلى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة! ما هذا؟ يريدونني بعد خمس وأربعين دقيقة؟! معقول؟!

طوال الطريق رحتُ أفكر في السبب الذي يدعوهم لاستدعائي على جناح السرعة، على هذا النحو. خفتُ، قلتُ لعلّه يعدُّ لجولة جديدة من العقاب، وهو يستطيع بالتأكيد!

***

وجودي مساء أمس، في مكان واحد مع سلمان بيك، ذلك الرجل الذي أمر بطردي من الجامعة، كان مفاجأةَ الحفل بالنسبة إليّ.

التقتْ نظراتُنا للحظات، حاولتُ المحافظة على رباطة جأشي، كما يقال، بل وحاولتُ أن أبدو طبيعيّا ما استطعت؛ لكن ابتساماتي الواسعة ضاقت. اِنساب عرَق غزير كنهر جليدي من أسفل عنقي حتى الفقرة القطنية أسفل عمودي الفقري، واضطررتُ أكثر من مرّة أن أمسح العرق المتصبِّب من جبيني وعنقي، بل إن بعض القطرات لسعتْ بملْحِها عينَيّ!

ما جعلني أهدأ في النهاية، حقيقة أنه لا يعرف أكثر من اسمي؛ أما وجهي، فلم يسبق له أن رآه، لأننا لم نلتق من قبل!

قلتُ: لن أغادر الحفل إلى أن يغادره آخرُ المدعوّين! لا أريد أن أبدو هاربا في نظر أحد ممن يعرفونني ويعرفون تفاصيل تلك الفضيحة التي كنتُ بطلها!

***

كان عليّ أن أنتظر وصول سلمان بيك حتى الثانية عشرة ظهرا، تأكّد لي خلالها أنه يتصرّف بعقلية رجل أمن حقيقي: التعذيب بالانتظار! كنتُ على ثقة من أنه يتقن هذا! فقد كانت تلك، أو ما يشبهها، مهنته الثانية بعد المحاماة، كما يقال، قبل أن يُصبح وزيرا، فمليونيرا كبيرًا مساهمًا في عدد من الشركات، ومن بينها تلك الجامعة الخاصة نفسها التي ألقى بي خارجها بعد حكايتي الشهيرة مع نُهى!

***

مرّ سلمان بيك بي متوجِّها نحو الباب. هبّ مدير مكتبه وأشرعه. مرَّ كما لو أنني لم أكن هناك، مما أعفاني من الإقدام على أيّ حركة تنمُّ عن احترام زائد أو تذلُّل رخيص، يجد كثير من الناس أنفسهم مضطرين لإظهار واحد منهما على الأقل حين يفاجأون بمسؤول كبير!

نصف ساعة أخرى كان عليّ أن أنتظر، وكم حيّرني وأثار سخطي،

أنني طوال الساعات الثلاث التي أمضيتُها في المكتب، لم يتقدّم أحد ليعرض عليَّ أن أشرب كوب شاي، أو حتى جرعة ماء! في الوقت الذي كان فيه مدير المكتب يشرب بتلذّذ بطيء قهوته الأمريكية السّوداء.

كان لا بدّ من أن تحين اللحظة التي سأقابله فيها أخيرًا؛ سمعتُ رنين جرس الهاتف فوق طاولة مدير مكتبه، وسمعتُ مدير مكتبه يهمس: أمرك بيك! أغلقَ السماعة، وأشار إليَّ برأسه أن أدخُل. نهضتُ، وقبل أن أبلُغ الباب، سمعته يهمس لي: أظنها فرصتكَ الأخيرة في هذا البلد، فلا تُضيِّعها!

فتساءلتُ في نفسي: أيّ جحيم ذلك الذي أوصلني إلى هذه اللحظة؟!

غابة الشّوارب!

لا أحب أفلام العنف، ولا أحب من أفلام جيمس بوند سوى ذلك المقطع الذي يتكرّر فيها كلّها: بوند، جيمس بوند!

نُهى، نُهى راضي! هكذا أحبُّ أن أقدم نفسي! ابنة أُسرة ميسورة، لم يزل أبي يعمل في واحدة من أهم شركات الاستثمار في مدينة الرّياض. جئتُ من هناك إلى عمّان، قال لي والدي: ذلك أفضل خيار لاستكمال تعليمكِ الجامعي. ووافقتُ، كما وافقت الأسرة، الأخوة الثلاثة والأخت الأصغر، آخر العنقود!

أعترف أنني كنتُ أخشى المدن، حتى الرّياض، المدينة التي وِلدتُ وعشتُ ودرستُ فيها، كنت أخافها. لم يكن أبي متزمِّتا، بالعكس، كان إنسانا منفتِحًا ومُحبّا، ولا يكفُّ عن إضحاكنا باختراع نكات كثيرة. واحدا من أكثر الأشخاص سرعة بديهة ممن رأيت كان؛ يتقبّل عدم استجابتنا لنكاته بروح رياضية عالية. أمي كانت تستجيب دومًا، وتنظر إلينا وتقول: أترون كم هو ظريف أبوكم؟!

نحن، كنا ننهض ونتسلّل إلى غرفنا، أنا وأختي إلى غرفة، وأخوتي الثلاثة إلى غرفتهم، وما إن نُغلق الباب حتى ننفجر مقهقهين، ونحن نستعيد نكات أبينا!

في الخارج كان يقول لأمي: الآن فهموا النكتة!

لم أعرف في الحقيقة السبب الذي كان يدعونا إلى فعل ذلك؛ وأعترف

أننا كنا في كلّ وجبة تناولناها معا، ولم يكن أبي موجودا فيها، أشبه بروبوتات على عجلةٍ من أمرها!

***

عانقني أبي في المطار، في تلك الظهيرة من نهايات شهر آب اللّهاب، بكيتُ، لم يخطر ببالي سوى شيء واحد، كيف يمكن أن أجلس إلى مائدة لأتناول طعامي وهو غير موجود! وكما لو أنه فهِم ما يدور في داخلي، قال: لا تقلقي، عمّك محمود يتمتّعُ بخفَّة دم أقلّ من خفّة دمي بأطنان!

ابتسمتُ، بل كدتُ أضحك!

***

في مطار الملكة علياء الدّولي في عمّان، وجدتُ عائلة عمّي محمود في انتظاري، حين رأوني، فردَ عمي يديه فأزاح بذلك كلَّ من حوله، وتقدَّم نحوي موجةً من فرح! عانقني، وتراجع خطوة؛ وقبل أن تعانقني زوجته ويصافحني أولاده العشرة الذكور، سألني: ما هي آخر نكات أبيكِ؟!

الهجوم المباغت لامرأة عمّي، احتضانا وتقبيلا، لم يُتح لي حتى التّنفس! كنت أعرف أنها تعانقني بمحبة فعلا. كنت أعرف أنها تتمنّى لو أنني ابنتها؛ هي التي بدأت بعد الولد الثالث بمحاولات مستمرّة لإنجاب ابنة، فلم تظفر سوى بغابة الشوارب التي تحفُّ بها!

***

في حافلة الهونداي الصغيرة العائدة للعائلة، كنت أجلس في المقعد المجاور لعمّي، بعد أن صعدت امرأته وجلست إلى جوار أبنائها، بحجة أنها تخاف الجلوس في المقعد الأمامي! قال لي عمّي: وجدنا لك غرفة ممتازة في سكن الطالبات المجاور لنا في ضاحية الرَّشيد. سكن مرتَّب وجميل، وكلّ الخدمات متوافرة حوله من رغيف الخبز حتى حبة الفراولة! وأضاف: يوم الجمعة تتناولين غداءك معنا، بحضوري! لا تظنّي أنني

بخيل! لا، كنتُ أتمنى أن تتناولي وجباتك كلّها في بيتنا الذي هو بيتك، ولكن هناك سببين لا يشجعان على ذلك، أولهما: إذا نظرتِ خلفكِ ستعرفينه، فأولاد عمك لا يضحكون حتى للرّغيف الساخن! وهم كما ترين متجهِّمون وعلى استعداد دائم لإشعال حرب أهلية، لأسباب أقل بكثير من تنافسهم، الذي لا بدَّ سيندلع، على فتاة جميلة مثلك! وثانيهما: أنت ستكونين في الجامعة، والجامعة عمل متواصل، دراسة يعني! ولذا فأنتِ، على الأقل، بحاجة إلى وجبة دسمة من الضّحكات حول صينيَّة (المقلوبة) الأسبوعية، ومنذ الآن أقول لك، لا عن خوف والله: ليست هناك امرأة تتقنُ إعداد المقلوبة، كما تتقنها أمّ العصافير الصغيرة الذين يجلسون وراءك!

كنتُ سعيدة وأنا أتأمل خضرة الأشجار التي استطاعت عبور الصيف على طرفي أوتوستراد المطار. وحين قال لي عمّي، ها نحن على وشك الوصول إلى الدوّار السابع، كان هواء المساء اللطيف يعبر رئتي ويملؤني بهجة.

عاد وسألني: لم تقولي لي، هل يغتابني أبوكِ كثيرا؟!

- بالعكس، إنه يفتخر بكَ دائما!

- قولي الصحيح، ما آخر شيء سمعتِه، منه، عنّي؟!

قال لي في المطار: لا تقلقي، عمّك محمود يتمتّع بخفّة دم أقل من خفّة دمي بأطنان!

المفاجأة أن عاصفة من الضحك انطلقتْ خلفي. لقد فهموا النكتة! فهموا لؤمها اللطيف، فاستدار عمّي، وقال: أخيرا ضحكتم! والتفتَ إليَّ وقال: أترين؟ سيبقى أبوك الأخفّ دما، لأنه الوحيد القادر على إضحاك قطيع العجول الجالس وراءك!

***

وصلنا بيت عمّي الواقع في الوادي الشّرقي لـضاحية الرشـيد. هـبَّ عشرة شباب للتنافس على حمل حقيبتين؛ حشوت واحدة منهما بملابـسي والأخرى بالهدايا التي اشتراها أبي لأخيه وزوجة أخيه وأولادهما. لم نكن قد بلغنا بوابة الشقة حـين همستْ زوجـة عمّـي في أذني: كـم تمنيـتُ أن يرزقني الله بابنة جميلة مثلك، لها هـذا الـشعر الأسـود الطويـل والعينـان الواسعتان، وهذه القامة مثل قامة فرس أصيلة!

ثم اقتربت مني أكثر، بينما زوجها منشغل بفتح الباب، وقالـت: هـل أعجبك واحد من الأولاد؟! أشيري بإصبعكِ وأنا سأزوِّجكِ إياه!

فهمستُ لها: لم أرهم بعد بصورة واضحة يا عمّتي!

فقالت: مش مشكلة، سأصفُّهم أمامك، اليوم قبل الغد، ولتختـاري على كيفك!

- ليس اليوم يا عمتي، ليس اليوم، فأنا كما ترين وصلتُ الآن.

- معك حق! غدا إذًا!

سمعتُ الضجة التي أثارهـا أولاد عمّـي في الممـرّ الـضّيق، سـمعتُ الحقيبتين تـرتطمان بحديـد الـدّرجات، ورأيـت عمـي يـستدير، ويقـول لزوجته: شو! هل تظنين أن البنت عمياء لتتزوج بواحد من أولادك؟!

فأدركتُ أنه يملك أُذنين مزوّدتين بأدقّ أجهزة التنصّت التي وجِدتْ في العالم.

- يا عمّي.. أنا من سيزوِّجكِ ويختار لـك عريـسكِ! إذا سـمحتِ لي بالطبع!

فردّت زوجته: تُزوِّجُها! تُزوِّجُها منذ الآن يا رجل! البنـت لم تـدخل الجامعة بعد!

وهل كانت قد تخرَّجتْ قبل لحظات لتعرضي عليها أحد أبنائك ؟!

***

أحببتُ هذا الجزء من عائلة عمّي محمود، أحببته كثيرا، وطـوال أيـام الجمعة التي سأمضيها في بيتهم وأنا أتناول المقلوبة أسبوعيا، مثل أيّ مادة أساسية مقررة في الجامعة! سيظل عمّي محمود يسألني عن آخر نكات أبي التي يقولها لي أثناء أحاديثنا التلفونية، وسيـضحك أولاده كـما لا يمكـن لأحد أن يضحك! فيحدّق في وجوههم، ويـردّد في كـل مـرّة: مـا معنـى أنكم لا تضحكون عنـد سـماعكم نكـاتي؟! فـيردّون: لأن نكـات عمّـي راضي أحلى!

العثور على شهريار!

لم أعرف الدكتور كريم حين وقعتْ عيناي عليه في ذلك الحفل الفرنسي، لأنني لم أقابله من قبل، لكن انطلاقه في موجة ضحك صاخبة مع امرأة جميلة، بل فائقة الجمال، كان كافيا لكي يُلفتَ انتباهي!

همستُ لمدير مكتبي: أريد لمحة موجزة عن ذلك الرّجل!

ردّ باستغراب: أنتَ لا تعرفه سلمان بيك؟! أنه الدكتور الذي أعطيت الأمر بفصله من الجامعة بنفسك!

- هذا هو إذًا!

- هو نفسه يا بيك!

- يبدو أنه لم يتعلِّم الدّرس!

- إن لديه قدرة غريبة يا بيك مع النساء، وكما رأيتَ وسمعتَ، يمكن أن يحوِّل ابتسامات امرأة متَّزنة إلى قهقهات تبتلع أصوات خمسمائة مدعوٍّ! إنه زير النساء الأول في البلد!

- هذا يعني أن حكاياته كثيرة؟!

- أكثر مما تتخيّل يا بيك!

- وأين يعمل الآن؟

- عاطل عن العمل، منذ أن أمرتَ بطرده، لم تقبل أي من لجامعاتنا أن توظّفه، فالحكاية انتشرت يا بيك، ولا أحد يعرف كيف!

- هل أنت متأكد من أن لديه حكايات؟!

- أكثر من شهريار! مغامراته تملأ مجلدات كما سمعتُ يا بيك.

- اذهب واحصل على رقم هاتفه! وأريد تقريرا عنه الليلة!

إعادة تدوير الكائن!

بمجرد أن أُشرِع الباب، وجدت نفسي أمام سلمان بيك وجها لوجه، كنت أعتقد أنه سيلعب دوْر المحقِّق: ينشغل في مِلفٍّ أمامه، ثم يحدّق فيَّ وكأنني غير موجود ويعود للملفّ ثانية، ويجيب على عدة مكالمات، ويجري أخرى!

لم يفعل ذلك. صافحني بمودّة أدهشتْني، وقال: لدينا فرصة لمحو آثار الماضي! تعرف أن ما فعلتَه كان أكبر من أن أسكتَ عنه! ولكنني أظنّ أنكَ فهمتَ الدَّرس جيدًا!

أشعل سيجارة، وأضاف: كما ترى، يمكن أن تظلَّ عاطلا عن العمل لسنوات طويلة قادمة، فإذا لم أفتح لك بنفسي باب جامعتي، أو باب أيَّ جامعة أخرى، هنا أو في الخارج، لن تستطيع العمل ثانية! ليس هذا تهديدًا، فأنا لستُ مضطرًّا أن أهدّد، لأنني أعمل! التهديد مرحلة سابقة لما ينوي المرء القيام به! وأنا أعمل، أعمل فقط، وقد رأيتَ ذلك بنفسك؛ ولو كنتُ أريد أن أُقفِل أبواب الترجمات، بشروطها المُذلَّة في الحقيقة! الترجمات التي أنجزتَها لهذا المكتب أو لتلك الجهة، لفعلتُ! ولكنني، قلتُ، لندعه يلتقط القليل الذي لا يكفي لكي يحيا ولا يؤدي إلى أن يموت!

سأعيدك إلى الجامعة!

هكذا رمى العرض. كان حلما، ولكن لفرط المفاجأة بدا كصفعة!

- لم أسمع ردْكَ! قال لي.

- أشكرك!

- يكفيني هذا الآن!

- وما الذي عليّ أن أقدِّمه مقابل هذا الكرم الكبير؟!

- أشياء بسيطة، سنتحدث عنها فيما بعد! أما الآن فدعْنا نحتفل! ليلة غد سأقيم حفلة صغيرة، بل لنقل سهرة، في البيت، وأحبّ أن تكون موجودا. سيكون هذا مفيدا لك، مفيدا جدا، ثم إنها الطريقة الأفضل لتقديمك إلى المجتمع من جديد، أو لإعادة تدويرك! التاسعة مساء.

كانت عيناه منصبَّتين على ملامحي، يملأهما طربٌ ما، وهو يرى أيٍ دهشةٍ تلك التي أحاول إخفاءها! وكنتُ فعلا، قد عزمتُ على أن يظلَّ وجهي كصفحة حافلة بحروف لغة انقرضتْ من الصعب فكُّ أسرارها! كنت قد أَفهمتُ نفسي جيدا، وبشدة، كما لو أنها مجرّد تلميذ كسول: عليك أن تتذكّر دائما أنك كنت وغْدا فعلا، وأظنك لم تزل! ولكن سلمان بيك وغْدٌ أكبر، أكبر بكثير؛ وما دمتما تنتميان إلى هذه الفئة، فأنتما متساويان. ثم ماذا يمكن أن يفعل أكثر مما فعل؟!

- سرحتَ بعيدًا!

- أبدًا، ما زلتُ هنا!

- أمرٌ صغير أخر!

- تفضل!

- الراتب، سيكون ألف دينار كبداية، أما عن عملك الإضافي، فلن أمنحكَ شيئا!

- أيّ عمل؟!

- يا بيك! عليك أن تُنهي جملتك دائما بـ (يا بيك)، فقد عدتَ الآن للعمل!

- يا بيك!

- عملك الإضافي سيكون المقابل الذي ستقدِّمه إليّ مقابل إعادتك إلى الجامعة!

- ولكنني كنتُ..

- كنت تتقاضى راتبا أعلى من هذه الألف. أعرف هذا! القرار قرارك. أم أنك تفضّل العيش وحيدا في جُحرك إلى أن تموت كي تثبت موضوع أطروحتك: فردية المجتمع، اجتماعية الفرد؟!

استعدتُ فصول تلك الأطروحة، وهززتُ رأسي في إشارة لموافقتي.

سألني: لماذا لم تطبعْها حتى الآن؟!

- كنتُ طبعتُها قبل سنوات..

- يا بيك!

- كنت طبعتُها قبل سنوات يا بيك!

- سأتكفّل بطباعتها على حسابي وفي دار نشر محترمة! هي فرصة لكي تتذكَّرها، وربما هي فرصة أيضا لكتابة مقدِّمة جديدة في ضوء ما حصل معك خلال العامين الماضيين!

كنتُ على وشك أن أعود وأسأله: ماذا تقصد بالعمل الإضافي يا بيك، لكنه فجأة أنهى اللقاء: أراكَ ليلة غد إذًا.

رفع سماعة الهاتف، وقال لمدير مكتبه: أعطه العنوان، ونهض فجأة، فبدا لي أطول، بشعره الأحمر تقريبا، وبشرته البيضاء، وخديه الأحمرين اللذين يكاد الدم يطفح منهما؛ وحين شدَّ على يدي مودِّعا، أدركتُ أن نفوذه كلّه قد تجمَّع في تلك اليد!

كينغ كونغ!

20 آب 2008

تأخرتُ كثيرا إلى أن اكتشفتُ وجود تلك الثغرة التي تنغِّص عليَّ حياتي! الثغرة؟! لأقُلْ الهوّة! هوّة حقيقية لا شيء يملأها.

قبل ليلتين حلمتُ بها، بالهوّة، ولا شيء غيرها، وحيّرني أنني كنت أملك قوة جبارة، جبارة تفوق قوة أيّ مخلوق على هذه الأرض، أو حتى أيّ مخلوق اخترعته المخيلة البشرية، فتساءلتُ: ما الذي يحدث يا سلمان؟!

حلمتُ، أنني أمسكتُ بالفيلا التي أسكنها وألقيتُ بها داخل الهوّة، ثم ألقيتُ بالسّور، فالمسبح، فالسيارات الخمس المتوقفة في الكراج: المرسيدس، اللكزس، الرّينج روفر، الهمَر، والتويوتا كورولا! نعم، بيسر ألقيتُها في الهوّة! وحين اقتربتُ من حافتها، أفزعني أنني لم أر أثرًا للسيارات الخمس، كان الظلام وحده! استدرتُ، وكم فوجئتُ أن الجامعة كانت بجانب البيت، فامتدّت يدي إليها، ألقيت بكلية العلوم! بمبناها المكون من أربع طبقات! وحين استدرتُ كانت كلية الاقتصاد في متناول يدي! قذفتُ بها إلى فم الهوّة أيضا، أو في عينها، وهكذا بقيتُ أُلقي بها كليَّة بعد كليّة، حتى وصلتُ إلى كليّة الآداب والعلوم الإنسانية!

كنت قد تعبتُ تماما، رغم أنني أحسست بنفسي أقرب ما أكون إلى

كينغ كونغ! لكني حين نظرتُ إلى الهوّة من جديد وجدتها فارغة، فألقيتُ بمباني السّوق التجاريّ الذي أملكه، بمصنع الأثاث، بمعرض السيارات في شارع مكّة، بالدونمات الثلاثمائة على أوتوستراد المطار، بنصف البنك في شارع الثقافة بمنطقة الشمسياني، بكلِّ ما أملكه! وحين حدّقتُ في فم الهوّة، وجدتُه فارغا! صحوتُ فزعًا أصرخ، وحمدتُ الله أن ديانا لم تكن بجانبي! نهضتُ بسرعة لأسجِّل ما رأيت!

لم أستطع العودة إلى السرير، كنت أنظر إليه خائفًا، وقد تحوّل نفسه إلى هوّة تحدّق فيَّ جائعة! فتحتُ باب غرفة نومي وخرجتُ، فوجدتُ ديانا واقفة أمامي: ماذا حدث؟!

ديانا تعرف حدودها منذ زمن طويل: لها الحقّ دائما في أن تسأل، ولي الحق دائما ألّا أجيب!

***

7/ 5/ 2003

يبدو أن شيئا ما يحدث في رأسي، فالمساحة التي يحتلها الفراغ تبدو أكبر! لم تكن بهذا الحجم قبل شهرين أو ثلاثة، كانت ضيّقة، ثمَّ راحت تتّسع يوما بعد يوم، أعترف أنها مرّت بمراحل متعدّدة، كانت المرحلة الأولى في عهد المعارضة والنضال ومناكفة الحكومة بسبب وبلا سبب! ثم تطوَّرت حين عملتُ مع الحكومة. كنت على دراية تامّة بالقانون وبدهاليزه، وأثبتُّ قدرة استثنائية في استجواب الشهود. أظن أن أول من رشّحني للعمل، كمحقق، مُدَّعٍ عامٌّ، أو أكثر، قرر، أو قرروا التخلّص مني، ومن الإحراجات الكثيرة التي أسببها له، لهم!

حيرني، أنني حينما استُدعيتُ للتحقيق بحجّة أنني أتمادى في انتقاد الحكومة، وأتمادى في استخدام النقابة، التي من المفترض، حسب رأي المحقق، أنها نقابة مهنية كأيّ نقابة عمال؛ حيّرني، أن المحقق لم يكن غاضبا

وأنا أردّ عليه، وأقارع حجته بحجة أقوى منها!

كانت المفاجأة التي ادّخرها إلى نهاية اللقاء هي ذلك السؤال: هل سبق وأن قابلتَ مدير هذه الدائرة شخصيًّا، أو رأيتَ صورته؟!

- لا أذكر!

- إذن دعني أخبرك، أنتَ تكلِّمه! وقبل أن أغلق فمي الذي أشرعتْه الدهشةُ، قال: نحن نريدك هنا، في الدائرة، ستحتجّ وتقول لي إنك لن تفعل ذلك! و.. و ..! لكنني أطمئنك، لن تحقّق مع أيِّ يساريّ في هذا البلد! اليسار، أنهكناه بما فيه الكفاية! وبالغنا! أخطأنا، نعم أخطأنا، أعرف ذلك! وصمتَ قليلا قبل أن يُضيف: نحن بحاجة إليك في مهمَّة واحدة لا غير، لن تجرح كبرياءك (الأحمر) أبدًا! ولا (الأصفر)! نريدك أن تساعدنا في التحقيق مع أعداء اليسار وأعدائنا، أعداء الوطن والأمة، ومن يسيئون لصورتنا الحضارية في هذا العالم! أظن أنك فهمتَ ما أعنيه تماما! أقول لك ذلك بوضوح لأنني أعرف أنك تعرف، فمهمّاتنا، بسبب ما يدور في هذا العالم، تشعَّبتْ، ولا نحبُّ أن نكون خارج أي لعبة، بخاصة في هذه المرحلة، بعد احتلال بغداد، وما يدور هناك في أفغانستان. على أيِّ حال، هذا دوْر لا نستطيع التهرّب منه ما دمنا جزءا من هذا العالم!

كنتُ أستمع إليه صامتا، إلى أن قال: مهمَّتك لن تطول، ربما تستمر شهرا، شهرين، أربعة، سنة على أبعد الحدود! وبعدها، لك وعدٌ خالصٌ مني، سأُعيّنك وزيرًا! ولكَ أن تختار الوزارة التي تريد! الوزارة التي تريحك تماما، وقد لا يمرُّ بعد ذلك وقت طويل قبل أن نعيّنكَ رئيسا، أعني رئيسا للوزراء!

***

مساء، اتصلتُ بسكرتيرتي، طلبتُ منها أن تُسلِّم قضايا المكتب كلّها

للمحامية!

سألتْني: أليس من الأفضل أن تخبرها بنفسكَ أستاذ؟!

- وما هو دوركِ يا آنسة إن كنتُ سأقوم بذلك؟!

بسرعة تداركتِ الأمرَ، اعتذرتْ؛ وحين سألتْ مرتبكة: هل هنالك أمرٌ خطير، لا سمح الله، يدعو إلى تسليمها القضايا كلّها؟! وهل سيكون ذلك ليوم واحد فقط أم أكثر؟! قلتُ لها: لقد سمعتُكِ جيدا! فأدركتْ، كما تدرك ديانا أن حقّها انتهي بانتهائها من طرح سؤالها!

***

8/ 5/ 2003

هذا الصباح، علّقت ديانا حين أحسَّتْ بتباطؤي في الخروج: أمامنا اليوم قضايا كثيرة!

قلت لها: سأتأخّر قليلا .

سألتني: والقضايا؟

- رتَّبتُ الأمر مع السكرتيرة، لا تقلقي!

بعد نصف ساعة اتّصلتْ ديانا غاضبة: كيف يحدثُ هذا؟! كيف أكون معك، إلى جوارك، في بيت واحد، في سرير واحد، ولا تخبرني أن عليَّ النزول للمحكمة اليوم لمتابعة قضاياك؟!

- هذا أمر يتعلّق بالعمل! وتخبركِ بمستجداته السكرتيرة في المكتب، لا أنا في البيت!

أغلقتِ السماعةَ، كانت غاضبة!

***

29/ 9/ 2003

لأسباب كثيرة، لا أستطيع تقديم شرح حول طبيعة مهمّتي أكثر من الشرح الذي قدّمه لي مدير الدائرة، لحساسية عملي البالغة، ولوجود

أطراف كثيرة لها علاقة مباشرة بالأمر، من قريب ومن بعيد ومن أبعد، ومن أقرب أيضا، وما بين هذا وهذا، وذاك وذاك!

***

6/ 12/ 2006

كنتُ في واحدة من السهرات العامرة في مزرعة مطلّة على غور الأردن، وفي الوقت الذي كان فيه الصخب حولي عارما، كنت أفكر في تلك المهمة، مهمتي، التي توقّعت أن تنتهي خلال أشهر، وإذا بها تنتهي بعد عامين، أبليتُ فيها بلاء حسنا.

حديث السّهرة كان منحصرا حول من سيُشكِّل الوزارة وممن سيتكوَّن طاقمها. كان ذلك مناسبة لإطلاق كثير من النكات الطريفة، إذ قال أحد أصحاب رؤوس الأموال ممازحًا صديقًا له يملك رأس مال أضخم: أظن أن رشيد بيك هو أكثر الناس تفاؤلا لأن يُستدعى هذا المساء لدخول الوزارة!

وحين سأل أحدهم ضاحكا: وما دليلك؟!

قال: لقد أوصى سائقه ألا يطفئ محرِّك سيارته!

انفجرت الضحكاتُ من كل جانب هازّة ذلك السّكون في الليل المعتم الممتدّ بلا أي ضوء حتى حافة نهر الأردن!

لم يكونوا قد لملموا ضحكاتهم، حين سمعوا رنين هاتفي. فجأة صمتوا! ألقيتُ نظرة على شاشته، لمحتُ ذلك الاسم، السرّي بالطبع، نهضتُ، بعد أن استأذنتهم.

التفتَ رجل المال - صاحب الطُّرفة إليهم، وقال: أظنّ أن علينا أن نبارك لسلمان بيك، راحتْ علينا! ضحكوا بصوت عال، وقال آخر: بل راحتْ عليكَ أنت بالذات يا بيك أكثر! تعالى الضّحك أكثر!

عدتُ إليهم أكثر هدوءًا، محاولا ما استطعتُ السيطرة على انفعالاتي،

وقبل أن يسألوا؛ قبل أن تفيض خفَّة دم أحدهم قلتُ: انتظرنا الرّابع[1] فإذا بوزارة الدّاخلية هي المتَّصلة!

ضحكوا كثيرًا، وقال أكثر من واحد وقد انتشوا بالنتيجة، كما أحسستُ، لا بطرافة ما قلت: بتستاهل!

قلت لسائقي أحمد في الطريق: الليلة لا أريدك أن تعود إلى بيتك. أوصلنْي، وانتظرْني!

- هناك مشوار آخر هذه الليلة يا بيك؟!

- بل في الصباح.

حاول أن يقول شيئا. قلت له: لقد سمعتني!

***

2006 /12 /7

صبيحة هذا اليوم، وطوال الطريق إلى بيت مدير الدائرة، كان أحمد ينظر إلي بحَيرة عبر المرآة التي أمامه. قلت، سيفهم بعد أيام!

أما ما كان يحيّرني، فهو أن يكون اللقاء في بيت الباشا، لا في الدائرة حيث التقينا أول مرّة!

بادرني: هل اخترتَ وزارتك؟

- تقريبا!

- ولكن، لم تخبرني يا باشا، من الذي سيشكِّل الوزارة هذه المرّة؟!

صمتَ، فأدركتُ أنني مارستُ حقّي في السؤال، كما تفعل ديانا كلَّ مرّة، وكذلك السكرتيرة، وأنتهي دوْري!

كنت أحدّق فيه منتظرا أن يقول شيئا أعرف أنه لن يقوله، لأنه اختارني، ربما، قبل أن يتمَّ اختيار دولة الرئيس المُقبل! ولكنه ابتسم،

---

[1] - الرابع، المقصود منطقة الدوّار الرابع، حيث مبنى رئاسة الوزراء، والداخلية: أي الزوجة!

فأدركتُ أن تلك الابتسامة كانت أبلغ جواب.

- حضرتك يا باشا من سيشكل الوزارة؟! أعني دولتُك يا باشا؟!

اتسعت ابتسامتُه.

***

2008/11/2

في الماضي، لم أكن أعاني من وجود هوّة في ذاكرتي، كنت أعاني من وجود ثقب ربما على الأكثر، وكان يمكن أن أسدّه بجدول أعمالي اليومي، الأسبوعي، الشهري، الذي يتكفّل بتنظيمه مدير مكتبي: مكتب الوزير! أما الآن فالمسألة باتت أصعب، كل شيء يتراجع إلى الخلف.

كنت وصلتُ إلى حلٍّ غريب لما أنا فيه: فلتتّهم ذاكرتك، أفضل من أن تعترف بأن حياتك كانت فارغة!

ذلك الأحمر النّحيف الذي اختطف قلب أبي!

رفضتُ ستة رجال تقدَّموا لخطبتي، بمن فيهم سلمان، لكن مشكلتي بدأت حينما سمعتُه!

قبله، بأكثر من عامين، كنت على وشك الزّواج. علاقة، علاقة ناجحة كان يمكن أن تتوَّج بزفاف لا يُنسى، بفرحة لا تُنسى. لم تكن علاقة طويلة، لكنها من تلك العلاقات الكثيفة التي تجعلكِ تحسّين أنكِ عشت عشرة أعوام رائعة في ثلاثة أشهر. كنتُ أعيش كل لحظة فيها، لكنني لم أنس في أي لحظة قابلتُ فيها ذلك الزميل الجامعي، لم أنس أن أحمل منديلا كبيرا قادرا على استيعاب دموعي في لحظة كنت أعرف أنها تنتظرني هناك على عتبات المستقبل!

كنت دائما أخاف الفرح الزائد! وصدَق ظنّي!

فجأة اختفى، بعد أن اتّفقتُ معه على الموعد الذي سيأتي فيه إلى بيتي، لطلب يدي. سألتُ: قالوا سافر!

- سافر إلى أين ونحن...؟!

- إلى بلده، عاد إلى بلده!

فكرتُ بأن أحجز مقعدا على أول طائرة متوجّهة إلى حيث هو، بعد ساعة سأكون هناك، بعد ساعة فقط؛ وبدل أن أفعل ذلك وضعتُ نقطة في آخر السَّطر: إذا وجدتِ نفسكِ مضطرة للرَّكض خلف ذلك الذي هرب منكِ، لا تُمسكي به، حاذيه فقط، اِلقي نظرةً عليه وتجاوزيه، دعيه

خلفكِ!

تجاوزته، وبقيَ أمامي!

***

بدأتُ أعدّ نفسي لحياة غير تلك التي توهّمتُ أنني سأعيشها.

طوال عامين، هما فترة تدريبي في مكتبِ واحد من أفضل المحامين، محام كان نقيبا أكثر من دوْرة، ركَّزت كلّ طاقتي في العمل، لكنني للحقّ، لم أصل إلى النتيجة التي تقول: من يرَ مصائب غيره تَهُن عليه مصيبته! إذ اكتشفتُ أن ذلك كلام فارغ لا معنى له، كلام مراوغ لا يقوله سوى من ليس لديه مصيبة! دون أن يعني ذلك أنني كنت محبطة أو مكتئبة؛ فلم أكن أغيب عن أي نشاط عام، مثل تلك المظاهرة التي انطلقتْ من أمام مجمع النقابات مطالبة بفكِّ الحصار عن العراق، تلك المظاهرة التي كانت السبب في لقائي بسلمان، فقد رأى صورتي في الصّحف وفُتِنَ بها. حاول أن يتذكّر أين رآني إلى أن اكتشف أنه كان أعمى -كما قال لي فيما بعد- لأنه لم ينتبه جيدا لوجودي في أروقة قصر العدل، وفي مكتب أستاذي حين زاره أكثر من مرّة!

أما أنا، فيمكنني القول إنني لم أر سلمان أبدًا، ولو رأيته لما كان يمكن، بأي طريقة أن يلفت انتباهي، إلا إذا أصيب بنوبة قلبية على بعد متر مني، أو بنوبة صرع!

***

فوجئت بأمي تخبرني بأن هنالك من سيأتي لخطبتي، وكان ردّي سريعا وحاسما: مستحيل! رجَتْني أن أراه: ديانا، أنت الآن في الثلاثين من عمرك، ولن أستطيع أنا أو غيري أن نجبرك على شيء لا تريدينه حتى لو تقدّم لخطبتك إمبراطور! القرار قرارك!

أخبرتها أنها تُضيِّع وقتها وتوتِّر أبي من جديد في جولة سأخرج منها

مهزومة بالتأكيد؛ وذكّرتها بالأخير الذي جاء يطلبني عبر أصدقاء للعائلة، وصارحهم بعد أن رآني: إنها ممتازة، ولكنها طويلة بعض الشيء! والآخر الذي جاء إلى بيتنا ولم يعد يريد العودة إلى بيته، تشبّث بالمقعد أمام أبي شبه مصعوق بما يراه؛ لكنه حين خرج لم يعد. قالت لهم أمي حين جاؤوا يعتذرون لأنهم غيّروا رأيهم: لقد جُنّ بها حين رآها!

- هذا صحيح!

- وما الذي حدث؟!

- يقول إنها جميلة أكثر مما يجب! وإنه، إذا ما تزوَّجها، سيكون مضطرا لارتكاب جريمة كلما خرج معها!

***

أصرّت أمي أن أرى العريس الجديد: ثمّ إنه زميل لك!

- ماذا تعنين؟!

- إنه محام مثلك!

- كان لي سبب فأصبح لديّ عدّة أسباب. لا!

- أرجوكِ ديانا، دعي المسألة تمرّ بسلام، وأنا معكِ في أيِّ قرار تتخذينه.

- لقد اتخذتُ قراري!

- أعدكِ، ستكون هذه المرة هي الأخيرة!

كان أبي يراقبنا صامتا، كعادته، إذ لم يكن يقبل بأن أُجبر على شيء منذ أن وعيت.

- حاضر. سأقبلُ هذه المرّة، ولتكن الأخيرة!

- هي الأخيرة! ثم التفتتْ إلى أبي وقالت له: البنت وافقت كما ترى والرجل سيأتي ليطلبَ يدها؛ شيء واحد أريده منك: لا تُفسد الأمر بحديثك الدائم في السياسة!

هزَّ رأسه: لا للسياسة! لا للسياسيين! فقط معرفته، ومعرفة وضعه الاجتماعي!

***

مساء اليوم التالي عدتُ إلى البيت قبل موعد عودتي اليومية بساعتين: في الخامسة مساء. وجدتُ أمي قد رتّبتِ البيتَ، ووضعتْ زهورا. أحبُّ الورد بشكل خاص، وأحسّ وجوده كقطعة موسيقية رائعة.

في السادسة والنصف من مساء ذلك اليوم، وصل. أحسستُ بأن الأمر سيكون سخيفا للغاية، إذا ما لعبتُ دوْر العروس، فهو زميل لي، وقد أصادفه في أيّ مكان، بل قد نكون خصمين في قضية واحدة! ولذلك لم أقبل أن أنتظر ليتحدّث أبي معه، ثم بعد ذلك يدعوني للتعرّف إليه، قلتُ لأمي: سأستقبله بنفسي!

بعد (يجوز) و (لا يجوز) سرتُ نحو الباب وفتحتُه.

تماما كما قلتُ: ما كان يمكن لي أن أراه، أو أن يثير اهتمامي بأي شكل من الأشكال، وسأضيف: حتى لو وجدته في جزيرة ليس فيها سوانا!

أعرف أن مبالغاتي هذه لئيمة، ولكنني أحبّها!

نهضتْ أمّي لتجهِّز الشاي، فتبعتُها؛ حين وصلنا المطبخ، همستُ وكأنني أصرخ: ما الذي يمكن أن أتزوّجه في رجل كهذا؟!

كانت على وشك البكاء: آسفة، ما كان عليَّ أن أجُرَّك إلى مثل هذا الموقف!

احتضنتُها: لا عليك: واحدٌ آخر سيخرج من هذا البيت من دوني!

حين عدنا، كان أبي صامتا لم يزل، نظر إلينا، كان أكثر ارتباكا منّا، ولذا، لم يجد مدخلا للحديث معه إلا السياسة! وقد أدرك أن لا ضرورة للسؤال عن عمره، الذي كان واضحا: أكبر مني بخمس عشرة سنة على الأقل؛ ولا عن وضعه الاجتماعي! فما الذي يعنيه وضعه وهو على هذه

الصورة! وما إلى ذلك من أسئلة! قلت: لقد أفسد أبي بهذا ما هو مُفسَد، وقد أبدعَ كما لم يُبدع من قبل! وبدتْ أمي سعيدة بحديث السياسة لأول مرّة في حياتها!

المفاجأة أن ذلك النحيف، المائل إلى القِصر، ذو الشعر الأحمر، استطاع بعد ثلاث دقائق أن يستولي على قلب أبي وقلبي وأن يجعل أمي تحدّق فيه فاتحة فمها غير مُصدِّقة! كان يتحدّث بثقة وبمبدئية، ويحلل الأمور بعقلية فذّة تستثير حماسيَ المعهود لكلّ ما هو وطني!

حين انتهى، سألتُه: ألم تتزوّج أستاذ من قبل؟!

- الحقيقة، كنت أريد أن أخبركم بهذا، لكن حديث السياسة مضى بنا بعيدا. أشكركِ على السؤال: نعم كنت متزوّجًا ولديَّ ابنة وولد!

لم يخطر ببال أحدنا أن يسأله عن معنى (كنتُ متزوجا) هذه، التي سأجدها في انتظاري بعد سنوات قليلة.

- لا أعرف إن كنتَ بعد أن رأيتني ما زلتَ مُصرًّا على طلب يدي أم لا؟!

- بل أكثر من قبل!

كنت في الحقيقة أتحدّث كما لو أنني أشنُّ هجوما دفاعيًا، قبل أن أتلقى الضربة الكبيرة التي تلقيتها مرارًا من سواه! كنت أتحدّث بعصبيّة، رغم إعجابي الهائل بمنطقه، لأنني لا أريد أن أُجرَح ثالثة، بل سابعة! ولم يكن هنالك سبب لغضبيَ المكبوت سوى أنه استطاع أن ينال إعجابي وطوّح بقراريَ المتسرِّع الذي اتخذته عندما فتحتُ له الباب!

- لكنني أحبُّ أن أخبركَ، إن لم تلاحظ! بأنني طويلة، أطول منك!

صمتَ قليلا، دون أن يرفع نظره عني وقال: وما المشكلة في ذلك؟

- ولعلي جميلة أيضا! فقد يضايقك هذا!

- الجمال هو النعمة الأعظم التي لا نستطيع أن نغلق أبواب قلوبنا في

وجهها!

أعجبتْني جملته!

- دعني أُفكِّر إذًا.

وقال أبي الذي أمسك بمجداف السَّفينة من جديد: سنجيبكَ بعد يومين!

***

صرختْ أمي في وجهي ما إن خرج سلمان: هل جُننتِ؟! كيف تقبلين بواحد مثله، كان متزوّجا، و...

أطبقتْ بأسنانها على وصْفِها له، فقد أدركتْ بحاسَّتها السّادسة أن ليس من اللائق شتم زوج ابنتها بألفاظ قبيحة!

***

جملة أخيرة: لقد اكتشفتُ فجأة أن لا شيء يمكن أن يفتنني مثل رجل فصيح!

ذلك المفهوم الشهير الغامض!

سمعتُ عن الدكتور كريم كثيرا في سنيني الثلاث الأولى في الجامعة، حالة استثنائية من القدرة على نيل الإعجاب بجنون، وإصابة كثيرين بالنفور أيضا، ولكي أكون أكثر دقة: الكثيرات!

استأذنته في السنة الثالثة ليسمح لي بحضور واحدة من محاضراته، تأمّلني قليلا، كما لو أنه يفكر فيما إذا كان عليه أن يسمح لي أم لا!

كنت أعرف أنه سيسمح!

مدفوعةً بفضول معرفيٍّ كنتُ، كطالبة متفوّقة، حصلتُ على أعلى علامات حصل عليها طالب أو طالبة في كليتي.

سألني عن اسمي: نُهى، نُهى راضي! رحَّب بي قبل أن يبدأ المحاضرة، ولم يبدُ عليه، أو يصدر منه، ما يشير من قريب أو بعيد إلى أيّ اهتمام خاص، أكثر من كوني طالبة مجتهدة لا تكتفي بمحاضراتها المقرّرة بل تتطلّع لمحاضرات أخرى.

كنت مشغولةً فعلا بذلك المفهوم الغامض الشهير الذي كان يدير به رؤوس الطلبة، حول فردية المجتمع واجتماعية الفرد!

في ذلك اليوم، كانت محاضرته مع طلبته حول فيلم عنوانه (ملقى بعيدا) أو (Cast Away) للممثل توم هانكس؛ كنتُ رأيت جزءا غير قصير منه حينما عرضته إحدى محطات الأفلام، ولكنني لم أفهم مما شاهدتُ أكثر من أنه يتناول حكاية رجل سقطتْ طائرتُه في جزيرة نائية

في أحد المحيطات.

سأل الدكتور كريم الطلبة والطالبات إن كانوا شاهدوا الفيلم كما اتفق معهم، وكانت الإجابة بالإيجاب. ثم سألني إن كنت شاهدتُ الفيلم من قبل، فأجبته: شاهدتُ قسما لا بأس به منه، فقال: يؤسفني أن أقول إنك لم تشاهديه إذا، لأن كل دقيقة في العمل الفني الكبير لها وزنها ولها ثمنها، وتحدَّث عن فيلم عنوانه (صرخة الحرية) شاهده في إحدى دور السينما بعمّان، وكان الفيلم يتناول حياة المناضل ستيفن بيكو من جنوب أفريقيا، قال: قامتْ دار السينما يومها بحذف نصف ساعة من الفيلم، لا لسبب إلا لكي تختصر مدّة العرض! وحين عرف بعد أيام كلفة الفيلم أدرك أن دار السينما حينما حذفتْ نصف الساعة ذاك، كانت قد ألقتْ في سلة المهملات بأكثر من ثلاثين مليون دولار أُنفِقتْ على إنتاج تلك الدقائق! وهنا استدار ثانية وسألني: هل تعلمين كم مليونا أضعتِ حين لم تشاهديه كاملا؟!

ابتسم الطلاب، وأجبتُ: لو كنت أعرف لما أضعت تلك الملايين أبدا ولكنت اليوم مليونيرة!

ابتسم، وابتسم كثير من الطلبة.

هل تكون سرعة البديهة من جينات أبي؟ بالتأكيد! حتى أنها كانت منذ سنتي الجامعية الأولى أقوى بكثير من خجلي! ففي الوقت الذي كنتُ فيه أخجل من التدخّل في حوار ما، أحيانا، لم يكن باستطاعتي كبح جماح سرعة البديهة بالتّعليق على كثير من الأمور التي أسمعها، قبل أن أعود إلى خجلي.

ترك الدكتور كريم الطلاب يتحدّثون واحدا بعد الآخر عمّا فهموه من الفيلم، ولم يكن ما فهموه أكثر مما فهمته حين شاهدتُ الفيلم مبتورًا في الحقيقة! لكنه كان يهزّ رأسه موافقا ومفسحا المجال لآخرين لكي يُدلي

كل منهم بدلوه في معنى الفيلم.

حين انتهوا، سألني، وما رأي الآنسة نُهى؟

قلت: للأسف لا أستطيع الحديث في هذا وأنا لم أشاهد الفيلم كاملا.

فقال بفرح: أشكركِ. خشيتُ أن تطرحي رأيك، وما كان يمكن أن يكون ذلك في صالحكِ أبدا!

تلفتُّ حولي، وقد أدركتُ أن وضعي كضيفة خفيفة الظلِّ ما زال مستمرا لأنني لم أتدخّل.

تحدّث عن شخصية (تشاك نولاند) وكرر الاسم أكثر من مرّة، ليلفت الانتباه إلى معناه (بلا أرض)، وعن اختراع تشاك صديقا له مستخدما كرة، أسماه ويلسون، وتساءل عن مغزى أن يرسم تشاك وجهَ صديقه الوهميّ بدمه! تحدّث عن آلام الأسنان التي عانى منها تشاك، وسأل إن كان ذلك له دلالة ما في الفيلم، وحين لم يجب أحد لفتَ الانتباه إلى أن خطيبة تشاك التي فقدتْ الأمل بعودته حيًّا، ارتبطتْ، ويا للسخرية، بطبيب أسنان!

نبّه أكثر من مرّة إلى أننا حين نشاهد فيلما لواحد من المخرجين الكبار علينا أن ننتبه لكل شيء، فلا شيء يوضع في الفيلم إلا ويكون له وزنه. كان مُنطلِقا في تحليل الفيلم، موضِّحا أدقّ التفاصيل، بحيث كنا أشبه بمن لم ير فيلما واحدا في حياته!

في النهاية حدَّثنا عن استماتة تشاك للعودة إلى المجتمع، لأنه لا يستطيع العيش دون هذا المجتمع، حتى لو كان المكان الذي يعيش فيه جزيرة تبدو وكأنها قطعة من الجنة!

وسأل: ما الذي حلم به تشاك، ليستبدله بهذه الجنة الصغيرة؟!

- قبره! قالت إحدى الطالبات. ضحك طلبة كُثر.

صمتَ الدكتور كريم إلى أن تلاشت آخر ابتسامة عن وجوه طلبته.

- لقد وجد قبره في انتظاره. وحين سأل تشاك: وما الذي وضعتموه في التابوت؟ جاء الردّ: بعض أشيائك الحميمة التي كانت في حوزتنا!

وعاد الدكتور كريم لصمته من جديد، كما لو أنه يتأمّل عراك الأفكار في رؤوسنا!

- هل هنالك من يريد أن يُعلّق، أو يضيف شيئا؟

لم يجب أحد.

قال: تعرفون، لو كان هذا الفيلم موجودًا في الفترة التي أنجزتُ فيها أطروحتي لاستندتُ إليه بشكل كبير في دعم وجهة نظري! ما يثير في الأمر، قال، أن المجتمع لم يكتفِ باعتبار تشاك في حُكْم الميت، أو أنه مات وشبع موتا، كما يقال! ما يثير هنا، أنه تخلّص حتى من كل ما يُذكِّره بتشاك: الأشياء الصغيرة الحميمة! لا لشيء، إلا لأن المجتمع قادر دائما على العيش دون تشاك، والتصرّف بأنانية مفرطة في هذا المجال! عكس تشاك الذي بدا بطلا أسطوريا وهو يخترع الوسيلة تلو الوسيلة للعودة إلى محيطه الاجتماعي.

مشكلة تشاك، هي وهْمه الكبير الذي يهمسُ له: إن الناس كلّهم في انتظاره على الجانب الآخر، وإذا ما كان لهذا الوهم من فائدة، وهو وهم إنقاذيّ في الحقيقة، فإن هذا الوهم قد لعب دور طوق النجاة له (هناك) كي يعود إلى العالم الذي هو منه (هنا)، لكنه في الحقيقة عاد إلى صورة مغايرة غير تلك الصورة التي كان يظن أنها الحقيقة التي تستحقّ كل عناء!

هنا حياة تسير غير عابئة بالفرد الذي تخسره، لأن الخسارة تتمثّل في تلك اللحظة، لحظة الفقدان وما يليها، وعمرها دائما قصير! وذلك عكس حياة تشاك الذي أحسَّ، في جزيرته، بأن حضوره لن يتحقّق إلّا بوجوده بين الآخرين.

هل يمكن القول هنا: إن المجتمع بأكمله كائنٌ ضخم غير اجتماعي حين ينظر إلى الفرد كجزء ضئيل منه، مهما كان حجم هذا الفرد وأهميته في النهاية، لأن الحياة دونه يمكن أن تسير، بل تواصل سيرها باستمرار؟! وهل بالتالي يمكننا القول إن الفرد لا يمكن أن يكون خارج الجماعة مكتفيًا بذاته حتى لو كان أهمّ من كتلة بشرية هائلة وأنفع منها؟ هل يمكننا الوصول إلى هذه النتيجة بالتالي: إن الفرد هو الكائن الاجتماعي، إي أن صفة (الاجتماعي) لصيقة بالفرد لا بالمجتمع!

أخذ الدكتور كريم نفسا عميقا، تأمّلنا، قبل أن يضيف: لكن المهم هنا في الفيلم، وخارجه بالطبع، هو ما يستطيع الفرد أن يحقّقه؛ وما حققته إرادة تشاك نولاند لا يقلُّ سموًّا وأهمية عما كان يتوق إليه؛ سواء أكان يعي ذلك أم لا يعيه. لقد عاد من هناك وكأنه ذلك الشخص الذي بنى العالم من نقطة الصّفر، عالمه الخاص. لذا كان من الطبيعي أن يُلقي نظرة ساخرة على ولّاعة أوتوماتيكية: يتأمل الشّعلة الصغيرة ويتذكّر أنه، ولا أحد غيره، استطاع أن يشعل ناره الخاصة، بيديه هو، لا بيدي سواه! بخاصة إذا ما تذكرنا أن صرخة النصر الوحيدة التي يُطلقها على الجزيرة هي التي تعقب إشعاله للنار؛ النار التي كانت على الدوام في المخيلة البشرية سرّ الأسرار الذي لا بدّ من امتلاكه كي يكتمل الوجود.

***

حين انتهت المحاضرة، جلس خلف الطاولة، منتظرا خروجنا، دون أن يلتفتَ إلى أيّ منا! بدا متعبا لفرط انفعاله بما قاله، وحين مررتُ بجانبه، أدركتُ أنني سأكون واحدة من طالباته في العام التالي، ولكنني لم أدرك معنى أنه لم يُعرْني أيّ انتباه! إلا حينما أصبحتُ إحدى طالباته في السنة التالية، إذ ما إن رآني في الممر أمام باب القاعة، حتى قال لي: نُهى! كنت أعرف أنك ستنضمّين إلينا هذا العام!

وكم فاجأني أنه لم يزل يتذكّر اسمي!

ابتسامات ما قبل لحظة البكاء!

اتصل بي مدير مكتب سلمان بيك وطلبَ منّي أن أكون في انتظاره في الساعة الثامنة مساء أمام البيت.

- دكتور كريم، سأمرُّ بكَ وآخذك في طريقي. قال لي.

سألته، ما إذا كان الموعد مبكرا بعض الشيء. فردّ: البيك يريد أن يراك قبل وصول الضيوف!

كانت الفيلا كما تخيَّلتها، على قمة عالية في منطقة دِيْر غُبَار، تطلُّ على مدينة عمان كلّها، وبعض المناطق المجاورة أيضا.

حيّرني أن سلمان بيك لم يكن هناك حين وصلنا! حيرني أن مدير مكتبه قادني إلى باب جانبي خفيٍّ وكأنه صاحب البيت؛ قرع الجرس فأطلَّت خادمة فلبينية أربكني جمالها، إذ لولا لباسها الرّسمي، لظننتُ أنها سيّدة البيت.

قادتنا الخادمة إلى صالون كبير، كان باستطاعتي أن أشاهد فيه أعمال عدد من الفنانين العراقيين والسوريين واللبنانيين والأردنيين الذين أعرفهم.

بعد أن جلستُ، وطال انتظاري، وجدتني أنهض لتأمل اللوحات عن قرب؛ فبمجرد دخولنا، استأذنني مدير مكتب سلمان بيك، واختفى، ولأول مرة أنتبه إلى شيء غريب فيه، كان طويلا بشاربين أسودين كثّين، يذكران بأمثالهما في ستينات القرن الماضي، ووجه مدبب كحافة مسطرة

معدنية، ونظرات دوّارَة تحاول استكشاف كل ما حوله في اللحظة ذاتها، وفي حركته ما يذكّر بذلك الغراب الذي حاول تقليد مشية الحمامة فلم يستطع إتقان ذلك، كما لم يعد يستطيع العودة إلى طبيعة مشيته الأولى!

تجوّلتُ في الصالون مكتفيا بمشاهدة هذه الثروة المُتحفيّة الهائلة.

بعد دقائق، جاءت الخادمة وعرضتْ عليَّ أن أشرب شيئا. اعتذرتُ، إذ لم يكن من اللائق أن أحتسي شيئا وأنا لم أر بعد صاحب البيت!

سمعتُ جرس باب، تفاءلتُ: ها قد بدأ الضيوف بالوصول، وبدأتُ أتساءل عن ردَّة فعل من سيصافحني أولا، ومن سيكون. ثم استطعت أن أميّز صوتَ سلمان بيك وضيفه: إنه الدكتور عبد الله، عميد كلية العلوم. هو إذًا أوّل الواصلين!

لم يُفتح باب الصالون الذي أنا فيه كما توقعتُ! وما هي إلا لحظات حتى سمعتُ الجرس ثانية وثالثة، وعاشرة. ميّزت صوتا وجهلتُ آخر، وارتفعتِ الضجةُ. قلتُ: فكرة رائعة أن يدعوني للدّخول، ومن باب جانبي في بيته، حين يكتمل عدد الضيوف.

حين عادت الخادمة، وسألتْ عمّا أريد أن أشربه، لم أتردد قلت لها: (Red Wine) إذا سمحتِ! هزّت رأسها بطريقة لم أفهمها. غابت قليلا، ثم عادت تحمل صينيّة فضيّة وضعتْها أمامي وفوقها قارورة جعة. سكبتْ لي. شكرتُها. غابت ثانية، ثم عادت تحمل صحنَ مُكسّرات، وصحنا آخر من خضروات أعرف بعضها لا غير؛ وقد بتُّ أكثر تساؤلا عن معنى أن يضعني هنا مدير مكتبه ولا يعود، وعن معنى أن يجعلني أنتظر إلى هذا الحدّ.

رفعتُ القارورة. كانت المرة الأولى التي أرى قارورة مثلها. فوجئتُ؛ كانت خالية من الكحول!

***

في العاشرة تماما دخلتِ الخادمةُ الجميلة نفسها، ورفعتِ القارورةَ الفارغة بحركة مدروسة، وابتعدتْ، ولم تمرّ أكثر من دقيقتين، حين رأيتها تعود بقارورة أخرى وكأس جديدة!

فتحت القارورة، سكبتْ لي، وخرجتْ. قلت: لا ينقصني سوى أن تحضر لي صحن طعام بعد قليل!

في تلك اللحظة فكرتُ في الخروج، في مغادرة البيت وليكن ما يكون! وقبل أن أفعل، فُتح باب يؤدي إلى الصّالون المجاور، وأطلَّ سلمان بيك، فلمحتُ عبرَ ذلك الفراغ الذي لم يستطع جسده الصغير أن يسدَّه، عددًا من الوجوه التي أعرفها جيدا. صافحني، وقال: أعذرْني، تأخرتُ عليك؟ أرجو أن يكونوا قد قدَّموا إليك كلَّ ما تحتاج!

شكرته: لم يقصِّروا! وكان دمي يغلي، فقال: كان من المفترض أن يجلس معك مدير مكتبي، ولكن أمرا طارئا أجبرني على إرساله في مهمة سريعة.

- لا بأس، أجبت بجفاء!

- هكذا هي الدنيا، مُقسَّمة، جزءٌ هنا حيث نجلس، وجزء هناك حين يُطلقون النكات ويتضاحكون، وجزء كبير ضائع في الخارج! وابتسم قبل أن يضيف: أنت الآن على الصراط المستقيم! والسؤال: هل تنوي فعلا أن تطوي صفحتك القديمة؟

- بالتأكيد!

- إذن لننهض، أظنّ أن الوقت قد حان للقاء زملائك من جديد، فعودتك رسالة نادرة لهم أيضا، لكي يروا بأعينهم ما أستطيع فِعله!

أمسكَ بيدي حين نهضتُ، وسار نحو الباب. سبقتنا الخادمة التي لا أعرف من أين خرجتْ، وأشرعتْه، التفتتْ العيون نحونا، وهبَّ صمتٌ كان يتسع كلّما وقعتْ عليَّ عينا شخص من أولئك الذين شنّوا عليَّ

حروبا لا هوادة فيها! أما رئيس الجامعة، الذي كان في آخر الصالون، فلم ينتبه إلا في النهاية. استدار ليعرف سبب الصمت المفاجئ، فوجد نفسه وجها لوجه معي، وبجانبي سلمان بيك ممسكا بيدي ويبتسم!

بسرعة تداركوا الموقف فراحوا يمسحون غبار الدّهشة الثقيلة عن ملامحهم، ويدَّعون ابتساما كان أشبه باللحظة التي تسبق البكاء!

- اسمحوا لي أن أرحِّب بكم أولا! وأرحِّب بشكل خاص بزميلكم الدكتور كريم، الذي سينضمّ إلى أسرة الجامعة من جديد اعتبارا من صباح الغد! لقد تأكّد لي أنه ظُلِمَ، وأن الجامعة تسرَّعتْ كثيرا بشأن قرار فصله! كان يجب أن نتحرَّى الدِّقّة! لكن المهم أن الحقيقة ظهرت! وإن كان ظهورها قد تأخّر كل هذا الوقت! لا أريد أن أطيل، أرجو أن ترحّبوا معي بالدكتور كريم! وصفّق، فانطلقوا كلّهم يصفّقون، وإن كانت الحرارة التي تولَّدت بسبب احتكاك الأكف متفاوتة، بحيث كان باستطاعتي أن أرى الجليد بين كفَّي هذا الزميل أو ذاك! أما رئيس الجامعة، فقد بدا الأكثر تجهُّما؛ وبعد أن صافحني، مجاملةً، تحاشى الحديث معي والاقتراب مني طوال السهرة! في حين كان الدكتور رجب الناصر أستاذ التاريخ فرحا بقرار سلمان بيك ومستعدا أن يحملني على كتفيه ويدور في الصالة راقصا!

رغم الجو المشحون، كنت راضيا، بل انتابني حسٌّ عميق بأنني المنتصر الوحيد؛ فها أنا أعود رغم الجميع. ولعل نشوة النصر أراحتني كثيرا من التفكير في الثمن الذي عليَّ أن أدفعه، مقابل عودتي مباشرة، أنا المهزوم، إلى ساحة النصر لأتوج بطلا!

***

بعض الزملاء راحوا يسألونني بصدق عن أخباري وماذا فعلتُ بعد مغادرتي للجامعة؛ وكانت فرصتي سانحة لكي أستفيض: سافرتُ إلى

باريس مرّتين في منحة تفرّغ! أنجزتُ كتابا جديدا سيصدر بالفرنسية في الربيع القادم عن دار لينوي. وتجوَّلتُ قليلا في أوروبا، تعرفون: الحياة قصيرة دائما مهما طالت، وليس من مكان يمكن أن يكون المرء فيه سعيدا مثل باريس! ولكي أبدو طبيعيّا، سردتُ على مسامعهم مغامرة كنت في الحقيقة عشتها قبل أكثر من عشرين عاما، أي أنني لم أكذب، لكن ترحيْلها من زمن إلى آخر كان هو التلاعب البسيط الذي يمكن تجاوزه!

قبل نهاية السهرة، بعد العشاء، ظهر مدير مكتبه من جديد، همس في إذن سلمان بيك كلمات قليلة وابتعد.

كانت الفترة التالية فترة للنكات والحكايات. الضحكات تتعالى أحيانا، والتأثّر بادٍ على الجميع. بحر من الذّكريات ملأ الصالون الضخم بحكايات من الطفولة والشباب والكهولة، حكايات صداقات ومغامرات عاطفية، وحكايات بؤس، وحظٍّ أطلَّ في اللحظة الأخيرة! تكلّموا جميعا، وكان سلمان بيك شاردا، وحين كان يضحك بين حين وآخر أُدركُ أنه لم يضحك إلا لأنه فوجئ بهم يضحكون، حين أعادوه من شرود!

مثله، بقيتُ صامتا، لم أقاطع أحدا لأزجَّ حكاية لي بين حكاية على وشك الانتهاء وأخرى على وشك أن تُقال. وحسنا فعلتُ! هذا ما سأكتشفه فيما بعد! فقد كان سلمان بيك راضيا عن صمتي، صمتي الذي أحسَّ به بعضُهم بأنه صمت مُترفِّعٌ لا غير! وقد عدتُ إليهم من جديد قويّا، كما لو أنني هبطتُ بينهم بالمظلة! أو أوصلتْني إلى بوابة الفيلا دبابة! مثل تلك التي ستوصلني صباح غد إلى بوابة مكتبي!

لا أستطيع القول إنني كنتُ مستمعًا جيدا في تلك الليلة، فقد كان عقلي يذهب في اتجاهات، ويخترع اتجاهات جديدة، حتى أنني ضبطتُ نفسي أفكِّر فيما إذا كانت زوجة سلمان بيك تقيم في هذه الفيلا، أم أن هذه

الفيلا مخصّصة لسلمان بيك وسهراته، كما يحدث في كثير من دول الخليج، والكويت التي أعرفها؟! وتساءلت أيضا: رجل بعمره، يمكن أن يكون له أولاد شباب، ومن الطبيعي أن يكونوا حاضرين في ليلة كهذه. وبقيتُ غارقا في الأسئلة حول الأحوال الشخصية لسلمان بيك حتى انتبهتُ إلى أن الضيوف بدأوا يغادرون واحدًا واحدًا مودِّعين، دون أن تفارق أعينهم شخصي. تناسى بعضهم أن يصافحني، وشدَّ بعضهم على يدي وهو يقول: نراك غدا إذًا! أو: إلى اللقاء غدا. كما قال أستاذ التاريخ! أما رئيس الجامعة، فلم يملك إلا أن يصافحني على مرأى سلمان بيك. فقلتُ: لقد فكَّر أخيرًا وأدرك أن مصلحته فوق مبادئه! كانت جملتي صادمة لي، كما لو أنّ أحدا سواي قالها، ووجَّهها إليَّ دون الحضور! أحسست بطعنة قوية في صدري. تماسكتُ!

طلبتُ الإذن من سلمان بيك في الانصراف، فقال لي: أحتاجك في أمر ضروريّ. سمعه رئيس الجامعة، فاربدَّ وجهه. وأحسّ من بقيَ في ذلك الصالون أنه يقول لهم: مع السلامة!

دقائق قليلة، ولم يكن قد تبقّى أحدٌ باستثناء مدير مكتبه الذي انسحب نحو الصالون المجاور، الصالون الذي كنت قد حُشِرتُ فيه!

***

سار سلمان بيك نحو إحدى خزائن الصالون، أخرج مفتاحا من جيبه، انحنى، تناول شيئا ما، ثم أغلق الخزانة وأعاد المفتاح إلى جيبه من جديد. وحين استدار رأيت في يده قارورة، صبَّ لي بنفسه كأس كونياك. انتظرتُ أن يصبَّ لنفسه، فهِم نظرتي: كل الأشياء يمكن أن أعتبرها مقبولة، بل حلالا باستثناء الخمور؛ أنني أعتبرها الشيء الوحيد المحرَّم! قال لي بوقار غريب، وأضاف: حسنا أنك لم تروِ أيًا من قصصك الكثيرة هذا المساء! فلعلّنا نحتاجها مستقبلا في سهرات قادمة! واختتم لقاءه

بجملة بدتْ لي غامضة تماما، منذ اليوم لا أريدك أن تهدر قصصك التي عشتها أبدًا!

- ما الذي تعنيه سلمان بيك؟! قلت ذلك وأنا أراقب كأسي التي لم ألمسها!

- لديك حكايات كثيرة أليس كذلك؟

- أظن هذا.

- بل أنا متأكد من هذا، وقد اشتريتها منك!

- لم أفهم!

- سأُفهمكَ فيما بعد.

نهض، فنهضتُ، وقبل أن نصل الباب الخارجي المُشْرع على الحديقة الواسعة، كان مدير مكتبه قد سبقنا وجَّهز السيارة. اقترب أحد العاملين في الفيلا، وفتح لي بابها. تحركتِ السيارة، ورأيت أصابع سلمان بيك تودِّعني بحركة أشبه ما تكون برفيف طائر فَقَدَ جناحَيه!

حين وصلنا باب العمارة التي فيها شقّتي، امتدَّت يد مدير مكتبه خلف كرسيّه، وأخرج شيئا، رفعه على بعد سنتمترات من أنفي! كانت قارورة كونياك: سلمان بيك يقول إنك ستكون بحاجة إليها!

صيف آخر في عمّان؟!

- كنتُ أعرف أنكِ ستختارين المادّة التـي أُدرِّسـها! تعـرفين لا شيء أفضل من أن تكون بين طلبتي فتاة مثلك!

- تقصد ذكية دكتور أم جميلة؟!

أحسستُ أنني أربكته، خجلتُ، ولكـن المـسؤول عـن ذلـك سرعـة بديهة أبي التي لا يمكن لجْمُها!

- ذكية أولا وجميلة ثانيا!

- لا أعرف إن كان عليَّ أن أشكركَ أم أصمت؟!

- الأمر لكِ!

كان ماكرا، خجولا ووقحًا في آن.

دخلتُ، وتركته أمام الباب في الخارج، يراقب طلبته يـدخلون، مثـل راع يقظ عائد من السهول يحصي مواشيه مساء!

حين دخل القاعة، وراح يفتِّش باحثًا عن شيء عزيـز مفقـود، كنـت أعرف أنه يبحث عنّي. وحين رآني في الصفِّ الأخـير، قـال: آنـسة نُهـى، أرجو أن تتقدّمي لتجلسي هنا في الصفّ الأول، ثم التفتَ إلى شاب كـان يجلس في الزاوية، وقال: صالح! اسمك صـالح ألـيس كـذلك؟ تفـضّل واجلس هنا، فنهض صالح وجلس في الصف الأول الذي كان شبه خال أيضا. وهكذا ظلّ يستدعي الطالبات والطلبة واحدًا واحـدًا حتـى امـتلأ الصفُّ الأول!

- لا أحبُّ أن أراكم كلكم في الخطوط الخلفية! هذا يشعرني أنني قادم

لشنِّ هجوم عليكم، في الوقت الذي نحن فيه هنا لشيء واحد، هو أن نتحاور!

لم يكن صعبا عليَّ أن أُدرك أن كلَّ تلك التنقُّلات المفتعلة، وذلك الكلام الأكثر افتعالا، كان لها سبب واحد فقط، أن أكون أمامه، وأن يتأملني عن قرب!

***

في أول امتحان، اقتربَ مني، وكنت منهمكة في الإجابة على أسئلته. دسّ ورقة صغيرة تحت ورقة امتحاني وابتعد.

ارتبكتُ: هل يمررُ لي الإجابات، أنا التي لستُ في حاجة إليها!

تلفتُّ حولي بذعر، خائفة من أن يكون هناك من انتبه لحركته. كان الذين إلى جانبيَّ في واد آخر! لكنني لم أعرف أيّ شيء عمّن كانوا ورائي!

بذعر أكبر حرّكتُ ورقةَ امتحاني، وكم فزعتُ حين رأيتُ ورقة بيضاء مكتوب عليها رقم موبايل!

طويتها، ثم كوَّرتها، ووضعتُها في جيبي وأخرجتُ منديلا ورقيًّا ومسحتُ به أنفي وأعدتُه إلى مكانه!

***

مرَّ يوم الأربعاء والخميس، ثم جاءت العطلة الأسبوعية، ولم أتَّصل بالطبع، وحين عدتُ إلى الجامعة، وجدتُ أسوأ علامة نلتُها حتى ذلك اليوم في الجامعة 4 من 10، بل أسوأ علامة نلتها منذ أن كنتُ في الحضانة!

حين دخل قاعة المحاضرات بدا أكثر انشراحًا من أيِّ يوم رأيته فيه! كان انشراحه تهديدا فجّا لا يُحتَمَل؛ وكنتُ أعرف أنني في السنة الأخيرة،

وأن عليّ أن أنجح في هذه المادة لكي أتخرَّج!

تعامل معي في المحاضرات الخمس التالية ببرود تام، كما لو أنني لستُ موجودة، وفي المحاضرة السّادسة، فاجأنا: اليوم امتحان! وقبل أن نحتجّ وضع الأوراق أمام أول طالب في الصف الأول يجلس يسارًا، وطلبَ منه أن يمرِّرها إلى بقية الطلبة.

سار عدة خطوات وجلس خلف الطاولة، فتحَ كتابا، وبدأ يقرأ. تاركا كلَّ مَن في القاعة يتبادلون نظرات الاستهجان.

- العِلْم يعني أن تكون جاهزا دائما. فالحياة كالجنديَّة، لا يمكن أن تطلب من مسؤولك العسكريِّ العودةَ إلى منزلك لتتدرب وتحضر بندقيتك لأن حربا فجائية شُنَّت عليك! لا يمكنكَ، كلّما وجِّهَ إليك سؤال، أن تذهب للبحث عن مرجع في المكتبة لتُجيب! قال ذلك دون أن يلتفتَ إلينا، وبعد ربع ساعة وقف وسار بين المقاعد، وحين وصلني وضع يده على طاولتي، وحين رفعها، كان رقم هاتفه قد أصبح تحت ورقة الإجابة!

في تلك اللحظة أدركتُ أيّ مأزق ذاك الذي وضعتُ نفسي فيه، حين اخترته من بين كل أساتذة هذه المادة!

وكما فعلتُ في المرّة الأولى، كوَّرتُ الورقة ووضعتُها في جيبي وأخرجتُ المنديل الورقيَّ الأبيض، مسحتُ أنفي وأعدته!

***

قبل انتهاء السنة الدِّراسية كنت منهكَةً، ولكنني فجأة قررتُ: يريد أن يدفعني لكي أعيد المادة، سأعيدها! أهذا أسوأ شيء؟! سأحتمله! فصلٌ آخر في عمّان لن يضرَّ؛ سألتحق بالفصل الصّيفي، وأستريح من حرِّ صيف الرياض، و...

كنتُ تعرَّفتُ في ذلك الفصل إلى طالبة بدتْ رقيقةً وطيبةً على نحو

مؤثر: رُديْنة، كانت تُحضرها في مواعيد دقيقة سيارة مرسيدس سوداء، وتعود بها؛ ولم يكن صعبا عليَّ أن أعرف أن سائقا هو من يقودها، لا أحد أفراد الأسرة، من الطريقة التي تغادر فيها السيارة!

ساعات الفراغ المترامية بين محاضرة وأخرى في بعض الأيام، أتاحتْ لي الاقتراب من رُدينة وأتاحتْ لها الاقتراب منّي. منذ البداية بدوْنا كصديقتين قديمتين، فيها كثير من خجلي! ذات مرّة أصرَّت أن توصلني إلى السَّكن، ومرّة أخرى أصرَّت، أثناء وجودنا في المرسيدس، أن أتناول طعام الغداء عندهم. حين اعتذرتُ، قالت: أحمد، لا تُوقِف السيارة إلا أمام عتبة بيتنا!

***

ما حيرني كثيرا أن السائق أوصلنا وانطلق، أمّا ما حيرني أكثر فهو أن الشقّة الصغيرة المتواضعة التي كانت تسكنها العائلة لم تكن متناسبة أبدًا مع سيارة المرسيدس، بل بدا لي أن ثمن المرسيدس أعلى بكثير من ثمن الشقة!

صمتُّ، باعتباري ضيفة تدخل البيت للمرّة الأولى. أنهينا غداءنا: فاصوليا خضراء مطبوخة بلحم الدِّيك الرّومي! كانت أطيب فاصوليا آكلها في حياتي. قالت أمها، حين رأتني أُنهي صحني: جائعة أم أحببتِ طعامنا؟! فقلتُ: بل أحببته. فقالت: هذا بسبب لحم الديك الرّومي؛ ذقناه ولم نعد قادرين على تناول أيّ لحم سواه.

كانت أمها بحجمها الصغير وعينيها المضيئتين وبشرتها المائلة إلى البياض، أشبه بلُعبة، ولو لم تقلْ ردينة، حين دخلنا: أعرِّفكِ بأمي! لما خطر ببالي أنها أمها فعلا!

تبادلنا أحاديث عامة حول الجامعة بحضور أمها؛ لكن الأمّ انسلَّتْ بلطف بعد أن طلبتِ الإذنَ منّا لأنها معتادة أن تغفو نصف ساعة بعد

الغداء.

حيّرني أننا كنا أنا ورُدينة أكثر تحفّظا في بيتها، مما نكون عليه عادة في الجامعة!

في السابعة مساء استأذنتُها: أظنّ أن الوقت قد حان لكي أعود إلى البيت.

حاولتْ أن تستبقيني، ثم قالت:انتظري لحظة، الدّنيا ليّلَتْ، سنوصلكِ إلى مكان سكنك!

حاولتُ أن أتملّص، أن...، لكنها أصرّت، وأصرَّتْ أمها التي كانت قد استيقظتْ وشربتْ معنا القهوة.

توقّعتُ أن تكون المرسيدس في انتظارنا أسفل البناية، لكنها لم تكن هناك، وكم فوجئتُ حين أوقفتِ الأمُّ سيارة تكسي، وانحشرنا ثلاثتنا في كرسيِّها الخلفيّ.

قبّلتني ردينة، حين وصلنا مبنى سكن الطالبات، وقالت لي بفرح حقيقي: أراكِ غدا.

غادرتُ السيارة، وسمعتُ أمها تقول للسائق: أعِدْنا إلى المكان الذي أخذتَنا منه إذا سمحت!

***

في اليوم التالي اتّصلتْ ردينة صباحًا وأخبرتْني أنها يمكن أن تمرَّ بي لنذهب معا إلى الجامعة، فأخبرتها أنني أصبحتُ في منتصف الطريق، لكننا وصلنا في النهاية في اللحظة ذاتها!

لم يكن صعبًا أن تبوح لي صديقتي بكثير من الأمور حول حياتها. أدركتُ هذا حين راحت تسألني عن أسرتي في السعودية: أبي، أمي، أخوتي، أقاربي في عمان، كان ذلك كلّه يدعوني لكي أكون لطيفة وأسألها.

تحدثتْ كثيرا عن وضع أسرتها، لكن أمرًا ما ظلَّ غامضا، هو طبيعة

عمل أبيها، وهل يعيش معهم أم أنه يعيش خارج البلد؟ هل أمها مطلَّقة، أم معلَّقة، مهجورة؟! أم يأتي إليها بين حين وحين؟!

احترمتُ صمتها، وإجاباتها الغامضة: قليلا ما يكون هنا! لا يتركنا نحتاج شيئا! يحبنا أكثر مما تتصوَّرين! لقد خصص لي سائقا بسيارة!

بعد يومين قالت لي ردينة بلا مقدمات: أنا ابنة سلمان سعود.

- أعرف!

- ولكن هل تعرفين من هو؟

- أبوكِ!

- ليس هذا فقط! إنه صاحب هذه الجامعة التي ندرُس أنا وإياكِ فيها أيضًا!

***

لم يطُل الوقت قبل أن أبدأ بسماع تفاصيل علاقة الدكتور كريم بطالباته، وتعدّى الأمر الحديث العام إلى الإشارة بالاسم إلى أكثر من طالبة.

كان يعمل على أقلِّ من مَهله، لأن لديه دائما علاقة ما! رغم أن إحدى العلاقات أوشكت أن تدمِّر حياته الأكاديمية مبكرا، إذ تعلَّقتْ به إحدى الطالبات، وكان يلتقيها في مكتبه، بل ويغلق المكتب عليهما غير عابئ بشيء، وحين جاءت ذات يوم، ووجدتِ المكتبَ مُغلقا، جُنَّتْ، فبدأتْ تطرقُ الباب بهستيريها، لأنها كانت متأكِّدة من أن هناك طالبة سواها في الدّاخل. ثم فجأة أوقفت الطّرْقَ، وذهبت لتُبلغ عن وجوده مع طالبة في المكتب في وضع مُخلٍّ! ذهابها، هو وحده الذي ساعده، إذ أتاح للطالبة التي كانت في الداخل أن تخرج. وحين عاد أحد المسؤولين الإداريين مع أستاذين آخرين، طلب منهما مصاحبته؛ طرقوا الباب، كان مغلقًا، فعادوا وطرقوه. خرج لهم متأفِّفًا، مدَّعيًا أنهم قطعوا حبل أفكاره وأفسدوا

بحثه!

دخلوا، ولم يكن هناك سواه. فاستُدعيت الطالبة للتحقيق ووجِّه إليها إنذارٌ، لكنه تنازل عن حقِّه في معاقبتها بعد أن اعتذرتْ له أمام القسم.

منذ تلك الحادثة، التي عرفتُها بعد أن حدث معي ما حدث، قيل، أصبح أكثر حذرًا.

لكن تلك التّمتمات العالية عن عالمه هذا، لم تمنع كثيرا من الطالبات أن يُعجبن به، بل كنَّ يطلقن عليه: أمير الجامعة. بسبب أناقته الدائمة. كان الوجه الحضاري الأنصع بين الجميع!

***

مع اقتراب نهاية العام الدراسيّ، رحتُ أُمهِّد لأهلي طريقَ الخبر الذي سيفاجئهم بالتأكيد: سأبقى في عمان فصلا دراسيًّا آخر!

كنت أتوقَّع أن يغضبوا، ولكن أبي قال: صيفٌ آخر في عمان لن يضرَّكِ، ثم إننا قادمون إلى عمان في الصيف، وستكون إجازتنا طويلة، فمنذ أعوام لم نزرْها زيارة طويلة!

***

الشيء الوحيد الذي بات يقتلني، هو كيف سأنسحب مهزومة أمام الدكتور كريم؟ كيف سأقبل بذلك؟!

كنا قد بلغنا شهر نيسان، وكانت الرّحلة اليومية إلى الجامعة التي تبعد أكثر من عشرين كلم عن عمّان، فرصة غير عادية للاستمتاع بالربيع، لكن عقلي كان في مكان آخر، بعيدا عن أزهار شقائق النعمان والأقحوان الأصفر والأعشاب الطويلة، بعد شتاء سقط فيه الثلج ثلاث مرات!

قلت، سأجعله يتمنّى أنني لم أوجَد على سطح هذه الأرض! ما الذي ينقصك يا نُهى؟! ألا يوجد في رأسك مخّ؟! استخدميه، سوِّدي حياته! وهكذا، غرقتُ بين رفوف الكتب، باحثةً في كل ما يخصُّ موضوع

تخصّصه من مراجع في مكتبة الجامعة، ولم تكن قليلة!

***

غرقي في الكتب نفَّسَ كثيرا من غضبي، إذ أصبحتُ أحسّ يومًا بعد يوم بأنني أفضل من اليوم السابق، وأنني أقوى، وأعطاني حسّي بأنني أصبحت أعرفُ أكثرَ القدرةَ على التغلّب على خجلي، بل وأن أتحوَّل إلى كتلة هائلة من سرعة البديهة، بالمحاجَّة، لأنني بتُّ مدركة أن باستطاعتي أن ألعب به، أن أُحرجَه، وأن أنال علامتي العالية، لا منه، بل من إعجاب زملائي وزميلاتي! وأن أتّهمه دون أن أتكلّم عنه، أن أجعله يخجل من العلامة المزرية التي سيقذفها في وجهي بعد شهرين!

كنت أقوم بهذا كلّه، دون أن أتخيَّل أن مصادفةً لم تخطر ببالي، ستغيِّر الوضع كلّه!

كذبة نيسان!

سارت أيام الخطوبة بشكل رائع، ولم تكن طويلة على أي حال، وشيئا فشيئا كنتُ أكتشف حجم احترام الزملاء المحامين لسلمان، عكسَ كثير من المحاميات، اللواتي لم يكنَّ يُعِرنه أيّ اهتمام!

لم يكن أقلَّ من رجل كريم، حين دعا أسرتي إلى مطعم فخم قرب الدوَّار الثالث في منطقة جبل عمان، وإن كانت أمي خرجت من هناك غير سعيدة، لأنها رأت بعض زبائن المطعم يشربون الخمور.

أبي قال لها حين عدنا، أفسدتِ الأمر عليكِ، دون أن تستطيعي إصلاح وضع أولئك الذين أزعجوكِ!

- سيدخلون النار! قالت له.

كانت أمي تصلّي وتصوم، لكنها لم تكن تغطي رأسها، فسألها أبي: أنتِ تصلِّين وتصومين وستحجّين قريبا إن شاء الله، أليس كذلك؟!

هزَّتْ رأسها مستغربة سؤاله، وأجابت: أجل.

- يعني، تعتبرين نفسك مؤمنة!

- ما هذا السؤال يا شاهين! طبعا أعتبر نفسي مؤمنة.

- وهل أنت على يقين من أنكِ ستدخلين الجنة بإيمانك؟!

- الله أعلم، وهو الرَّحيم بعباده.

- وما دمتِ تَعيْن أن الجنة ليست في انتظارك، وأنت المؤمنة، فكيف تكونين متأكدة من أن الجحيم في انتظار سواك؟!

- لأنني أعرف أن ما يفعلونه حرام!

- لا أعارضك في هذا، ولكن جهنّم والجنة ليستا مُلكَنا لنوزِّع الناس عليهما منذ اليوم! لأننا، أستغفر الله، نكون بذلك نُنصِّب أنفسنا مكانه، سبحانه!

***

طلبتُ من سلمان في المرة التالية أن يدعونا إلى أيِّ مطعم آخر، قلت له ضاحكة: لا أريد أن أتزوّج لينفصل والداي!

- اطمئني، فأنت تعرفين أنني لا أقرب الخمر، وأنني مثل أمّك في هذا! من اليوم فصاعدا، سأراعي ذلك. نيّتي كما تعرفين كانت سليمة، كنت أريد إكرامهما لا غير.

في المرات الثلاث التالية التي خرجتُ فيها أنا وإياه وحدنا، تركني أدفع الحساب. في كلِّ مرّة منها كان يردّد: لا أريد إغضاب الحركة النسائية في مسألة المساواة!

في المرّة الأخيرة، لم أكن مرتاحة لذلك!

***

بعد شهرين تماما، في الأول من نيسان تزوَّجنا. صديقتي المشاغبة فيروز، وهي طبيبة ناجحة، قالت لي حينما اتّصلتُ بها لأدعوها: كنتِ اخترتِ يوما غير هذا!

- ماذا تقصدين؟

ضحكتْ: بمْزَح معك!

حين أغلقتُ الهاتف، قلت لنفسي واثقة: زواج كهذا، مع رجل ناضج مستعد لأن يفرش الأرض تحت قدميَّ حريرًا، لا يمكن أن يكون كذبة نيسان، مع أنني لست ممن يعشقن الحرير لمجرد كونه حريرًا.

كل ما حدث فيما بعد، لا علاقة له بهذا اليوم، أعني الأول من نيسان،

إذ لا يمكن أن أنحدر بعقلي إلى هذا المستوى! لكنني عشتُ أكبر خدعة في حياتي؛ فالكذبة تكون أحيانا طريفة، وأحيانا سمجة؛ أحيانا بيضاء، وأحيانا سوداء، سوداء تماما؛ أما هذه، فكان لها لون وحيد هو سلمان نفسه!

***

عرض عليَّ أن نفتح مكتب محاماة مشترك، وفتح ذراعيه على وسعهما وقال: تخيّلي: مكتب المحامين ديانا شاهين وسلمان سعود. فما رأيك؟

تساءلت في نفسي: هل يحاول إرضاء الحركة النسائية أيضا بوضعه لاسمي قبل اسمه؟!

ابتسمتُ.

- موافقة إذا؟!

- أنت تعرف، لا يعقل أن أواصل العمل في مكتب محاماة آخر، حتى لو كان مكتب أستاذي، ما دام باستطاعتي أن أؤسس مع زوجي مكتبا مشتركا، وأظن أن أستاذي لا يمكن أن يعتب إذا ما تركتُ مكتبه من أجل سبب كهذا.

- اتفقنا إذن! ومدَّ يده وصافحني وسط قصر العدل، فرأيتُ عيون بعض الزملاء تحدّق في مشهدنا تملؤها الدّهشة.

لم يعد إلى الموضوع ثانية؛ فحمدتُ الله ألف مرة لأنني لم أُخبر أستاذي بمشروعي المستقبليّ. لكن بعد لقاء حميم، حار مع سلمان استمر ساعتين على الأقل، حوَّل السرير إلى جمرة -أعترف هنا أنه كان رجلا استثنائيا!- لقاء كان بمستطاعي أن أنجب بعده صباح اليوم التالي، لولا تلك الاحتياطات التي كان حريصا على اتخاذها قبل النوم معي؛ الاحتياطات التي يبررها بأن: الوقت لم يحن بعد لإنجاب الأولاد. دعينا نستمتع بحياتنا!

وكنت أصدِّقه، رغم معرفتي بأنه يستطيع أن ينتظر، لكن جسدي لا يستطيع أن يفعل ذلك إلى أمد طويل!

بعد ذلك اللقاء الحميم سألته: أظننا تحدثنا في موضوع مكتب مشترك، أليس كذلك؟!

- لم أنس الأمر، ولكنني راجعتُ وضعي المالي بشكل عام، ورأيتُ أنه لا يساعد على القيام بهذه الخطوة في هذه المرحلة، وخجلتُ أن أطلب منك المساهمة في إنشاء المكتب، لأن ذلك غير لائق!

- ولماذا يكون غير لائق ما دام سيكون مكتبنا المشترك ومسجَّلا باسمينا؟! هكذا لن تكون مضطرّا لإغضاب الحركة النسائية، فالمساواة مساواة!

- ما دمتِ ترين ذلك، فدعيني أخبرك بما أملكه، أي بما فوقي وبما تحتي! وحين انتهى، قلت له: باستطاعتي أن أدفع مبلغا مماثلا.

- إذا كان الأمر كذلك، فعلى بركة الله! استدار إليَّ متأمّلا وجهي، وأحسستُ بطاقتِهِ تعود إليه، فتجدد لقاؤنا الحميم الحذِرُ إلى ما بعد منتصف الليل بقليل!

في الصباح استيقظتُ عارية. تأملتُ عريه، واستغربتُ، قلت: يُحيي العظام وهي رميم فعلا!

***

كانت خطوات العمل الأولى في المكتب ناجحة بشكل يدعو إلى السعادة، فكثير من معارفه الذين يحترمون مواقفه الشجاعة، أعلموه باستعدادهم لمواصلة العمل معه، وكأن انتقاله للعمل معي كان يعني تراجعه خطوة إلى الوراء!

أما أستاذي، فقد كان نبيلا إلى درجة لا تصدّق حين أوصى بعض الذين أتوا لتوكيله في قضايا مختلفة، بأن يأتوا إلى مكتبي ويوكّلوني:

ستكون قضاياكم في أيد أمينة. وستفيدكم أكثر مما سأفيدكم!

اتصلت بأستاذي وشكرته، فقال لي: أنا لا أجاملك، ولستُ على استعداد لأن أجاملك حين يتعلّق الأمر بمصائر الناس، أنا أثق بك، وسأقولها لك الآن: لو بقيتِ في مكتبي، لكنتِ أنتِ لا غيرك من ستستلم الأمور فيه؛ لقد كبرتُ، ديانا، وآن لي أن أستريح!

- لماذا لم تخبرْني بهذا من قبل؟ قلتُ بتأثّر شديد، ما كان يمكنني أن أفارقك!

- ديانا، ما قمتِ به هو الصحيح. أتمنى لكما النجاح من كلِّ قلبي، وإذا استعصتْ عليك قضية ما، لا تتردّدي، زوريني، أو اتّصلي بي وسنناقشها معا. وَعْدٌ؟!

- وعَد أستاذي.

- وأنا في انتظار إنجازاتك الكبيرة، التي ستحققينها، أستاذة!

بعد سبعة أشهر من تلك المحادثة، اتّصلت بي سكرتيرته، وأخبرتني: الأستاذ أعطاكِ عمره هذا الصباح!

***

كذبتُ على الجميع، أو أخفيتُ الحقيقة عن الجميع، باستثناء أستاذي، أخبرته بكل شيء، حين زرته، بعد شهرين من افتتاح المكتب، لأستشيره في واحدة من القضايا العمالية الكبيرة التي وكِّلتُ بها. أخبرته أن الأمور على السطح غير تلك التي في القاع!

ولم أتردّد في الحديث عن بعض أسوأ الأمور خزيا، قلت له: إنه يقبض الأتعاب كلّها، وقد وصل الأمر إلى حدّ أنني إذا ما طلبت منه عشرة دنانير، يقول لي: وما الذي ستفعلينه بالدنانير العشرة؟!

- سأشتري كتابا!

- إذًا، هيا بنا لنشتريه معًا!

وهكذا أكره الكتاب الذي كنت أتمنى قراءته. أما إذا كانت الأمور أكبر، فتلك مسألة أخرى أخجل من الحديث فيها.

***

بعد عامين من زواجنا، شكوتُ لصديقتي فيروز. كنت على وشك الانفجار. قالت لي: هبلة أنتِ؟! هل تصدِّقين أنه لم يزل يدفع حتى اليوم الأمور المترتبة عليكما بسبب إنشاء المكتب؟! ألم تحاولي معرفة حجم رصيده في البنك؟! أنت تعرفين أن أباه غنيّ، ويملك الكثير من العقارات، وقد سمعت أنه هو من أنشأ له المكتب!

- ولكنني أنا من ساهمت في دفع نصف التكاليف، حين طلبها مني!

- كل ما في الأمر أنه استغلّك كما استغل أباه! أنا متأكدة من أنه طلب من أبيه أن يساعده أيضا، بحجة أنه يبدأ مشروعا جديدا وزواجا جديدا! لا تكوني هبلة! حاولي معرفة حساباته في البنك!

- وكيف يمكنني أن أعرف؟!

- محامية (قدّ الدُّنيا) عقلها يوزن بلدا، وتسأل سؤالا كهذا. يا حبيبتي دائما هنالك أوراق، ولكن المسألة أين تجدينها!

***

لم يكن عليّ أن أفعل الكثير لكي أصل إلى أوراق كانت تحت نظري، تقريبا، طوال الوقت، ولكنني لم ألحظْها، ويبدو أنه كان مطمئنا لدرجةِ أنه لم يكن مضطرّا لإخفائها جيدا!

في حساب واحد وجدت ذلك الرقم الرّهيب: 127،000.000

لم أصدق عيني، وقرأته 127 دينارا، لأن عقلي لم يستوعب رقما كبيرا كهذا. صوَّرتُ كشف الحساب، واتصلتُ بفيروز. قلت لها سأرسل إليك كشف حساب بالفاكس، احرصي على ألا يراه سواك، واتّصلي بي لتخبريني بالمبلغ الموجود فيه!

ضحكتْ: وهل هو كبير بحيث أنك سقطتِ في امتحان الحساب على هذا النحو؟!

طويتُ طرف كشف الحساب بحيث لا يظهر في الصورة اسم صاحبه أو رقمه وأرسلته إليها.

اتصلتْ بي بعد دقيقة، وقالت: حجم الرصيد 127 ألف دينار. هل فوجئتِ لأن هذا المبلغ حُوِّل إلى رصيدك خطأً؟!

***

على وشك أن أنفجر في وجهه كنت، ولكنني تذكّرتُ طيبة أمه، وعتابها الدائم لي: ألا تريدين أن تُفرحي قلبي بأحفاد يضيئون عيني اللتين تُعتمان يوما بعد يوم؟!

- أنا مثلك، أتمنى هذا، لكن سلمان لا يريد!

- لا يريد، أم لم يعد يستطيع؟! خبِّريني!

- لا يريد.

- خوفي أنه لم يعد يستطيع! قالت ذلك وهي تهزّ رأسها، كما لو أنها تستعيد شيئا ما!

- بل لا يريد!

- على أيٍّ حال، أنت ستكونين ابنتي إلى أن يجيء الخير بإذن الله! ابنتي، سامعة! أخذتكِ جاهزة، يعني لم أتعب في تربيتك! ولكن سيكون لي معه كلام!

- أرجوكِ عمّتي، أرجوك لا تفتحي هذا الموضوع معه!

***

بين جمر الليل وصقيع النهار، توالت أيامنا، إلى أن عاد إلى البيت رجلا لا أعرفه! وتلاه اليوم الذي أخبرتني فيه سكرتيرتنا المشتركة: الأستاذ سلمان لن يأتي، وقد طلب مني أن تتابعي قضاياه في المحكمة

اليوم.

بعد أسبوع، رأيته فيه مـرتين لا غـير، قـال لي بعـد لقـاء بـارد حـوَّل السرير تحتي إلى قطعة هائلة من الجليد: أظننا مضطرّين إلى فسخ شراكتنا في المكتب، لأنني سأعمل في قضايا بعيدة عنه، لا أسـتطيع شرحهـا الآن. أنـتِ دفعـتِ النـصف، وأنـا دفعـت النـصف. سـنُقدِّر الموجـودات، والتكاليف، ونُنهي الأمر بسلام.

كنت أرتعد، لا بسبب عرضـه الـذي هـبط عـلى صـدري كـصخرة عملاقة، بل بسبب الجليد الذي تأكدتُ أنه موجود تحتي فعلا.

قلت: لك ما تريد.

ظننتُ أن كلماتي الثلاث قد أنهت القضية إلى الأبد، لكنني لم أتخيل كم ألف شيطان يترصَّدني في التفاصيل!

باب الألم

عدتُ إلى شقّتي في المنطقة الواقعة خلف جريدة الدّستور، لم أستطع النوم، كان صوت العربات في شارع الجامعة، يعوي، كما لو أنه في الصالون، وأنا أدور كمروحة في السّقف.

لا أنكر أن سلمان بيك كان مفاجئا أكثر مما تخيّلتُ، وكان كريما معي! ولولا ذلك الضِّيق المتسرِّع الذي انتابني أثناء انتظاري في الصالون المجاور، لكان الأمر أكثر من باهر.

خلال السنتين الماضيتين، تعلَّمتُ ذلك الدّرس الأصعب: أنت وحيد، إذن لا وزن لك في هذا البلد، لا جامعة يمكن أن تفتح لك أبوابها، ولا حتى حضانة! ولم تكن مظاهرات حملة الدكتوراه، أمام مجلس النواب، المطالبين بتوفير أعمال لهم، سوى مشهد صغير من فيلم طويل للغاية.

كنت أدرك أن الآلاف حُشروا في هذه الزاوية الضيّقة مثلي، منذ سنوات وسنوات، وأن المعادلة كانت واضحة: من ليس معنا فهو ضدنا. ولعلّ بوش الابن استعار هذه المعادلة منا! ولكن لكون أمريكا دولة عظمى، وهو رئيسها، فقد ذاع صيتُ قولنا المأثور على لسانه، تماما مثل أغنية يغنِّيها مطرب ناشئ لسنوات وسنوات، ويلتقطها مطرب شهير فيحيلها إلى صرعة!

أعرف أنني غاضب، وأعرف أن عليَّ أن أهدأ قليلا، فغدا يوم جديد.

***

استعدتُ صورة تلك الفتاة الخبيثة نُهى، نُهى التي أوقعتْني في فخ صغير، كذبة صغيرة، حملتُها بنفسي وأوصلتها لذلك الذي سيقطعُ عنقي، كنت أشبه ما أكون بطرفة بن العبد، ذلك الشاعر الذي حمل كتاب إعدامه بيده!

هل كانت تستحق ذلك كله، وهناك المئات من أمثالها؟!

الآن، حدث ما حدث، وقد يكون جوابي مختلفا، بعد قرار إعادتي إلى الجامعة! كأن أقول: نعم تستحق! لم تكن هناك طالبة بربع جمالها، لم تكن هنالك طالبة أو امرأة عرفتها من قبل في باريس، أو هنا، بخُمس جمالها، حتى زوجتي التي انتهت إلى ذلك المصير، المرأة الأروع، لم تكن بجمالها!

الآن، هذا هو جوابي! أما قبل ذلك، قبل أن أعود، وطوال سنتين قاحلتين، فقد ارتبك هذا الجواب بعد أن تلقيت تلك الضربة القاضية، ووبخت نفسي ألف مرّة على الأقل: كيف تقبل أن يقودك ذاك الصغير المتحفِّز بين فخذيك إلى مصير كهذا؟! كيف يتوِّجُكَ بإكليل العار، أنت الذي كان يمكن أن تحقق الكثير بعد أن وجدتَ لنفسك موطئ قدم هنا؟! صحيح أن الجامعة كانت ناشئة، وأن الراتب الذي عرضوه عليك، كان بمثابة مع السلامة! أنت الذي عملت براتب محترم للغاية في جامعة الكويت ما إن تخرّجت. كنت أرسلتَ لهم أوراقك في البريد العاجل من باريس، وبعد ثلاثة أيام استيقظتَ على هاتفك يرن، وصوت يقول لك: هل باستطاعتك القدوم غدا للمقابلة، تأشيرة دخولك ستكون جاهزة!

وفي اليوم التالي غادرت باريس إلى الكويت.

هنا في عمّان، كان الأمر مختلفا، فخلفك كان مئات الأساتذة الجامعيين ينتظرون دوْرهم للحصول على أيّ وظيفة، بعد أن وجدوا أنفسهم مثلك، بعد تلك الحرب، خارج الكويت وجامعاتها.

قبلتَ بذلك الراتب، الذي عرفتَ فيها بعد أن كثيرا من معلمي المدارس الخاصة يتقاضون ما يفوقه بكثير.

لم تكن عمّان خيارك أبدا، فبعد إنجازك رسالة الماجستير، جئتها زائرا عام 1982 . كانت بيروت تحترق. طلبوا منك في المطار أن تُراجع الدائرة، وكان العرْض قاطعا: تعمل معنا، أم تبقى لتؤنسنا في البلد؟!

كنتَ تعرف أن آلاف الطلاب حُشروا في هذا الخيار الظالم: التعامل أو حجز جواز السفر والمنع من السفر لإكمال التعليم.

قالوا لك: لا نريد الكثير، ففرنسا دولة صديقة، لكن هناك طلابا يستغلون كونهم بعيدين عن متناول أيدينا، ينتمون إلى تنظيمات، بعضها يخطط لإلحاق الضرر بهذا البلد وبسمعته! كل ما نريده منك أن تُرسل إلينا معلومات عنهم، وحين تعود ستجد البساط الأحمر في انتظارك، يمكنك أن تختار أيّ من جامعاتنا الرّسمية لتعمل فيها! يمكن أن تعمل في سفارتنا في باريس بعد أن تنتهي من تقديم أطروحتك، وأظن أنك بدأت تحبّ باريس! باختصار، ما دمتَ معنا فباستطاعتك أن تختار ما تريد مع مؤهِّلك العلميّ، ولن أبالغ إذا قلت لك: باستطاعتكَ أن تجلس مكاني!

***

عدتُ إلى باريس، كان همّي أن يصل ارتفاع الطائرة شبرا واحدا حتى أنكثَ بوعدي لهم! ولذا رحتُ أراقب الطائرة وهي منطلقة فوق المدرج، منتظرا تلك اللحظة التي ترتفع فيها عجلاتها عن الأرض، ارتفعت عجلات مقدِّمتها، وما هي إلا لحظات حتى ارتفعت عجلات مؤخِّرتها، فهمستُ لنفسي بذلك القرار الذي لم أكن أجرؤ على الهمس به وقدماي على الأرض: هذه آخر مرة أعود فيها إلى عمان! أي بلاد هذه التي لن تحبك إلا إذا كنت مُخبرا؟!

***

اتصلتُ بزوجتي بعد يوم من وصولي إلى الكويت، وأخبرتها بأنني وقّعتُ عقدَ العمل، وأخبرتها أنني سأرسل إليها تأشيرة لتلحق بي في أقرب وقت ممكن.

في باريس، وطوال السنوات التي أمضيتها هناك، إلى أن التقيت ريما، تلك الفتاة التي ستصبح زوجتي، كانت باريس تحبّني، وكنت أعمل بجدّ، وأعيش الحياة طولا وعرضا.

***

في الكويت أنهيت السنة الأولى، وكنت على وشك استقبال طفلي الأول، حين سمعتُ بأن الحكومة الأردنية ألغت الأحكام العرفية، وأن أبواب البلد باتت مفتوحة. كلّ من يريد العودة، له أن يعود!

فكَّرتُ في أن أرسل ريما إلى عمّان، لتلدَ هناك، قلت: ستكون تحت رعاية أهلي، ثمّ أتبعها فيما بعد. حين فكَّرت بذلك، وجدتُ أن من غير اللائق أن أكون بعيدا عنها. أبقيتها إلى جانبي.

ذات يوم، اتّصلوا بي من أحد المستشفيات وأخبروني أن زوجتي في حالة وضْع.

ذهبتُ بسرعة. أخبرتني ريما أنها حاولت الاتصال بي في الجامعة دون جدوى. فأخبرتها أنني لا بدّ كنت في المحاضرة وليس في مكتبي.

أطلقتْ تلك الآه الطويلة وكأنها تفتح بابا لألمها ليغادر جسدها، وانفجر ماؤها.

بعد قليلٍ كانت في غرفة الولادة. وبعد ساعة من عذاب حقيقي، صمتتْ، أطلّتْ ممرضة باكستانية وهنأتني بعربية مكسَّرة: مبروك، سير، ولد!

بعد نصف ساعة سمحوا لي برؤيتها. بدتْ منهكة، امرأة غير تلك

التي أعرفها، وكان ابننا على ذراعها مضيئا على نحو لم أره من قبل في أي وليد! أو لعل ذلك يعود إلى أنه ابني، لا غير! بدا كما لو أنه امتصّ رحيق جمالها كلّه، دفعة واحدة!

تركتُها تنام ليلتها، على أن أعود صباح اليوم التالي لكي أخرجها من المستشفى.

في الساعة الثالثة فجرا، رنَّ جرس الهاتف في شقّتي بالشويخ. طلبوا مني أن آتي إلى المستشفى بسرعة! حين وصلتُ كانت الفوضى تملأ قسم الولادة. أمسك طبيب بيدي وسار بي عدة خطوات وقال: هناك خبر سيء يؤسفني أنني من يحمله إليك! للأسف، نزيف شديد أصاب زوجتك ولم نستطع إنقاذها!

قلت: كيف؟! تركتُها بصحة جيدة.

– للأسف، نامت، وقد كانت متعبة كما أخبروني. لم تكن هناك أي عوارض نزيف، هذا ما أكَّدته الممرضة التي تفقَّدتها قبل النوم. لكن يبدو أن ذلك قد حدث أثناء نومها، ولم يكن باستطاعة أحد أن يتوّقع ذلك، لأن وضعها أصلا كان طبيعيا.

– والولد؟!

– الولد بخير. سنغذيه بكل الطرق الممكنة. حتى الآن، يرفض كل شيء. تفضّل معي لكي ترى المرحومة!

– لن أراها! قلت ذلك بتصميم فاجأني. لن أراها!

– لا بأس! لنذهب الآن لرؤية ابنك.

سرتُ خلف الطبيب، وأنا أنظر ورائي، خائفا من أن تتبعني ريما، أن تنادي فجأة: كريم، أنا هنا، إلى أين أنت ذاهب؟! وسمعتُها، نعم سمعتها: كريم إلى أين أنت ذاهب؟! أنا هنا، والولد هنا!

استدرتُ، ولم تكن هناك.

وقف الطبيب أمام حاضنة، وكان صامتا، فسألته: أين الولد؟

- إنه أمامك.

- مستحيل أن يكون هذا الولد ولدي! قلت له غاضبا.

- إنه هو، لا مجال لأن نخطئ في هذا، بإمكانك أن تقرأ ما هو مكتوب على الإسورة التي تحيط برسغه.

كنت على استعداد أن أقسم أنه ليس هو، وأقسمتُ: أقسم أن هذا الولد هو غير الذي رأيته، هذا ليس ولدي!

- وحِّد الله، أعرف أن موت والدته أمرٌ صعب.

- ليس هذا هو السبب، أين ذلك الضوء الذي كان يشعّ منه؟ أين جماله؟!

وسمعت صوتها للمرّة الثانية: ما الذي تفعله هناك؟ كريم، أنا هنا، والولد معي!

بعد يوم واحد من انتهاء العزاء، تلقيتُ اتصالا في الثالثة صباحا، وكنت أعرف ما ينتظرني في المستشفى.

الغريب، أنني لم أذهب، بل توجَّهت إلى الجامعة كما كنت أفعل كل يوم، إلى أن جاء من يخبرني أن رئيس الجامعة يريدني.

حين دخلتُ، وجدتُ ذلك الطبيب يجلس مطأطئا في غرفة الرئيس.

المبــــارزة!

لم يمرّ وقت طويل قبل أن أفهم الدكتور كريم، أو لأقل: إنني بـدأت بقراءة السطور الغائبة في كل كلام يقوله حول (فردية المجتمع واجتماعية الفرد)، وأهمّ من هذا فهمتُ ثقته التي لم تكن في الحقيقـة أكثـر مـن رأي اتخذه واطمئن إليه، ووثق به، وبات كل كلام مختلف مجرد محـاولات غـير مجدية لدحض هذا النمط من (الإيمان)!

- أتعني دكتور أن الفرد هو في النهاية فائض مجتمع؟!

- تحليل رائع نُهى! ولكنني لا أستطيع أن أُلزمكِ به!

- أقصد أن النتيجة التي سنصل إليهـا في النهايـة، إذا مـا اتّفقنـا عـلى فكرة أنه فائض مجتمع، هي أن عليـه أن يكـون نفـسه، نفـسه فقـط، وألا يَستَمْوِت وهو يعمل لكي يغدو جزءا من كتلةٍ ســتتخلّى عنـه بـسهولة في النهاية ما إن تبدو عليه أي علامة ضعف! تماما، مثل قطيـع مـن الثـيران، حين يصاب أحدها، تدافع عنه وهي ترى الأسود تتطلّع لافتراسه، وحين تفقد الأمل في قدرته على السير معها دون أن يعيق تقدُّمها، تتركه فريـسة ضعيفة وتبتعد!

- أيـضا تحليـل رائـع، أحــبّ فعـلا حريتـك في الانطـلاق بعيـدا في الأطروحة! هذا أشبه ما يكون بتحليل نـص أدبي، فكـلّ ناقـد، بـل كـلّ قارئ، يمكن أن يخرج بفهم خاص للعمل، ولا مانع بالطبع من أن يكون هنالك خيط رفيع يصل بين قراءة وأخرى، أو بين القراءات المختلفة!

- لكن ذلك خطير جدا دكتور!

- أشرحي لي! قال ذلك، وبدا مُستفزًّا لأول مرّة!

- لأن الفرد، إذا قرر الانتقام من المجتمع لهذا السبب، أي إذا فكّ ارتباطه بالمجتمع، أعني كلّ فرد، فإن المجتمع نفسه لن يعود موجودا، وإذا ما حدث هذا فأن كلّ ما بنتْه البشرية سينهار، لأن القوانين كلّها ستنهار، وكل ما اتّفقَ عليه البشر سينهار، هذا أولا!

- وما هو الأمر الثاني؟!

- سيُخلِص الفرد لشيء واحد بالذات، لنقل مصلحته، نزواته، بوهيميته، غرائزه، ليشكل قانونه الخاص، وهذا مستحيل! لأن هناك قيما كبرى أصبحت البشرية متّفقة عليها، هذه البشرية التي لم توجِدها، أو تُقرّها، إلا لتحمي بها هذا الفرد!

- مثل ماذا، أفهميني؟!

- مثل العدالة، كرامة الإنسان، حقّه في الحياة، في العمل، في الاختيار، فالأصل أن يكون له الحق في كل هذه الحقوق، وإنْ حرمتْه جماعةٌ ما من هذا الحق في هذا المكان أو ذاك!

- هل انتهيتِ؟!

- جملة واحدة أخيرة إذا سمحتَ: صحيح أن المجتمع يمكن أن يتناسى الفرد وينساه ويقفز عنه كرقم، لأنه، أعني المجتمع كتلة حيوات حين تجد نفسها أمام موت فرد، ستقفز عنه، ولكنني أظن أنها لا تقفز عن الفرد، بقدر ما تقفز عن الموت نفسه! لأنها، والكلام عن هذه الكتلة، لا تقفز بالضرورة عن إنجازات هذا الفرد وتقلل من احترامها له، فالشاعر العظيم الذي يموت نواصل قراءة أشعاره، وكذلك الموسيقيّ والممثِل والعالم، وحتى الإنسان البسيط الذي يربّينا جيدا، أو يعلِّمنا جيدا! سيمتدّ فينا بأخلاقياته، وبالتالي فالمجتمع لا يحميه فقط، بل يحمي ذكراه،

إنجازاته!

- لقد طلبتِ جملة وقلتِ الكثير!

- هذا، لحسن الحظّ، لأنني موجودة، وأنت وزملائي، كجماعة، على استعداد لأن تسمعوني!

ابتسم بلؤم.

- جملة أخيرة! والفضل لك أولا وأخيرا دكتور، فلولاك لما اشتغل هذا الرأس ورؤوس زملائي وزميلاتي أيضا! جملتي الأخيرة: إن كل القيم التي اتّفق المجتمع عليها، إذا ما طُبّقتْ جيدا فإن أول من سيستفيد منها هو الفرد، وهي لصالحه، بمعنى، حين يكون الفرد للمجتمع يكون المجتمع للفرد أيضا!

- إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يزل الفرد يُقتَل ويُظلَم ويُضطَّهد؟! أليس المجتمع الذي وضع القيم هو من يفعل ذلك؟!

- أريد أن أفكِّر قبل أن أجيب دكتور! وربما عليَّ أن أطلب الأمان، قبل أن أواصل كلامي!

- نحن في قاعة عِلم، وقد وجِدْنا جميعا هنا، لكي نفكر، ونتناقش، فليست مهمتي أن ألقنكم صفحات تحفظونها غيبا!

- أشكرك دكتور، وهذا ما أعرفه عنك بالذات! أريد أن أقول ليس المجتمع هنا من يَقتل ويَضطهد، ويَظلم ويُبعد ويُدني ويَرفع ويخفِض، بل هو الفرد أيضا!

- فهِّمِيني؟!

كنتُ أحسست أن كبرياءه لن يسمح له بأن يُسكتني.

- حين أقول الفرد، فإنني أعني مجموعة أفراد تجمعهم مصلحة واحدة، لا يمكن أن نسميهم في النهاية مجتمعا. مثلا: مجموعة تتحكم بصناعة السلاح، هي صاحبة المصلحة الأولى في جرِّ البشر إلى الحرب؛

مجموعة أفراد عنـصرية أو إقليميـة أو متزمِّتـة دينيـا أو سياسـيا، سـتفعل الكثير من أجل حشر أكبر عدد من الأفراد فيها لكي يكون المجتمـع كلـه عنصريا، إقليميّا، متزمّتا، وتابعا، وهكذا. لأنني أرى أن أسوأ مـا يمكـن أن يحدث هو أن نتعامل مع المجتمع ككتلة صماء، كما لو أنهـا خاليـة مـن الأفراد، في الوقت الذي ندعو فيه هـذا الفـرد الـذي هـو جـزء منهـا إلى التمرّد!

***

استدعاني بعد المحاضرة إلى مكتبه، كنت قد بدأتُ أشعر أنني لم أعـد قابلة للكسر، بعد مداخلتي تلك؛ ولعل ما شجعني أكثـر، عـدد الأيـدي التي راحت تُربِّتُ على كتفي مهنِّئة. وتلك الزميلة التي مالـت نحـو أذني وقالت: لو كنت رئيسة للجامعة لوضعتكِ مكانه!

طرقتُ بابه المغلق، فسمعته يدعوني للدخول، دخلتُ وأبقيتُ البـاب مشرعا خلفي؛ تعمّدتُ أن أفعل ذلك ببطء!

- تفضلي؟

- شكرا!

- ما الذي تريدين أن تصِلي إليه؟!

- كنت أريد أن أقول إنك تفعل كل ما لديك، وتُسَخِّر كلّ أفكـارك لشيء واحد، هو أن نتمرّد ونقدِّس فرديَّتنا وكل مـا يمكـن أن يجلـب لهـا السعادة، بل اللذة بالتحديد!

- وما الخطأ في هذا؟! ما الخطأ في أن تتمرّدي وتتمتّعي؟!

- لا خطأ في هذا أبدًا. الخطأ الوحيد هو أن تُشجِّعنا على التمـرّد كـي نستمتع بوجودنا في مكان واحد لا غير.

- وما هو؟

- حضنك! حضنك يا دكتور!

- وقحة!

- ولكنني ذكية بما يكفي لأن أفهمك. بخاطرك!

حين وصلتُ الباب، استدرتُ وقلتُ له: حاول ما استطعتَ أن يظلَّ بابك هذا مفتوحا!

بالصّورة والصّوت.. والسَّوط!

7 آب، أغسطس / 2005

هل فعلا ذاكرتي ضعيفة؟ أم أنني أدركت أخيرا أنني بلا ذكريات حقيقية تُروى؟! ما الذي يحدث لك يا سلمان؟!

داهمني هذا الشعور حين جمعتني سهرة بعدد من رجالات البلد الذين انطلقوا في استعادة ذكرياتهم، كما لو أنهم رفاق طفولة.

بحثتُ في رأسي عما أرويه، وجدته صفحة بيضاء، بيضاء فعلا، بيضاء لأنني أقنعتُ نفسي أن ذكريات طفولتي، وذكرياتي في الجامعة، ليست ذكريات، لفرط مرارتها!

25/ حزيران/ 2004

شيء ما أقلقني هذا اليوم، حين خرجت من قاعة (السؤال والجواب)! كنت فرحا بالنتائج التي حصلتُ عليها، لكنني حين حاولت تذكُّر ما قاله لي المعتقل الأول وما قاله لي الثاني، اختلطت الأمور تماما.

حمدت الله أن كل شيء يوثق بالصورة والصوت، وضحكت رغما عني حين أضفت، وبالسوط!

26/ 7/ 2005

وصلت إلى قاعة (السؤال والجواب) أقلّ ثقة، وصلتها متعبا، لأنني لم

أنم جيدا الليلة الماضية. أشياء كثيرة أرقتني. حاولتُ تذكُّر بعض الأحداث الماضية التي يمكن أن ترتفع بها معنوياتي، لم أستطع. حاولت تذكر اسمَي ولديّ، نسيت اسم الولد، ثم استعدته.

بدأتْ الجولة الأولى، وتبين لي أنني لم أزل قادرا على طرح الأسئلة ونصب الكمائن المتقنة لإيقاع الطرف المقابل في تناقضات كبيرة، تدفعه في النهاية لأن يستسلم.

في نهاية اليوم، استُدعيتُ إلى مكتب مدير الدائرة. خفتُ. قلت لعلهم اكتشفوا الأمر. قلت: أي نهاية هذه التي وصلتُ إليها؟ كل شيء ضاع!

المفاجأة أنه شكرني، وأثنى على عملي، وناولني مظروفا صغيرا وهو يقول: هذه مكافأتك التي أُرسلتْ إليك من الخارج!

- من واشنطن؟!

التفتَ إلى معاتبا، وأعاد: من الخارج! فالمهمّة التي قمنا بها غير موجودة، وليس لها أطراف، أوكي!

- بالطبع، ولكنها زلة لسان.

- هنا يمكن أن نفوِّتها ولكن أنتبه، فها أنت تعود لقواعدك سالما!

هززتُ رأسي مؤكِّدا، فتابع: ولكن لم تسألني عن مكافأتنا لك!

- وهل يجوز أن أسأل؟!

- بالطبع لا، فلو سألت لكان تصرّفك غير جيد، لأنني كنت وعدتك. ووعد الحرِّ دَيْن. أليس كذلك؟

- شكرا لك.

- أنصحك برحلة طويلة مع المدام.

حملتُ اقتراح مدير الدائرة إلى ديانا، باعتباره اقتراحي! وكم فوجئتُ بحجم سعادتها. أنا الذي كنت على يقين من أنها تحوَّلتْ إلى قطعة من جليد!

10/ 9/ 2005

عدنا أمس إلى عمان بعد زيارة للنمسا وفرنسا وألمانيا والسويد.

زارنا والد ديانا ووالدتها. شيء ما يتغير في علاقتهما بي يوما بعد يـوم. لكن ذلك لا يهمّني، يهمّني أن تكون ديانا هنا ولا شيء آخر.

كل يوم أكتشف أنني أحبها أكثر من سـابقه، سـأظلُّ أسـعد النـاس لأنها قبِلتْني زوجا دون رجال المعمورة!

القـائمة!

لم يكن سلمان سعيدا حين أخبرني ذات مساء بأن عمله انتهى. قلـتُ: لعلـه الآن، بعـد أن أنهـاه، يعـرف أيّ عمـل ذاك الـذي كـان يقـوم بـه، فيخبرني!

كنت حاولت أكثر من مـرّة أن أجـرّه للحـديث في موضـوع عملـه، فكان يصبح أكثر غموضا: إجابات غير مقنعة، عن استشارات لشركات متعدّدة، حينا؛ وحينا لشركة أجنبية تفكّر بإقامة مشاريع هنا. أسـأله عـن المدّة التي يتوقّع أن يتواصل عمله فيها مستشارا، فيقول: لا أعـرف، هـذا هو الشيء الوحيد الذي لا أعرفه! فأنتِ تعلمين كـم هـي طويلـة حبـال البيروقراطية في هذا البلد!

أصمتُ، كما صمتُّ، بل كما تأملته ساخرة في ذلك اليوم الذي أقلَّنـي فيه إلى المكتب في الثامنة مساء لكي نحلّ شراكتنـا. يومهـا، شرب قهوتـه كضيف، متعمّدا ألا يجلس في مكتبه، وهذا ما حـيّرني. تنـاول ورقـة مـن فوق مكتبي، والتفتَ إليَّ وقال: إلى العمل! هل نبدأ مـن غرفتـك أم مـن غرفتي؟

- من أيّ مكان تريد!

- من غرفة السكرتيرة إذًا.

سجَّل الموجودات كلّها، من كمبيوتر وطابعة وفاكس وجهاز تلفـون وخمس خزائن ملفات وسبعة كـراسٍ، مكيِّـف هـواء، مروحـة، وثـلاث

لوحـات، هـي في الحقيقـة نـسخ ورقيـة مطبوعـة عـن لوحـات أصـلية اشتريناها من إحدى المكتبات، و.. ، وعندما خرجنا من الغرفة، فاجـأني حين عاد ثانية وهو يقول نسينا شيئا، ولم يكن الذي نسيناه غير: الستائر!

تكرّر الأمر نفسه حين دخلنا مكتبَه، وحـين عـدنا إلى مكتبـي. كنـت على وشك الانفجار، ولكنني استطعت لجْمَ غضبي، فقـد كـان يتـصرّف كشريك لن أراه بعد اليوم! كأننا لن نعود معا إلى البيت نفسه، ولـن ننـام معا في السرير نفسه!

همستُ لنفسي: دعيه يفعل ما يريد، وحـين ينتهـي، أطلبـي الطـلاق، ديانا!

أجرى حساباته التي لم أتدخَّل فيها أبدًا. قـدَّر أسـعارَ الموجـودات في السوق، في تلك الفترة، وحذف نسبة الاستهلاك، ليبدو عادلا! باسـتثناء الكتب، قال، فالمعلومات التي فيها لا تُستهلك! كانت جملتـي الوحيـدة: بل تُستهلك، فهناك قوانين جديدة تُلغي قوانينَ قديمة!

- معك حـق! قـال، وقـدّر نـسبة الاسـتهلاك! ثـم امتـدّت يـده إليَّ بالقائمة، وقبل أن ألمسها، استردَّها: يلعن الشيطان، نسينا المطبخ!

- في انتظارك هنا!

اختفى في المطبخ، وقد كنت أسمع جوارير وخـزائن تُفـتح وتُغلـق، وارتطام كؤوس وملاعق، ثم أطلّ من جديد وامتـدّت يـده بالورقـة إليَّ، تناولتها، وبمجرّد أن وقع نظري عليها، على جردة المطبخ بالذات، بدأت أبكي بصمت.

- هل هنالك خطأ ما؟! هل أزعلتك في شيء؟!

هـزتُ رأسي نافيـة. أفزعنـي أنـه لم يـنس المكنـسة والكاشـطة والممسحتين الباليتين، الملاعق الستّ الصغيرة وطقم الفنـاجين، كـؤوس الماء، أبريق القهوة...!

- لا أنتِ زعلانة!

- أبدًا، ولكن يعزُّ عليَّ أن أواصل العمل هنا وحدي!

- لا عليك، سأظلّ هنا! وهل تعتقدين أنني سأطير؟! وحتى تتأكّدي من هذا، لا أريدك أن تُغيّري اليافطة الخارجية التي تضمُّ اسمينا! سيبقى اسمي بجانب اسمك دائما، هنا وفي البيت وفي كلّ مكان!

في الطريق، سألني: هل تحبين أن تدفعي لي نقدا، أم تحبين تقسيط المبلغ؟! على راحتك!

- أنت تعرف أن لا سيولة لديَّ، ولكن إذا كنت محتاجا للمبلغ، سأستدين من أهلي وأدفع لك.

- اقتراح جيد! ردَّ. وأكّد: اقتراح جيد!

وصلنا إلى البيت أخيرا، قال: لنحتفل بمناسبة اتّفاقنا. وكنت أعرف تماما، أين سيكون الاحتفال!

***

كنت مُتعبة في اليوم التالي، اتّصلتُ بالسكرتيرة وطلبتُ منها أن تلغي المواعيد. فكَّرتُ بالذهاب إلى أهلي، ولكنني أحسستُ أنني لن أستطيع تعذيبهم بتفاصيل تكسر قلبَ جبل!

فكّرت بفيروز صديقتي الحكيمة، كما كنت أدعوها. كنت أعرف أنها في عملها.

ذهبتُ إلى أمّه.

بمجرد أن عانقتها، رحتُ أبكي، وضعتْ رأسي على فخذها الأيسر، راحت تمسِّد شَعْري، وتهدهدني كطفلة. وتردّد: الله يجازيه، أنا لا أعرف لماذا لا يريد أولادا! ولا يريد أن يقول لي! المهم أنكِ بصحة جيدة، وأهلكِ، وحماتكِ! أم أن صحة حماتك لا تهمّك؟!

شددتُ على أصابعها مؤكدة أنها تهمّني. وتهمّني جدا.

***

ناولته المبلغ الذي حدّده، تأمَّله، كما لو أنه يزنه، أو يعدّه، ثم وضعه في جيبه سترته الدّاخلي. وفتح حقيبته السوداء وأخرج ورقة وقّعها، وناولني إياها: الشُّغل شُغل، قال، وهذا تنازل مني عن حصتي! ألف مبروك!

قبَّلني وخرج!

***

الشيء الوحيد الذي ظل يؤرِّقني: لماذا أواصل الحياة معه؟ هذه الحياة التي أخجل من عرض تفاصيلها على أحد، بل حتى على نفسي!

***

كانت رحلتنا إلى النمسا وفرنسا وألمانيا والسويد، أسعد أيام حياتي معه، فهناك اكتشفت ما كان عليَّ أن أكتشفه منذ زمن طويل!

حراس بلا عيون!

وصلتُ إلى الجامعة في التاسعة صباحا، أوقفني حارس البوابة، تأمّلني جيدا كما لو أنه يحاول البحث عن وجهي في ذاكرته، ثم قال: دكتور كريم. أهلا وسهلا. نوَّرت الجامعة!

قلت: لقد علِم هذا الخسيس بقدومي قبل أن أصل بالتأكيد. كان واحدا من رجال الأمن الذين أحيلوا على التقاعد فعيّنهم سلمان بيك حرّاسا. تذكَّرتُ المرة الأخيرة التي مررتُ فيها من هنا خارجا، وخلفي الشتائم تتطاير!

يومها، حاول أن يتظاهر بأنه لم يرَ سيارتي، مما اضطرني إلى أن أطلقَ بوقها عاليا؛ عند ذلك هبَّ، وقال لي: وهل يجوز أن تطلق بوق سيارتك في حرم الجامعة دكتور؟! فأجبته: ومنذ متى يعيِّنون حرَّاسا بلا عيون؟!

استدار وضغط المفتاح الكهربائي للبوابة، وسمعته يتمتم بكلمات، كانت قبيحة بالتأكيد، لم أتبيّنها.

***

أوقفتُ السيارة في كراج مبنى الكلية، وترجَّلتُ، تأملتُ وجوه الطلبة، كانوا كلّهم جددًا بالنسبة لي، فطلبةُ السنة الثالثة والرابعة الذين كنت أدرِّسهم لم يعودوا هنا، كلّهم تخرجوا، وهذا ما أراحني كثيرا. أما ما يتعلق بالأساتذة والإداريينَ فلم يكن قد تغيَّر منهم أحد تقريبا، هذا ما عرفته بمجرد أن جلستُ في مكتب سُهاد، سكرتيرة عميد الكلية.

بشوشة، وسعيدة بدتْ بي.

كانت في أوائل الأربعينات من عمرها، أنيقة دائما ومبتسمة. لم تكن خارقة الجمال، أعلى من المتوسط، مرحة، لكنها ظلت تقول بمناسبة وبغير مناسبة: حين بلغتُ الخامسة والعشرين أدركتُ أنيَ عنّستُ! إلى أن صدَّقتْ هي ذلك، بحيث لم تعد تفكر في الزواج أبدا، أو تتوقّعه، أو تخطو خطوة باتجاهه.

ذات يوم، وكانت قد بلغت الخامسة والثلاثين، مازحتْني: أشوف لك عروس؟!

ومازحتها: يا ريت!

وضحكنا. ولكنني فوجئت بها بعد يومين تتّصل بي ليلا: كيفك دكتور؟

- أهلا سهاد!

- ما زلت تريد عروسا كما أخبرتني؟!

توقعتُ أن تقول لي: وما رأيكَ بي؟ بين هزلها وجدِّها، كما تفعل دائما.

لا أنفي أنني فكرتُ فيها، وقد أوغلتُ في برّ عقدي الخامس!

أعادت سؤالها: دكتور أريد إجابة نهائية، هل تريد عروسا؟!

- بالتأكيد.

- ستتصلُ بكَ إذن بعد دقيقتين! وأقفلتِ الهاتف!

قلتُ لعلّها تمازحني، مع أنني على يقين من أنها في أمور كهذه لا يمكن أن تمزح!

بعد دقيقتين تماما، سمعتُ رنّة الموبايل. رقم غريب: ألو.

- ألو!

- دكتور كريم؟

- دكتور كريم.

- أنا صباح، حدَّثتْني سُهاد عنك، وأحبُّ أن أراكَ إن لم يكن لديك مانع!

- أبدا!

- ما رأيك أن نلتقي غدا في مكّة مول؟ هنالك مقهى في الدّور الأول. الذي يصل أولا ينتظر الآخر!

سألتها عن أوصافها، طولها، لون شعرها، ماذا سترتدي، فبدتْ لي جميلةً. وحين وصلتْ، فوجئتُ بأنها أجمل مما توقعتُ. بعد أن شربنا قهوتنا على عجل، طلبتُ منها، إن لم يكن لديها مانع، أن نمضي إلى شقَّتي، لأنني لا أحبّ أن أصادف واحدة من طالباتي أو واحدا من طلابي هنا!

سألتُها في الطريق عن سُهاد فقالت: إنها أختي! أعني مثل أختي.

حين وصلنا الشّقة، أبدت إعجابها الشديد بها، وبذوقي، وبعد أقل من خمس دقائق كانت تتصرّف بأريحية وكأن عشر سنين مرَّت على زواجنا! وكريما جسدها المذهل كان إلى حدٍّ أحسستُ معه بأنني أعرفها فعلا منذ عشر سنين.

انتهينا،

جلستْ في السرير ساهمةً، مهمومةً، وقالت لي: كنتُ أتمنى أن أواصل العلاقة معك. ولكن! أظن أن ذلك مستحيل!

- وما المستحيل في الأمر؟!

- سهاد. لا أستطيع أن أجرحها.

- إنها من رتبتْ لقاءنا هذا!

- أتعرف لماذا؟

- لا، لا أعرف!

- لأنها تحبّك!

سقطتْ كلماتها مثل حجر على رأسي، وأحسستُ بطعنة ما في صدري: لا يمكن، فأنا أعرفها منذ سنوات، ولم يحدث أن أشعرتني بهذا!

- أنتَ لا تعرفها إذًا!

نهضتْ وارتدتْ ملابسها، ثم طبعتْ قبلةً طويلةً دافئة على خدي الأيسر، لعلها القبلة الأكثر دفئا التي حظيتُ بها في حياتي. سارتْ عدّة خطوات، وصلتِ الباب، استدارت: أرجوك، أخبرها أنني لم آتِ لموعدنا، والبقيّة عليّ!

***

سهاد هي الوحيدة التي كانت تتفقّد أحوالي بين حين وآخر، بل إنها عرضتْ عليَّ، بعد حكاية صباح، أكثر من مرّة أن تأتي لترتِّب شقتي: شقة الأعزب كارثة دائما!

طمأنتها، هناك عجوز تأتي وتنظّف البيت مرّة في الأسبوع.

كنتُ قد أصبحتُ أكثر حذرا، كي لا أجرحها أو أعطيها إشاراتٍ يمكن أن تفهمها بدايةً لعلاقة أكبر.

***

- لم يتغيّر أي شيء في مكتبكِ، سهاد! قلت لها وأنا أتلفّتُ حولي.

- سهاد هي التي تغيّرتْ، ألم تلاحظ؟!

- على العكس، تبدين أكثر جمالا من قبل!

كان خيط من الحزن قد استطاع الالتفافَ على قلبها.

- ما زلتَ تفضِّل أن تشرب الزَّعتر. أم أطلب لك شيئا غيره؟!

- طبعا زعتر، وهل هنالك ما هو أفضل منه؟!

- سأشرب معك الزَّعتر إذا، كما كنت أشربه معك حين تزورني، أتذكر؟!

قبل أن يأتي عامل المقهى بالزعتر، وصل العميد؛ رحَّب بي بطريقة

بدت أكثر حرارة من مصافحته لي في بيت سلمان بيك. قلت: لقد أمضى الليل يفكِّر، وقرّرَ أن يسير مع الريح، فالجامعة جامعة سلمان بيك، يرفعني متى أراد ويلقي بي خارجها متى أراد! والعميد، مثلي في النهاية واحد من موظفيها.

بعد حديث لا معنى له، قال لي:

- لن نكلِّفك بشيء في الفترة القادمة، لأننا وزّعنا المواد على الأساتذة، ولذلك، ، يمكن أن تستريح في مكتبك، تقرأ وتكتب إلى بداية الفصل القادم، وبعدها، تعود إلى الشقاء من جديد! وحاول أن يبتسم، فقلتُ في نفسي: لن يستطيع رسم بسمة كاملة على وجهه.

ولم يستطع!

حبْل قديم وعُقدة مشدودة!

اتصلتُ بأهلي في الرِّياض وأخبرتهم بأن ظنّي كان في محله وأنني حملتُ مادّة!

- حملتِ مادة؟! وهل ظهرتِ النتائج؟ سألني أبي.
- لا، لم تظهر!
- وكيف عرفتِ بأنك حملت تلك المادّة إذًا؟!
- لأنني أعرف بأنني ضعيفة فيها بمرتبة الشّرف!
- على أيّ حال، لا مشكلة في ذلك، فكما أخبرتكِ، سنأتي جميعنا إلى عمان هذا الصيف، لديّ إجازات متراكمة، في الماضي كانوا يصرفونها بدلا نقديًّا لنا، ولكن، مع الأوضاع الاقتصادية الجديدة، فنحن بين خيارين: أن نخسر إجازاتنا أو نستفيد منها.

***

طمأنني ردّ فعل أبي، ولكن روحي كانت معقودة مثل حبل قديم، إذا حاول أحد حلّه تفتّت!

كسرتُ قاعدة زيارات بيت عمّي محمود، وذهبت إليهم مساء الثلاثاء، بدل الجمعة. كانوا كلهم هناك. استقبلني عمّي، وقد توقع كارثة: خير، إن شاء الله! في شي؟!

- كلّه تمام يا عمّ! ولكنني أحسستُ أنني جائعة، جائعة جدا، فقررتُ القدوم.

قبل أن يلتفتَ إلى امرأته رأيتها تركض نحو المطبخ. طلبتُ منها أن تعود، بصوت عال: لستُ جائعة!

- حيرتيني يا عمّي، لتْكوني شبعتِ، أو انسدَّت نفسك لما شُفتينا؟!

- جوعانة للضحك يا عمّي، بدّي أضحك!

- بس!

- أرجوك، لا أريد أن تُتعبَ زوجةُ عمي نفسها!

- كان يجب أن تقولي هذا قبل أن تصل امرأة عمّك إلى المطبخ! أما الآن فقد صارت الطبخة على النار!

نظرتُ إلى أبناء عمي، فوجدتهم جميعا يبتسمون لي!

قال عمّي: تريدين نكتة صناعة محلية، يعني نكتة بيتي، أم نكتة مستوردة؟

- ولو يا عمّ، حين تحضر نكاتك تكون النكات الأخرى سببا للبكاء!

- أكرمتيني كثير بهيك كلام! لكنني سعيد بمبالغتك! شوفي: محشش أرسل حمامة زاجل بدون رسالة! ليش؟!

مسوِّي Missed Call!

ضحكتُ، التفتُّ إلى غابة الشوارب، كانوا متجهِّمين!

- إنسيهم! وخليكِ معاي!

- محشش سألوه: شو رأيك في الزواج المُبكِّر؟! رد: يعني أي ساعة؟!

طوال ساعة ونصف الساعة، لم يتوقّف عمّي، كان أشبه ما يكون بنهر من النكات، البيتيّة والمستوردة! التي لم يضحك لها أي من أولاده المشغولين بتأمّلي، لكن ذلك لم يعد يضايقني، أنا التي اعتدتُ مشهدَهم.

شقَّت زوجة عمّي طريقها من المطبخ وسط غابة الشوارب، وهي تحمل صينية مقلوبة يتصاعد منها البخار.

جعتُ فجأة!

وقبل أن أمدّ يدي إلى الطعام، سألتني زوجة عمّي: هل اخترتِ واحدا من أبناء عمِّك، أم ما زلتِ تفكرين في الأمر؟!

- بصراحة، سأترك أبي يختار لي واحدا من بينهم! فكلهم كما ترين حلوين وبيجننوا! نسيتُ أن أخبركم أن أبي والعائلة سيمضون الصيف كله في عمان.

- صحيح؟ صاح عمّي. في الوقت الذي راحت فيه زوجته تعد على أصابعها الأشهر المتبقِّية!

***

أمام باب عمادة كلية العلوم الإنسانية، كانت النتائج معروضة خلف الزّجاج. لم أكن على عجلة من أمري، فنتيجة مثل تلك التي تنتظرني من غير المعقول أن أمضي إليها راكضة!

رأيتُ طلابا وطالبات يحدّقون في نتائجهم وينسلُّون بعيدا، ربَّتَ أكثرُ من زميل وزميلة على كتفي مُعزِّينَ، وابتعدوا.

المفاجأة التي كانت هناك: ملاحظة، وليست علامة: مراجعة الدكتور كريم في مكتبه!

***

- هل تريدين أن تعرفي علامتك؟!

- بالتأكيد دكتور مع أنني أعرفها.

- وكم في ظنك تستحقين؟

- 30 ربما، أو ربما 35!

- 40، علامتكِ أربعون، لديك فرصة لأن تحسِّنيها الآن! أو في الصيف! بالمناسبة، سأكون الوحيد في الفصل الصيفي الذي يُدرِّس هذه المادّة.

- لا بأس، سأعيدها.

رنّ جرس الهاتف الأرضي في مكتبه، رفع السماعة: أحمد، أهلا وسهلا، كيف حال سلمان بيك؟ لا، طمئنْه ابنته رُدَيْنة ناجحة وبتفوق ما شاء الله!

في تلك اللحظة استخدمتُ السرعة القصوى لبديهتي، وسألته: كنت تتحدَّث مع أحمد سائق خالي سلمان؟!

- هل سلمان بيك خالك؟!

- ألا تعرف أنه خالي! كنت أعتقد أنك تعرف، لا تعرف أن رُدينة إبنة خالي؟!

تغيّرتْ ملامحه فجأة.

وخرجتُ مسرعة، أبحث بجنون عن الموبايل داخل حقيبتي، وحين عثرتُ عليه بصعوبة لم أواجه مثلها من قبل، اتّصلتُ بردينة وشرحتُ لها ما حدث. فطلبتْ مني أن آتي إلى بيتهم بسرعة، لأن أباها سيأتي، بمناسبة نجاحها، بعد ساعة. قالت لي: سأتركك تشرحين له الأمر!

بعد أقل من ساعة كنت في بيتها. كان أبوها قد سبقني. لكن ردينة مهّدت الطريق ما استطاعت.

ما إن دخلتُ، حتى صرخ في وجهي: كيف تدَّعين بأنني خالك؟ لقد اتّصل الدكتور كريم ليهنئني بنجاح ابنتي ونجاح ابنة أختي، فشكرته! ولم أتذكَّر أن ليس لي ابنة أخت في الجامعة إلّا بعد أن أغلق الهاتف!

رحتُ أبكي، أنا، نُهى التي لا تبكي بسهولة، رحتُ أجهش! كان جسدي يرتجف، كما لو أن كلّ القهر الذي أذاقني إياه الدكتور كريم انفجر دفعة واحدة، وقد غدتْ روحي غير قادرة على استيعابه في الدّاخل أكثر.

تركني مع ردينة وانسحب، وحين عاد كنتُ لم أزل أجفّفُ دموعي.

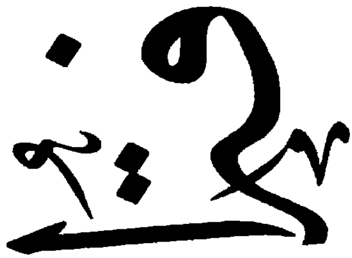
- اتركينا وحدنا، ردينة.

انسحبت ردينة: خبريني، شو القصة؟!

وما إن انتهيتُ من سرد قصّتي، حتى قال تلك الجملة التي لن أنساها: الحقير، كان يمكن أن يتحرَّش بابنتي!

***

تلك، كانت المرّة الأولى والأخيرة التي أقابل فيها سلمان بيك وردينة أيضا. لكنني تبادلتُ وردينة الرسائل بشكل يوميّ. وذات يوم أخبرتْني بأنها أحبّت، ثم أخبرتني أن أباها يرفض أن تتزوّج ممن أحبَّته، وفي رسالة أخرى حدّثتني أنها اضطرّت للجوء إلى زوجة أبيها لمساعدتها! وأنها تزوجتْ، وبعد أقل من تسعة أشهر أرسلت إليَّ صورة توأمها! لقد أنجبت ولدين متشابهين تماما؛ وبتلك الصورة، انتهت علاقتنا، إذ يبدو أنها غرقت في مسؤوليات أكبر من أن تُحتَمل!



السّعادة السريّة!

عشر حكايات غير معروفة!

سمعتُ بابا يُفتح، وإذا بسلمان بيك يدخل. بابتسامة واسعة اعتذر لي لأنه تأخّر، وأضاف: أشغال ثقيلة تكسر ظهْرَ جَمَل! ثم التفتَ إلى قارورة الجعة الخالية من الكحول وقال: حسنا أنك ابتدأتَ قبلي، هذا سيفتح قريحتك للكتابة!

- كتابة؟!

- بل الكتابة! لقد طوينا اليوم قصة كبيرة، حين سلّمناك مِلفك بيدك، أليس كذلك؟ الآن أريد منك مِلفا آخر، تكتبه أنت بنفسك، تبوح فيه بكل ما لا يعرفه أحد، وأؤكد، كلَّ ما لا يعرفه أحد!

- هل يعني ذلك أن أقدِّم تقريرا بنفسي عن نفسي؟!

- بل تقدِّم تقريرا عنّي بنفسك!

- اسمح لي سلمان بيك أن أقول إنني لم أفهم شيئا!

- قبل أن أفهمك، أو أن تفهم، سيكون الأمر بيني وبينك، ولا داعي لأن أحذِّرك، أو أُنبِّهك بعد الآن، هذا عمل بيننا، لا يعرف به أي مخلوق على وجه الكرة الأرضية، فهمت؟!

- حتى الآن لم أفهم!

- أظن أن علينا أن نحتسي شيئا منعشا كي نبدأ!

وما إن أنهى جملته حتى كانت الخادمة الجميلة تدخل.

- كالعادة! قال لها.

وسألني هل تحب أن تُغيِّرَ مشروبكَ؟ فشكرته! غابت الخادمة الجميلة وحين عادت، كانت تحمل قارورة أخرى لي، وكوب شاي لسلمان بيك!

- في صحتك! في صحة شراكتنا! قال بابتهاج. هيا إلى العمل إذًا!

وقبل أن أسأل: أيّ عمل، قال لي: اسمعني للآخر، لا تقاطعني، اتفقنا؟! أنتَ عشتَ في الخارج، عشتَ الحياة طولا وعرضا، وعشتها طولا وعرضا هنا أيضا! أنا أعرف هذا، والحكاية التي كانت في ملفك الذي مزقتَه هي رأس جبل الجليد لا أكثر! أعرف أنك عشتَ مغامرات لا تحصى، وتجارب قد لا تكون كلها نسائية! وإن كنت أفضّل قراءة هذه، أكثر من سواها! ما أريده منك، أن تكتب تلك المغامرات، كلّ مغامرة على حِدة، وتوضِّح أين حدثت ولا تنس متى، صيفا، شتاء، وفي أيِّ عام، مع أن هذا الأمر ليس مهما! هذا هو المطلوب منك. سأخصص لك مكتبا في عمارة أملكها في شارع الجاردنز! - وصمتَ قليلا- بل سأخصص لك مكتبا في جبل اللويبدة، فهو جبل الثقافة! فيه روابط الفن والأدب وصالات العرض. هناك أفضل! فيه ستتفتّح قريحتكَ أكثر وتتذكّر بصورة أفضل، وسأزودك بالوقود اللازم لذلك! ستكتبُ وأمامك مشهد جبل عمّان ووسط البلد، جبل الأشرفية، التاج، الجوفِة، القلعة، حتى ماركا! قد تتساءل، وكيف أضمن ألا تُستغلَ هذه الحكايات ضدي؟! معك حقّ! لن تكتب شيئا بخط يدك، أنت تستطيع استخدام الكمبيوتر، أليس كذلك؟ ستكتبُ مباشرة على الكمبيوتر، ولتفتح حساب بريد وهميّا، باسم وهميّ، وما عليك سوى أن تُرسل ما تكتبه إلى حساب وهمي أيضا، سأرسله إليك الليلة في رسالة نصِّية، وأرجو أن تتفوّق على نفسك! أن تتذكّر جيدا كل حكاية كبيرة عشتها، تسألني: لماذا؟ سأقول لك: هذا لا يعنيك! فما عليك سوى أن تكتب! ولي طلب هو أن تكون واضحا، محدَّدا، لا أريد استفاضة تجلبُ الملل ولا اختصارا يُفقدُ الحكاية

حرارتها ويَظلِمها! ولنتّفق منذ الآن: منذ اليوم وحتى هذا التاريخ من العام القادم، لا أريد منك أكثر من عشر حكايات، فقط عشر حكايات، لا يتجاوز طول الواحدة منها ستّ صفحات صغيرة! أو فلنقل أن يكون عدد كلماتها بين ألف وألف وخمسمائة كلمة. هذا كلّ ما في الأمر، وأعيد ما قلته: هذا أمر بيني وبينك، وأي حكاية بُحتَ بها لأحد، وبخاصة لزملائك، لا أريدها! لا أريد أن تتسلل أي حكاية معروفة إلى هذه الحكايات، أريد تلك الحكايات الغالية، العزيزة، التي احتفظتَ بها لنفسك.. لي!

سأمهلكَ أسبوعًا لترسل إليَّ الأُولى بالبريد الإلكتروني. اتفقنا؟

لم أُجب، فقال لي: تستطيع الآن أن تتكلّم؟

- وما الذي ستفعله بهذه الحكايات سلمان بيك؟!

- هذا هو السؤال الذي من حقكَ أن تسأله، ومن حقي ألا أجيب عليه! بالطبع، لك الحقّ في أن ترفض! أن تخرج! ولكن لن يكون ذلك لطيفا منك بعد أن قدَّمتُ إليك ما قدمتُ، وما سأقدِّم فيما بعد! دعني أكون سعيدا بما سأقرأ، وستكون سعيدا بأن تعيش قصصا جديدة غير التي ستكتُبها، غير التي عشتُها، قصصا إذا سارت الأمور كما يجب، سترسلها إليّ أيضا! اتفقنا؟

- ... !

***

في صبيحة ذلك اليوم كان مدير مكتب سلمان بيك قد اتّصل بي، وأخبرني أنني مدعوّ! وأوصاني أن أكون هناك في الثامنة والنصف.

ما إن أقفلتُ الموبايل، حتى رنّ هاتف المكتب، وبلطف شديد، طلب المدير الإداري للجامعة مني أن أمرّ عليه لتوقيع عقد العمل الجديد.

بسطَ العقد أمامي، ووضع القلم فوقه في حركة استعراضية، حتى

قبل أن أجلس.

انحنيتُ ووقعتُ العقد.

وفكرتُ: أي لعبة هذه التي يلعبها سلمان بيك معك؟! يُعيدك في حفل، ويفرض عليك الراتب الذي لا شك أن الجميع يعرفون حجمه الآن. وهكذا، ها أنت تعود إلى الجامعة مُكرَّما ومهانًا، قويا وضعيفا، منتصرا ومهزوما!

شكرني المدير الإداري وشكرته واستدرتُ لأخرج، فقال لي: نسيتَ الشيء المهم دكتور كريم.

- وهل هنالك ما هو أهمّ من توقيع العقد؟!

- بالتأكيد. هذا المِلف. إنه الآن ملككَ كما أوصى سلمان بيك، فافعل به ما تشاء!

تناولتُ الملف وخرجتُ. حين وصلتُ إلى مكتبي، تصفَّحتُه؛ لم يكن غير النسخة الأصلية لتفاصيل طرْدي من الجامعة، بما في ذلك من استجواب مذلٍّ، لم يكن له أيّ داعٍ، لأن قرار الفصل كان قد صدر قبل الاستجواب بكثير!

- إنهم جادّون في إعطائك الفرصة لتبييض صفحتك!

بدأت بتمزيق الملف على مهل. أخرجتُ مظروفين ورقيين كبيرين، ووضعتُ جزءا منه في الأول وجزءا في الثاني، بعد أن قسَّمتُ كل صفحة إلى نصفين، وكل جملة إلى نصفين، وكل نصف في مظروف! بحيث ضمنتُ بذلك عدم التقاء الأنصاف أبدا! وفي طريق عودتي قذفت بالمظروف الأول في حاوية قمامة، وقذفت بالثاني في حاوية تبعد عن الأولى أربعة أو خمسة كيلومترات على الأقل!

التخلُّص من ذلك الملف، كان أهم بكثير من أيِّ راتب كانوا سيمنحونني إياه، التخلّص منه كان يعني الخروج من السجن! أما بقاؤه

في خزائن الجامعة، فكان يعني أنني أتقاضي راتبا، قد يكون خياليا، ولكنني أتقاضاه في سجن لا يُسمح لي بمغادرته!

***

لم يكن مطلوبا منّي عمل شيء، وهذا ما حيّرني!

أحضرُ صباحا إلى مكتبي، أعاني من نظرات بعض الأساتذة الذين كانوا يرفضون التحدّث معي حتى في اجتماعات القسم! هؤلاء الذين لم يصافحوني، ولو مرّة واحدة، منذ عودتي، ويطلقون عليَّ من الصفات أقساها. أمرُّ بمكتب سهاد: أُصبِّح عليها. لسبب ما غامض، كنت أتفاءل بابتسامتها ومزاحها اللطيف، وآخر النكات التي كانت تدّخرها لي شخصيًّا.

- سمعت آخر نكتة؟! تسألني. ودائما يكون جوابي: بالتأكيد لا، ما دامت خارجة للتوِّ من المصنع!

وتُصحِّحني: النكت لا تخرج من مصنع، ما يخرج من المصنع هو الحديد والبلاستيك، والأجهزة الميتة، النكتة تخرج من قلب نشوان، طَرِب يملك عينين أوسع من هذه التي في رؤوسنا! وتلتفت إليّ معاتبة: طيَّرت النكتة من راسي! ثم تستدرك: تذكّرتُها:

- محشش راح يعزّي سأل: كيف مات المرحوم؟

قالوا: رصاصة في جبينه.

قال: الله سَتَرَ عينه!!

وتضحك، وأضحك لضحكها، مع أنني سمعتُ النكتة قبل عشر سنوات على الأقل!

***

تأكّد يقيني، من أن الجميع يعرفون الرّقم الذي حُدِّد لي كراتب، حين اتصل بي عميد كلية العلوم الإنسانية وهنأني على توقيع العقد، وأضاف

معزِّيا: تذكَّر أن أهمَّ ما حدث أن عودتك هي براءتك من كل ما لُفِّق ضدك من تهم! أما الراتب، فأنت تعرف، المال مثل وسخ اليدين لا أكثر!

***

حين عدتُ من الكويت، لم تكن الأمور قد رُتِّبت بدهاء كما هي عليه اليوم، لا بدّ أنهم أحسّوا بأن الخيوط أفلتتْ من بين أيديهم وهم يرون أولئك المغضوب عليهم يتوافدون من كلّ جهات الأرض عائدين إلى أُسرهم وبيوتهم، بعد منْعِهم سنوات طويلة من الدخول؛ لا بد أنهم لم يكونوا راضين وهم يرون هؤلاء (الذين باعوا أنفسهم للخارج!) يُجدِّدون جوازات سفرهم ويدخلون البلد ويخرجون منها على هواهم.

لكن، حتى العميان، أدركوا أن الأمر تغيَّر. لقد تمكّنوا ببراعة وذكاء شديدين من أن يعيدوا نشر الأجهزة الأمنية على المؤسسات المدنية، ولم يعودوا مضطرّين لمنعك من العمل بطريقة مباشرة! فالذي عينوه مديرا أو رئيسا لهذه المؤسسة، أو تلك، هو الذي سيقوم برفضك، مدَّعيا أن الأسباب مِهنيّة، كأن لا تملك الدرجةَ الملائمة أو الخبرة أو اللغة، وإذا انطبقت عليك الشروط كلّها، لا تستغرب سؤالا من نوع: هل تتقن اللغة اليابانية؟!

- ولماذا عليّ أن أتقن اليابانية؟!

- اليابانيون تبرعوا بتجهيز مختبرات كلية العلوم، ونحن نبحث عن أستاذ يتقن اليابانية ليكون جسرا بين الجامعة وبينهم!

يُصرف للمستفيد الأول!

يمكن أن يفاجئك إنسان، ما، مرّة، فتتساءل: هل كنت أعرفه حقا؟! لكن إذا ما فاجأك عشرات المرات، فإن عليك أن تتساءلَ هل حقا كنت تعرف نفسكَ حين اقترنتَ به؟! أما أن يفاجئكَ وتترك الأمور تسير كما لو أنك لا تعرف، فإن عليك أن تعرف أنك أصدرتَ شهادة وفاة نفسكَ، بنفسك!

تلك ملخص حكايتي مع سلمان، لكن بعض المفاجآت لم تكن ضارّة بالتأكيد!

منذ أن أعلنّا انفصالنا المكتبيّ، وقبضَ آخر فلس من حصّته، لم يعد يهمّه المكتب؛ لكنه لم يكن يكفّ عن الحديث عن المحاماة ومتاعبها كلما وجدنا أنفسنا في سهرة ما، أو زارنا إنسان ما، على قلّة من يزوروننا! فلا صداقات أسريّة، هنالك دائما احتفالات بأشياء تحققتْ لن أعرف ما هي!

أحيانا كان يضطرّ لتحديد موعد لأن أحد الأصدقاء استشاره بشيء. يأتي إلى المكتب، ويطلب من المحامية التي وظّفتُها، أن يستعير مكتبها لنصف ساعة.

كان قد قرر لي: إذا أردتِ أن توظّفي أحدا يساعدك، فلتكن محامية!

كان حريصا على أن يأتي قبل وصول الموكّل. يناقش معه قضيته، وأتعابه، المقدَّم، والدّفعات! وما إن يخرج الموكل، بعد أن يدفع للسكرتيرة، يناديها سلمان ويستلم المبلغ منها، ويخرج.

اكتفى بالمقدَّم في أغلب المرّات؛ وحين كانت الأتعاب تتعدّى الألفي دينار، كان يقتطع النصف. أحيانا يحدثُ ذلك في المكتب، حين يأتي الوكيل لمعرفة مسار قضيته، وليدفع دفعة أخرى! وأحيانا يكون ذلك في البيت. نتناول العشاء معا، ثم ينهض محاولا أن يبدو ظريفًا ما استطاع: هيا إلى العمل! فيذهب إلى طاولته وينشر الأوراق، ويُجري الحسابات، ثم يكتب المبلغ على ورقة بيضاء بقلم فلوماستر أحمر عريض، ويجرُّ الورقة باتجاهي على سطحها الخشبيّ. أرى الرّقم، فأنحني وأكتب له شيكا!

في المرات الأولى كنت أُحضِر له حصته نقدا، إلى أن نبّهني أنه لا يستطيع أن يذهب إلى البنك ليضع المبلغ بنفسه، لكن باستطاعته أن يرسل أحدا ما ليضع الشيك في حسابه. ودائما يذكّرني، حتى قبل أن يرى الشيك: هل كتبتِ: يُصرف للمستفيد الأول!

كان هو المستفيد الأول!

شقّة جديدة تلك التي كنا نسكنها في ضاحية الرَّابية، لكنه كان يتطلّع لليوم الذي سنترك فيه الضاحية. قلتُ له، وأنا، كما يقال، على نيّاتي!: كثير من الناس يفكرّون في الرحيل من هنا بسبب وجود السفارة الإسرائيلية! فقال مُستغرِبا: وبماذا يزعجهم وجود السفارة؟! بالنسبة لي، أريد أن أترك الضاحية بسبب الفوضى الدائمة التي يسببها المتظاهرون ضدها، كلما دقّ الكوز بالجرّة!

***

رحلنا إلى منطقة دير غبار، بنى فيلا كبيرة، هي اثنتان في الحقيقة، متلاصقتان، واحدة كانتْ له ولسهراته، أو كما كان يقول: للقاءات الرسمية! والثانية لي وله. وسيتبين لي فيما بعد أن قطعة الأرض كانت له منذ زمن بعيد، منحها إياه والده هدية لزواجه الأول! قبل أن تتحوّل هذه المنطقة إلى واحدة من أرقى ضواحي العاصمة.

لم أكن أختلط بالقادمين إلى النصف الرّسمي من الفيلا! ولم يصدف أن تعرفت إلى أيّ منهم. في الماضي، حين تزوَّجنا، كان الأمر مختلفا، كان يحرص على وجودي معه ويتفاخر بي كواحدة من أنجح المحاميات! ولكنني كنت أحسُّ أنه يفتخر بجمالي وقامتي الطويلة وشعري الأسود الطويل أكثر من أي شيء آخر، وفي كل مرّة كنت أتأمله وهو يتحدث أحس به يقول في سرّه: أنظروا، هكذا يكون الصَّيدُ وإلا فلا!

عملي وعلاقاتي كانت بوابة لدعوات كثيرة لي، وبالطبع لم أكن أذهب وحيدة، لكن أسئلته لم تكن تتوقّف حول طبيعة الدّاعين ومركزهم ونفوذهم، وعندما يتأكّد أنهم أعلى منه في درجات السلَّم الاجتماعي، كان يذهب؛ وإلا فإنه يقول: شو بدنا بوَجْعِةْ ها الراس، خلّينا في بيتنا أحسن! وبالطبع كنت أضّطر للاعتذار من الدّاعين.

***

زيارة النمسا وفرنسا وألمانيا والسويد: أول أسفاري معه، كانت أعظم نافذة فُتحتْ لي في حياتي، إذ اكتشفتُ أنه لا يستطيع أن ينام معي في غير سريرنا! يغدو شخصا آخر، ضعيفا، يحاول أن يتجاهلني، وينسلّ قبلي إلى الفراش ويدّعي النّوم!

حين وصلنا السويد كنتُ قد اكتشفتُ نقطة ضعفه هذه، فحاولتُ، متعمِّدة، أن أحتكَّ به، أن ألبس كل ما يثير شهوته، أن أكشف عمّا يُكشَفُ، وعمّا لا يُكشف، بالغتُ!

يثبِّتُ عينيه في الأرض وهو يقول لي: لماذا لا ننزل لنتجوَّل في السوق؟!

- لقد أتينا منه الآن!

- نذهب مرّة أخرى، يعني إيش ورانا!

أُلملم ابتساماتي وأنا أدير وجهي بعيدا، وأقول له: أنا تعبانة. فيرد:

سأذهب وحدي إذًا!

كنت سعيدة!

أما الأعجب فهو إصراره على أن أرافقه كلما سافر، إذ لم يكن يطمئن إذا ما تركني خلفه! وفي أحيان كثيرة، وهربًا منه حين تطول إقامته! كنت ألحُّ على ضرورة أن نسافر، فقط، لأرتاح منه!

في كلّ مرّة نسافر فيها بلا دعوة مغطاة التكاليف، كان يحرص على أن نناقش مصاريف السفر، فيكتب بقلمه الفلوماستر العريض الرّقم الذي عليّ أن أدفعه، ويجرّ الورقة فوق سطح الطاولة، حتى تغدو تحت عيني تماما.

أرى الرّقم، أدفع نصفه، وأكون سعيدة!

الحكاية الأولى

أمام تلك البناية في جبل اللويبدة، توقَّفت سيارة مدير مكتب سلمان بيك، فأوقفتُ سيارتي وترجلتُ؛ أسلمني مفتاح باب المبنى ومفتاح باب الشقة، وقال لي: الطابق الثالث، شقة رقم 7، وابتعد.

أمام باب الشقة وقفت متردِّدا مثل لص مبتدئ! أشرعته، ومضيتُ إلى الشّرفة مباشرة، كما لو أنني سأغادر من هناك! هالني ارتفاعها، بحيث كان يلزمني الكثير من الشجاعة كي أصل إلى حافتها المطلّة على جرف عميق ينتهي ببيوت ومحلات تجارية قديمة وشارع يؤدي إلى وسط عمان. كان المشهد كما وصفه لي سلمان بيك. أخذتُ نفسًا عميقا، ووضعت كمبيوتري المحمول فوق طاولة أمام الشرفة، ورحت أتجوّل في أرجاء الشقة متوجِّسا، ومدقّقا في الزوايا والموجودات؛ فقد سكنني إحساس يقول: إن الشقة لا بدّ مزروعة بكل أنواع الأجهزة!

لم تكن.

فتحتُ باب المطبخ، فوجدتُ هناك ثلاثة صناديق، اقتربت منها، كانت صناديق نبيذ، واحد فرنسيّ والآخر إيطاليّ، والثالث تشيليّ.

همستُ: هذا إذاً هو الوقود الذي تحدّث عنه!

لم ألمس شيئا.

بعد نصف ساعة، اكتشفتُ أنني أضعتُ الكثير من الوقت، وأن عليّ أن أبدأ.

يا إلهي كم هي صعبة البدايات، إنها تفوق النهايات صعوبة في كثير من الأحيان!

***

وصلتُ إلى تونس، العاصمة، في نهايات شهر أيلول سنة 1995، للمشاركة في مؤتمر كبير لاتحاد الجامعات العربية. كان عدد المشاركين كبيرا بحيث نزل بعض الضيوف في فندق الشاطئ، وبعضهم في فندق آخر مكوّن من عدد كبير من الشاليهات.

لحسن حظّنا، كانت الرطوبة منخفضة، وكذلك درجات الحرارة، وهذا ما ساعدنا كثيرا على أن نتجوّل في العاصمة بصورة رائعة، وأن نستمتع بأمواج العصافير في شارع بورقيبة، وأن نشتري بعض الحلويات النادرة، وكذلك بعض أواني الخزف، متقنة الصنع، التي تباع بأسعار شبه رمزية.

بالنسبة لي أعجبتُ ببعضها كثيرا، لكنني لم أشتر. فقد انتهتْ فكرة البيت ومعنى البيت منذ رحيل زوجتي وذلك الابن الذي لم يُتح لي أن أضمّه ولو مرّة واحدة، وما كنت أحبّ أن تكون تلك المرّة وهو ميت!

تساءلتُ، كيف يمكن أن يحملوا كل هذه الأواني الثقيلة؟ بل ووجّهتُ السؤال إلى أحد الزملاء القادمين معي في الوفد، وكان أستاذا وشاعرا معروفًا: كيف ستتمكّن من حمل هذه الأواني من هنا إلى عمّان عبر مطار روما، وهذه أشياء من السهل أن تتحطّم، إذا ما وضِعتْ في حقائب سيتمُّ إنزالها وإعادة شحنها؟!

التفت إليّ وقال: زوجتي تحبّ هذه الأشياء كثيرا.

فقلت له: أنت شاعر مختلف عن بقية الشعراء الذين عرفتهم بالتأكيد، ولولا أنني أعرف أنك تكتب شعرا رائعا، لشكّكتُ في

شاعريتك!

عدنا، بعد أن احتسينا الشاي التونسي، كل إلى فندقه!

كان أفضل ما حدث أنهم خصصوا واحدا من أيام المؤتمر للراحة، وللتبضّع والتجوال.

كنت متعبا، فلم أذهب معهم. أمضيتُ نصف اليوم في الشاليه، وعند الظهيرة بدأ الملل يتسرّب إليَّ شيئا فشيئا، فقررتُ الذهاب إلى فندق الشاطئ حاملا كتابي -الذي كان نُشر حديثا- (فردية المجتمع.. اجتماعية الفرد)، فقد أوصاني أحد الأصدقاء المغاربة، وهو أستاذ رائع درس في السّوربون، أن أُحضِر له نسخة منه، بعد أن رآه ضمن مراجع ورقتي التي قدَّمتها في المؤتمر.

قلتُ، سأذهب، فإن وجدته فذلك أمر حسن، وإن لم أجده، أضع له الكتاب لدى موظف الاستقبال، وأكون بذلك قد خرجتُ من الشاليه على الأقل.

وكم حمدت الله أنني لم أجده! لأن ما رأيته، كان يفوق الوصف!

وحيدة كانت الطاولات المائة ربما، التي انتشرت في المكان المحاذي للبهو، البهو الذي أصبح مُلْحقا للمطعم، استجابة للزيادة الهائلة في عدد الضيوف.

إلى طاولة في منتصف هذه الغابة من الكراسي والطاولات، كانت تجلس امرأة، حين رفعتْ رأسها ونظرتْ نحوي، أدركتُ أنها الأجدر من هيلين لكي تُشنَّ الحروب الكبرى بسببها، لا حرب طروادة فقط. وقبل أن أفكِّر بمدى خطورة الخطوة التي أنا بصدد الإقدام عليها، كنتُ قد خطوتها! رحتُ أسير متحاشيا الاصطدام بالطاولات، حتى وصلتُ إلى طاولتها، قلتُ لها: مرحبا، وجلستُ. استأذنتُ أن

آخذ ورقتين من الأوراق البيضاء التي كانت تستخدمها لكتابة شيء ما، ناولتني إياهما غير مصدِّقة، أو غير مستوعبة ما يحدث! وما إن أصبحتا أمامي، حتى أخرجتُ قلمي وانطلقتُ أكتبُ دون انقطاع، كما لو أنها ليست هناك، وبين حين وحين ألمحها بطرف عيني تختلسُ النّظر إليَّ.

ملأتُ الصفحتين، بكلام لا أعرف ما هو في الحقيقة، فيض من كلام، نهر كلام، في وصفها! وطلبتُ منها ورقة ثالثة، تناولتُها منها دون أن أنظر إليها، وواصلتُ الكتابة حتى أحسستُ بأنني قلت كلَّ ما لديّ!

رفعتُ رأسي، شبكتُ يدي خلفَ عنقي، وتنهدتُ. وكما لو أنني فوجئتُ بوجودها، قلت لها: مرحبا! فردّت: مرحبا! وبعد قليل أضافت: أنت شاعر؟

- ليتني كنت!

- ما هي مهنتك؟

- أستاذ جامعي.

- أنت من المشاركين في المؤتمر إذن؟

- صحيح!

- كنت تكتب وكأنك تسابق أفكارك، لقد رأيتك! لم يسبق لي أن رأيت أحدا يكتب كنهر! أكنت تكتب مداخلتك؟

- بل قصيدة ربما.

- ألم تقل بأنك لست شاعرا؟!

- صحيح، لستُ شاعرا، ولكنني أظن أن كل إنسان يكون شاعرا في لحظة ما في حياته، سواء كتبَ سطرا، أو جملة أو صفحة، أو أكثر!

- وهل كانت هذه اللحظة هي لحظتك؟

- أنا علي يقين من ذلك، مع أنني لا أستطيع أن أستعيد أيَّ جملة من الجُمل التي كتبتُها، كانت الحالة تكتبني! الكتابة تكتبني!

رأيتها تحاول استراق النظر إلى ما كتبتُ، فطويتُ الورقات الثلاث، بحيث لم يعد باستطاعتها معرفة ما فيها. وسألتها: أنتِ من المشاركات في المؤتمر أيضا؟

ضحكتْ، فأوشكتُ أن أطلب منها ورقة جديدة لأصف ضحكتها! وفعلتُها: هل تسمحين بورقة أخرى!

وكما في المرّة الأولى رحتُ أكتب وأكتب إلى أن انتهيت. بسطتُ الأوراق الثلاث ووضعتُ الرابعة فوقها، وطويتُها من جديد.

سألتْني: وما الذي جعلك شاعرا مرتين في أقل من ساعة؟!

- ضحكتكِ، قلت لها، وأنا أنظر بعيدا صوب صوت البحر الذي لم أكن أراه.

- لم تعرّفني بنفسك!

- آسف، كريم!

- فاطمة!

- أهلا وسهلا.

- أهذا كتابكَ؟

- كتابي، أتيتُ به لصديق يقيم هنا.

تناولتِ الكتاب وقلّبتْ صفحاته، ثم توقّفتْ عند الفهرس طويلا، وحين رفعتْ رأسها، قالت: موضوع مثير!

- شكرا لكِ، أظن أن عليَّ أن أُسلِّمه للاستقبال، وأمضي إلى فندقي، وقلت لها اسمه، فالساعة تجاوزت الثانية ظهرا.

- على أيّ حال أنا مغادرة أيضا، ويمكن أن أوصلك إن لم يكن

لديك مانع!

- إن كنتُ لا أزعجكِ بهذا!

- على الإطلاق!

وكم أحببت (على الإطلاق) هذه!

نهضتْ، فأتيح لي أن أرى أيّ قامة هي قامتها، وأي تناسق مدهش يسكن مشيتها. كان شعرها القصير المائل للحمْرة ووجها النّحاسيّ فتنتين اتحدتا للتعبير عن الأنوثة في أقصى تجلياتها! أما ثوبها الأبيض المغلق من الأمام بصف أزرار سوداء، من ملتقى ثدييها حتى نهاية ركبتيها، وتلك الياقة السوداء حول عنقها؛ ذلك كلّه كان يعطي إحساسا قويا بأنها خرجت للتوِّ من يد الخالق إلى مجد أنوثتها!

تركنا الفندق وراءنا، وحين وصلنا الشارع الرئيسي، توقّفتْ لتستطلع الطريق، ولكنها بدل أن تمضي يسارا باتجاه فندقي، مضت يمينا.

قلت لها: أظن أن فندقي يقع في الاتجاه الآخر!

قالت: أعرف! يمكن أن تعتبر نفسك مخطوفًا، وإذا أردتَ أن تصرخ، فاصرخْ، لن أمنعكَ!

وهكذا بدأ فصلُ الجنّة في كتاب تلك الرّحلة!

***

عدتُ وقرأتُ ما كتبتُ، فأحسستُ بأن الإنسان يمكن أن يكون شاعرا مرات ومرات! إذ لم أكن أتوقع أنني كنتُ أحتفظ بكل تفاصيل تلك الرّحلة التونسية في داخلي.

دفعتُ الكرسيّ إلى الوراء، ورحت أتأمّل أضواء جبل عمان والأشرفية و...، بانتشاء وغبطة، فاكتشفتُ أنني ابتعدتُ، وأنني أتأمل

تونس، أتأمل ذلك الزمان، تلك اللحظات المذهلة.

لكن ذلك كلّه انقشع فجأة، حين تذكرتُ بأن حكايتي هذه ستكون منذ اليوم ملكًا لسلمان بيك.

طويت جهاز المحمول، وخرجتُ؛ هبطتُ الدّرجات به، كما لو أنني أحمل جثة قلبي!

طفتُ كثيرا بالسيارة. صعدتُ باتجاه وادي صقرة، الدوّار الخامس، السادس، السابع، الثامن، فشارع المدينة الطبية ثم عبر منطقة خلدة، فدوّار الواحة قبل أن أنعطف في شارع المدينة المنورة باتجاه جسر الجامعة الأردنية، فشقّتي خلف جريدة الدستور؛ وبين حين وحين أنظر إلى كمبيوتري المحمول فيتأكّد لي أكثر فأكثر أنه جثة قلبي!

إجابة خاطئة!

سأستغل سلطتي هنا كراوٍ، بسبب معرفتي الكلية بأحوال سلمان بيك، لأسرد بعض الأشياء التي ما كان يمكن أن يكتبها في مذكراته، أو يبوح بها لأحد! ولكنها بالتأكيد، تسلّلتْ وكانت معروفة بشكل لا يمكن أن نقول إنه ضيّق!

استطاع سلمان بيك أن يستغلَّ الشيك الذي قبضه كمكافأة لنهاية مَهمَّته، ولا أقول عمله! في عدة مشاريع سُرِّبَ إليه أنها ستكون ناجحة، كنوع من مكافأة، يمكن القول عنها: غير منظورة. مثل: قطع أراض كانت على وشك دخول التنظيم!

تحرّك بسرعة واشتراها، وبسرعة جنونية ارتفعت أسعارها بعد أشهر إلى أعلى ما يمكن أن يتخيّل. لم يكن ربحه في أيّ من هذه القطع أقل من ألف بالمائة! كانت تلك هي فترة حُمَّى الرّكض خلف التراب، إن كان يحق لي أن أسميها هكذا، ورافقتها حمّى أخرى هي حمّى الركض خلف الحجر، أي العقارات.

ومرة أخرى تلقى مكافأة ثالثة، فباعَ، وحمل المبلغ وأودعه في ثلاثة بنوك، فمن يعرف الغد مع واقع اقتصادي متذبذب لا يُرى لفرط سرعته، مثل خفقان جناحَي نقّار الخشب؟!

***

أحس سلمان بيك أن الأعمال تسير بسرعة الضوء، فأسس مكتبا

وعيّن مديرا له، لم يكن سوى وكيل عقاراته، الذي أُعجب به وبقدرته على إدارة مصالحه بصورة مبهرة. وبعد أيام من تعيينه، همس وكيل العقارات في أذن سلمان بيك: أظنك بحاجة إلى سائق يا بيك! ليس من مصلحة العمل أن تقود سيارتك بنفسك!

صمت سلمان بيك قليلا، وقال له: سأترك لك اختيار سائق محترم!

- إنه موجود في مكتبي الآن يا بيك!

- في مكتبك؟! هل تعرفه جيدا؟

- إنه إنسان ممتاز يا بيك! وأكثر من هذا، إنه ابن شهيد!

- ماذا؟ أتريد أت تخرب بيتي؟!

- بل أُعمِّره يا بيك! أنت تعرف أن العيون كثيرة، وخطوة مثل هذه ستخدمك كثيرا يا بيك؟

- بل ستفتح العيون أكثر!

- إنه إنسان طيب فعلا، وأظن أن من الجيد بين حين وآخر، أن تثبت للناس أنك معهم، وليس هنالك أبلغ من تعيين ابن شهيد سقط على أرض فلسطين، يا بيك! وصدّقني، ستكون أنت مرتاحا أكثر، أعني نفسيّا، فعمل الخير يسعد المرء كثيرا!

- ولكن أحذرك، إذا كان أنفه في السماء بسبب ما حدث لأبيه...!

- اطمئن يا بيك، أحمد لا يريد سوى أن يعمل ويطعم أبناءه!

- على مسؤوليتك!

- على مسؤليتي!

***

بعد أسابيع تبين لسلمان بيك أن أحمد سائق جيد، والأهم، ملتزم بالمواعيد، ولا يحب الكلام! وإن كان يعاني من نقص واحد، هو رغبته الدائمة في سماع نشرات الأخبار!

استطاع سلمان بيك أن يتغلّب على هذا، حين أعاد على سماع أحمد، أكثر من مرة: نشرة الأخبار هذه سمعتها قبل أن أخرج!

لم يعد أحمد، وهو رجل نحيل في الخمسين من عمره، بعينين واسعتين، ووجه أشبه ما يكون بعلامة سؤال كبيرة، لم يعد يبحث عن نشرات الأخبار، لكنه كان يتناسى رغبة سلمان بيك تماما، حين يكون العالم مشغولا بحدث كبير!

***

بعد ثلاثة أشهر من وجود أمواله موزَّعة في البنوك، انزعج سلمان بيك! فالمال الساكن يَفسد، كالمياه الساكنة، هذا ما توصل إليه بحكمته! ولم يطل الأمر، إذ عرض عليه رجل متنفّذ أن يدخله في عدة مشاريع، شرط أن يكون للمتنفّذ ذاك، عشرة بالمائة من الأرباح المستقبلية في بعض المشاريع، وعشرون بالمائة في المشاريع الأكثر إدرارا للأرباح، ومن بينها تلك الجامعة الخاصة التي استطاعوا انتزاعها من مالكها الأصلي عبر سلسلة من المُعيقات، دفعته إلى مغادرة البلد والعودة إلى المكان الأول الذي كوّن فيه ثروته، على أمل تعويض خساراته!

كما ترون، من الصعب أيضا أن أحدّد الأسماء الصريحة في هذه الصفحات، وهنالك دائما أكثر من سبب، كما قال أحد الروائيين!

الليلة الحاسمة في حياة سلمان بيك هي المكافأة الكبرى، إن جاز التعبير، والمتمثلة في تعيينه وزيرا، وحين أقول مكافأة كبرى، فإنني أعني أن هذا هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه سلمان بيك من مناصب. لا يتعلّق الأمر هنا بقدراته، بل بوزنه الاجتماعي! ولم يكن هذا الوزن يُلزم أحدا أن يكافئه بأكثر مما حصل عليه! والمكافأة هنا، أعني: الوزارة، هي مكافأة الذكي السّلس المستجيب المتعاون الذي يُقدِّر الاقتران بـ (المصلحة العامّة!) في اللحظات المفصليّة!

***

في مساء اليوم التالي لتلك السهرة على مشارف الأغوار... -وعليّ أن أُنبّه هنا إلى أنني لست محايدا في ما سأقوله! على الرغم من أنني كراوٍ لا أعتبر سلمان بيك، عدوّا شخصيا! كل ما في الأمر أنني أريد التخلّص بصورة واضحة من قناع المكْر الذي يضعه الروائيون، حين يدّعون الحياد، وهم غير ذلك أبدا، لأن ما ينطبق عليهم ينطبق على ما قيل في الإناء: (كل إناء بما فيه ينضح!) فهم الذي يميتون أبطالهم، وهم الذين يحيونهم، وهم الذي يحدِّدون الصورة التي نرى هؤلاء الأبطال عليها! ها قد أوضحتُ وجهة نظري في هذه المسألة الدقيقة بالذات.

في مساء اليوم التالي لتلك السهرة على مشارف الأغوار، جاء نصف من كانوا فيها لتهنئة سلمان بيك بالمقعد الوزاري، ولم يكونوا بالطبع مُنشرحين، كما كانوا في الليلة السابقة التي يمكن أن ندعوها (ليلة المقعد الوزاري) إذ كان كل منهم قد بذل أقصى ما يستطيع للظفر به؛ بعضٌ آخر يأتيه المقعد من حيث لا يدري بالطبع، بسبب التوازنات المعروفة، أو لأنهم -وهذا ما حصل أكثر من مرّة- نسوا إحدى الوزارات ففبركوا لها وزيرا، لا على البال ولا على الخاطر، في اللحظة الأخيرة! ولمن يريد أن يرى بعينيه هذه الفبركة، أنصحه، بمشاهدة الفيلم المصري (معالي الوزير).

أحب أن أوضّح أن هناك وزراء يعيّنون لأسباب غير هذه، لكفاءتهم، حتى لا يقال بأنني أعمِّم، أقول هذا، لأنني بصراحة أريد أن أحفظ خط الرَّجعة، كما يقال.

لم يكن سلمان بيك حصيفا بما يكفي، حين اختار وزارة العدل، بمجرد أن قال له مدير الدائرة مازحًا: المقاعد فارغة لم تزل، وباستطاعتك أن تجلس في المقعد الذي تريد!

– العدل، بما أنني محامٍ! أجاب سلمان بيك بسرعة، وحين نظر إلى المدير وجده يحدّق فيه باستغراب ويهز رأسه.

– إجابة خاطئة؟! سأل سلمان بيك بصوت خفيض كطفل مذنِب!

– خاطئة جدا! أجاب الباشا. وأضاف: هل هدفك بهذا الاختيار أن تُقيم العدل؟! إذا كان ذلك هو هدفك، فعليك أن تنتبه أنك يمكن أن تكون أول ضحية لهذا العدل، فخلفك تاريخ لا بأس في اتساع ساحاته ودهاليزه ومنحدراته!

– بماذا تنصحني يا باشا؟

– أعرف أنك ستكون متعاونا بصورة أفضل، وسنعمل معا بصورة أكبر! ولذلك، اخترتُ لك المقعد الذي يلائمكَ تماما! ولكن لن أخبرك به الآن، لأنني لا أريد أن يتسرّب الخبر، بطريقة أو بأخرى إلى هذه الصحيفة أو ذلك الموقع الإلكتروني، فيبدأ التشويش عليك قبل أن تجلس!

***

خرج سلمان بيك من الاجتماع، الذي ظنّ بأنه الأهم في حياته، لا يعرف اسم المقعد الذي بات تحتَ مؤخرته! لكنه كان سعيدا إلى درجة أنه دسّ في يد السائق حين أعاده إلى البيت ثلاثة دنانير!

***

ملاحظة أخيرة:

حين أشير إلى أنه ظن بأن ذلك الاجتماع هو الاجتماع الأهم، فقد كان مخطئا في الحقيقة، لأن الاجتماعات الأهم بكثير في انتظاره!

صانع المفاجآت!

شخص مثل سلمان، لا يكفُّ عن إلقاء المفاجآت في وجهكَ، ما دمت وإياه قد أصبحتما تحت سقف واحد.

بعد يوم من تعيينه وزيرا، وصلتْ امرأة جميلة بوجه بريء يكاد يكون أكثر براءة من وجهَي ابنتها التي كانت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها والولد الذي لم يتعدّ الثانية عشرة. كانت مصرّة على رؤية سلمان.

قلت لها: إنه غير موجود، وإذا ما كنتِ بحاجة إلى أي شيء فأنا زوجته!

تأمّلتني طويلا، وقالت: أنتِ زوجته؟!

- نعم زوجته.

- لقد اتصلتُ به لأخبره أن الولدين، ردينة وخالد، يريدان تهنئته لتعيينه وزيرا، ولكنه أغلق الهاتف في وجهي، وطلب مني أن لا أتصل به أبدا!

- لم أفهم شيئا.

- وأنا أيضا، لم أفهم، كلّ ما في الأمر أن ابنته وابنه، وأشارت إليهما، كانا فرحَين ويريدان التحدّث معه! لقد رقصا حينما سمعا الخبر: أبونا صار وزير! أبونا صار وزير! عدتُ واتّصلتُ به، حين رأيتهما يحدّقان بي وهما على وشك البكاء، قلتُ لنفسي: من العيب أن تستسلمي يا نورة بعد

أول محاولة! الغريب أنه أجاب، لكنه لم يتركني أنطق ولو كلمة واحدة، قال لي: إذا اتصلت مرّة أخرى اعتبري نفسك مُطلّقة!

في تلك اللحظة وجدتُ نفسي مرتبكة كما لو أنني فتحتُ الباب، فأمسك جندي يدي بصمت ووضعني أمام حائط إعدام!

بسرعة حاولتُ استعادة اللحظات التي رأيت فيها سلمان أول مرة، حاولت استعادة ما قاله عن زواجه، ارتجَّ جسدي وهو يتلقى الطلقة الأولى، لكن نظرات الصغيرين الضائعة المكسورة، حتَّمت عليَّ أن أتماسك.

- أنا جاهزة! ماذا تريدينني أن أفعل؟! قلتُ لنورة.

- فقط أن تُسلِّمي له أولاده!

وقبل أن أفتح فمي، وقد وجدت نفسي أمام مهمَّة لم تخطر ببالي، استدارتْ مبتعدةً. قلت في نفسي: سيلحقها الولد والبنت، لكنهما لم يتحرّكا!

كانا مكسورين على نحو يمزّق القلب. ابتسمتُ: تفضلوا حبيبيني. البيت بيتكم، بيت أبيكم! أهلا رُدينة، أهلا خالد!

***

عاد سلمان متأخرا في ذلك اليوم، أمسكته من يده، فوجئ بذلك، وبقيتُ أسير وهو يتبعني، لا يعرف ما يدور، نحو غرفة لم نكن نستخدمها.

لا أعرف ما الذي خطر بباله في تلك اللحظات، ولكنني حين التفتُّ إليه، قبل أن أفتح باب الغرفة، رأيته يبتسم! قلت: يبدو أنه يعتقد أنني هيّأتُ عشا جديدا ننام فيه!

فتحتُ الباب، وأنا حريصة أشدّ الحرص على أن أراقبَ ردّة فعله: مَنْ هؤلاء؟!

- أولادك.

- أنا لا أولاد لي!

- هؤلاء أولادك يا سلمان، أولادك، أمّهم أحضرتهم اليوم.

- وماذا أفعل لهم؟

- لا أعرف، إنهم أولادك. أتعرف سلمان، كنت حزينة دائما لأنني لم أنجب أطفالا، ولكنني سعيدة الآن! تخيَّل ما الذي كان يمكن أن يحدث لي لو قلت وأنت تحدّق في أولادي: من هؤلاء؟! أنا لا أولاد لي!

صمتَ. واستدار مبتعدا.

- هل تريد منّي أن ألقي بهما إلى الشارع؟!

اندسّ في غرفته، وأقفل الباب بقوة، فرأيت النوم يهتز في بدنَي ولديه. غضبي المتراكم عليه، وسَّع رقعةَ الرَّحمة في قلبي وأنا أتأملهما نائمَين.

***

في اليوم التالي استيقظا باكرا، جهّزت لهما إفطارهما بنفسي، وبعد قليل من انتهائهما، سمعتُ باب غرفته يُفتح، فوجئ بهما أمامه وكأنه لم يرهما أمس. تقدّما منه ليصافحاه، كما لو أنهما خائفَان أن يصفعهما!

راقبتُ المشهد بقلب مكسور مثل عيونهما التي تحدّق في الأرض.

التفتَ إليّ. صافحهما، فحمدتُ الله أنني كنت هناك وإلا لألقى بهما خارجا.

دخلا الغرفة، أحضرا حقيبتيهما، ووقفا لا يجرؤان على الكلام.

- أظن أن على السائق أن يوصلهما إلى مدرستيهما! أليس كذلك؟

- أيّ سائق؟ ثم ماذا أقول له؟!

قطعتُ الحديث: سأوصلكما بنفسي. قلتُ لهما.

دخلتُ، ارتديتُ ملابسي، وخرجتُ بسرعة.

أوصلتُهما وأنا أحاول افتعال أيّ حديث لكي لا أترك للصّمت مكانا

بيننا، فقد كان الصّمت المدوِّي في داخلي أكثر من أن يحتمل!

سألتهما عن موعد خروجهما من المدرسة، ووعدتهما أن أكون في انتظارهما. وهذا ما كان.

كنت أعرف أن بقاءهما يعني إعادة ترتيب حياتي من جديد، وقد بدأت بوضع الحلول لهذه المشكلة غير المتوقّعة.

***

لم يكن سلمان في البيت حين عدنا ظهرا، ولكنني وجدتُ خيمة استقبال بيضاء كبيرة بجانب البيت، فأدركتُ أنها نُصبت لاستقبال المهنئين بالوزارة!

خالد، ولده الأصغر، ابن الثانية عشرة، كان فرحه بوجوده في بيت أبيه يفوق خجله كثيرا.

ارتدى سلمان أفضل بدلة لديه، مرّ بنا، نحن الذين وقفنا في صالون البيت لا نعرف ما الذي علينا أن نفعله! وقبل أن يصل إلى الباب، لحق به خالد وأمسك بيده: أريد أن أكون معك في الخيمة، قال له.

تجمّد سلمان، ونظر إليَّ كما لو أنني السبب، ثم قال لابنه: ليس الآن! ليس الآن!

بكي الولد، بكى بحرقة، وعبثا راحت كل محاولاتي لإقناع سلمان بأن يسمح له بالذهب إلى خيمة الاستقبال ولو لعشر دقائق!

***

- سأرسلهما عند أمي، فجدّتهم لأمهما تسكن بجوار أهلي أيضا، يمكن أن تتعاونا على العناية بهما.

تركتُه يفعل ما يريد.

بعد ثلاثة أيام اتصلتْ أم سلمان بي: أين زوجك؟! يعني صار وزير وما عاد يردّ حتى على تلفونات أمّه! يا بنتي أنا امرأة عجوز، ولا أستطيع

أن أعتني بأولاده، قولي له: ليأت فورا ويأخذهما.

كان سلمان يشير إليّ لكي أخبرها أنه غير موجود! فقلتُ لها: سأعطيه التلفون لتتحدثي معه، إنه هنا!

***

في صباح اليوم التالي، اتصل بي سلمان غاضبا، وقال لي: رضيتِ؟! لقد أعدتهما إلى أمهما!

- ولكنني لستُ أنا التي اعترضتُ على وجودهما!

في المساء، حين عاد، تحدَّث معي مقهورا كما لو أنه فقدَ نصف ثروته، كل ثروته! قال: لقد وافقتُ على أن أرسل لها مائتين وخمسين دينار مقابل أن تستعيد الولدين.

- ووافقتْ؟!

- بالطبع وافقتْ. كلّ هدفها أن تبتزّني!

- تبتزّك بهذا المبلغ التّافه؟! ما الذي يمكن أن تفعله زوجة وزير بمبلغ كهذا؟ بل ما الذي يمكن أن تفعله زوجة موظف بسيط لديها ولدان بمبلغ كهذا؟!

- أنا لا أستطيع أن أفتح هذا الباب عليّ، إن فعلتُ ستأكلُ تلك المرأةُ الأخضرَ واليابس، أنت لا تعرفينها!

- بل أعرفها، أو لأقُل عرفتُها، عرفتُ كم هي مسكينة تلك التي قبلتْ بهذا الحلّ!

وصمتُّ قليلا دون أن أرفع نظري عنه وسألته: بربك! كم كنتَ تعطيهم من قبل؟!

ثلاث لا تشوبها شائبة!

ثانية اسمحوا لي كراوٍ أن أتدخّل، لقول ما لا يقال.

أول إحساس انتاب سلمان بيك حين علم في ذلك اليوم باسم المقعد الذي سيجلس عليه، ارتبك، بل وصرخ في وجه ديانا: ومَن قال لهم إنني أفهم في هذا المجال الذي لم يسبق لي أن ادّعيتُ بأنني أعرف شيئا فيه؟!

كان المقعد الوزاري الذي اختاروه له واحدا من أكثر المقاعد التي تُطلُّ على المشاريع الكبيرة، الكبرى! ولن يفهم سلمان بالإشارة، رغم كونه لبيبا، إلا فيما بعد، أن هذا المقعد محجوز لواحد من اثنين، شخص لا يمكن المساسَ به، نظرا لوزنه الاجتماعي، وشخص تسهُل الاستفادة منه أكثر من الأول بكثير، وتسهُل التضحية به إذا ما جدّ الجدّ. وكان يعرف أنه من الصنف الثاني، تقريبًا!

ثلاث اتفاقيات صغيرة لا تشوبها شائبة، لا يتجاوز حجم الواحدة منها ثلاثين مليونا، وقّعها سلمان بيك أثناء وجوده في الوزارة، يمكننا القول إنها مهمّة فعلا للبلد؛ أما الرابعة التي كان على وشك توقيعها، فلا تشوبها شائبة أيضا، ولكن فيها بندا واحدا، أو لَغْما واحدا، لا يمكن الشكُّ فيه!

***

في لفتة غريبة، طُلِبَ من سلمان بيك، أن ينفرد برئيس الشركة الأجنبية المرشحة بقوة لتنفيذ المشروع! في سهرة ثنائية -كنوع من إثبات

حُسْن النيّة- لكي يضع شرطا جزائيا على الحكومة، إذا ما تراجعت عن تنفيذ المشروع!

تأمّله رئيس الشركة، وفهم اللعبة؛ لكن سلمان بيك أحبَّ أن يكون أكثر وضوحا، فقال له: لا أظن أنكم ستتنازلون عن مشروع كهذا للشركة التالية، التي تنتظر على أحرَّ من الجمر فشلَ مفاوضاتنا معكم، وليس بين حجم عرضكم وعرضهم إلا القليل!

- وما هي مصلحة شركتي من تراجع الحكومة عن المشروع؟! بل كيف تضمن تراجعها؟!

- هذا سؤال بسيط، للغاية، وكنت أظنُّ أنك تعرف إجابته! هذا المشروع لن ننفذه، لأن مجلس النواب سيرفضه!

- وكيف تضمن رفضه؟ فهذا مجلس نواب!

- إنه في يدنا، يوافق على ما نريد ويرفض ما نريد، ويُعلِّق ما نريد!

- ما الذي تعنيه؟

- هنالك في المجلس 20 نائبا فقط لا قضايا جرمية أو مالية عليهم!

- أتعني...؟

- تماما! هناك ثمانون متهمون بقضايا ما تزال أمام القضاء، ونستطيع أن نحركها متى نريد.

- 80؟!

- نعم 80 نائبا عليهم قضايا اعتداء على الممتلكات، وتهديد، من بينها تهم بالقتل، وجرائم مالية ووظيفية، وإصدار شيكات بدون رصيد، وتزوير وسرقة واحتيال، وكسب غير مشروع، ورشوة واختلاس، وإساءة الائتمان، وتهرب ضريبي، وتهريب، ومخالفات لقوانين الصناعة والتجارة والصحة العامة والعمل، وإصدار شيكات بدون رصيد، وهناك نائب واحد يواجه 233 قضية، من بينها 79 قضية أمام المحاكم،

منها إصدار شيكات بدون رصيد، بنحو 8 ملايين دينار! هل تحب أن أواصل؟

- ماذا؟!

- أعني هل تريد تطمينات أكثر من هذه؟!

صمت رئيس الشركة طويلا، وحين عاد من ذهوله سأل:

- وما الذي ستستفيده شركتي!

- يبدو أننا قد فهمنا بعضنا بعضا جيدا الآن! سندفع لكم ثلث المبلغ الجزائي، دون أن تضعوا حجرا واحدا في مشروعنا!

- أي أنكم ستأخذون ثلثي المبلغ الذي ستضطرُّ الحكومة إلى دفعه!

- فكِّر في الأمر! قال سلمان بيك، ووقف، فوقف رئيس الشركة، وصافحه تلك المصافحة التي لا تعني سوى شيء واحد: اتفقنا.

شدّ سلمان بيك على يده، وقال وهو ينظر في عينيه: في اعتقادي أن كلَّ الأشياء يمكن أن تكون مقبولة، بل حلالا، باستثناء شيء واحد هو الخداع!

- اطمئن. نحن الآن في مركب واحد!

***

كان سائقه أحمد في انتظاره حين خرج، بدا سلمان بيك سعيدا، ومشغولا في آن، وهو يجري حسابات سريعة لمعرفة حصّته من هذه الصفقة.

راقبه أحمد: مبروك يا بيك!

- شكرا يا أحمد، ولكن على ماذا؟!

- لا أعرف يا بيك، ولكنك تبدو سعيدًا والحمد لله!

- صدقتَ!

- ولكن أتعرف يا بيك، لا أظن أن هناك سعادة أفضل من سعادة

المرء بأبنائه!

- هل قلت كل ما لديك؟ قال سلمان بيك بغضب.

- تقريبا يا بيك!

- أقفل على البقية إذن، وانتبه أمامك.

تحركت يد أحمد نحو المذياع. أدرك سلمان بيك أن سيشعله.

- لا تفعل ذلك!

- حاضر يا بيك!

في الوقت الذي راح فيه سلمان بيك يحاول أن يتذكر ما إذا كانت هناك أخبار مزعجة، سيدفعه أحمد لسماعها كعادته حين يكون مستاء من شيء ما! وفكر: أظن أن الوقت قد حان لكي أتخلّص منه؟

***

- هل تعني ذلك حقا يا بيك؟ سأله مدير مكتبه.

- أتعني أنهم سيقولون لقد قطع رزق ابن شهيد، والله كنت أتمنى أن أقطع رقبته أمس!

- يا بيك، ليس المهم ما يقوله الناس، المهم ما ستقوله أنت لنفسك، ستكون حزينا إن فعلت ذلك!

فكر سلمان بيك في الأمر، وقال لمدير مكتبه: استدع أحمد هذا!

- يا بيك؟

- اطمئن! استدعه فقط.

حين وقف أحمد أمامه لا يعرف ما ينتظره، ابتسم سلمان بيك له، وطلب منه أن يقترب، ومد يده إليه بخمسة دنانير. فوجئ أحمد، هو الذي لم تتجاوز مكافأته في أي يوم ثلاثة دنانير!

- هذه لك، حَلَوان!

- حلوان ماذا يا بيك؟!

- حلوان ما حدث ليلة أمس!

بعد خروج أحمد الذي لم يكن مصدّقا عينيه وأذنيه وراحة يده اليمنى القابضة على الورقة النقدية، أحس سلمان بيك بسعادة كبيرة. إلى درجة أنه قال لمدير مكتبه أثناء خروجه: أشكرك على نصيحتك، فعلا أحسّ أن ضميري مرتاح الآن!

***

بعد أربعة أشهر، عاشها سلمان بيك على أعصابه، خائفا من أن تُحلَّ الوزارة قبل أن يرفُضَ النواب المشروع! تمّ الأمر، وبمجرد أن دُفع المبلغ الجزائي لتلك الشركة! أصبح سلمان بيك، بالحصة التي قبضها، غنيا بما يكفي لأن لا تُغريه الوزارة، أيُّ وزارة، ما دام جيبه امتلأ بكل هذه الملايين، وما دامت كلمة (معاليك) أو (معاليكم) قد غدتْ لقبا له إلى يوم يبعثون!

أسوأ ما يمكن أن يحدث!

أسوأ ما يمكن أن يحدث للإنسان، حدث لي! أن يعرف تماما حقوق الآخرين ويدافع عنها، ولكنه يعجز عن الدفاع عن حقوقه! وفي كل إنسان جزء من هذا الأمر للأسف، أحيانا يزيد فيبتلعُ الإنسان، وأحيانا يقلُّ فيبتلعه الإنسان، في لعبة (الاستعماء) التي يمارسها مع نفسه!

علاقتي بسلمان، فيها كل ما سبق، ولذا حين أفتش بين حين وحين عن نفسي، لا أجدها، كنتُ أقلَّ الفرحين بما حقّق، لأنني كنت أعرف أنه دخل الدائرة المرآة، التي لا يرى فيها الإنسان غير نفسه، أيا كان عدد البشر الذين حوله! أما الذي ظلّ يبهرني فيه فهي بلاغته، ولكنها بلاغته الوقحة، قدرته على أن يتحدّث بحرارة تدهش كلَّ من يسمعه عن النزاهة والحقّ في الحريّة وفي المجتمع المدني الذي يحترم البشر، وحقّ الشباب في الفرص التي يستحقونها، ومأساة وقوع البلد في تصنيفات، حول مواطنيه، لا يمكن أن تجدها في العصور الوسطى، حول المنابت والأصول والشمال والجنوب والوسط، وأهمية أن يكون لنا قضاء مستقل! وعدالة اجتماعية، تصوروا حتى أبناء الشهداء يعيشون في الحضيض، ولا يجدون عملا، ولن أبتعد كثيرا، فأحد الموظفين لدي ابن شهيد، ولو لم أعتن به وأجد له وظيفة محترمة لمات جوعا، كنت أتمنى أن أوظف أبناء الشهداء كلهم، ولكنكم تعرفون، هذا أمر مستحيل! ثم يختم بتلك الجملة القاطعة: كل الأشياء يمكن أن أعتبرها مقبولة، بل

حلالا باستثناء عدم وجود العدالة! ويضرب أمثلة صحيحة، بل ورائعة! بحيث يحسُّ سامعه أن مَن يتحدّث سيمضي لقيادة مظاهرة ضدّ الحكومة!

موهوب!

***

أكثر ما فاجأني بعد أن تسلّم الوزارة، هو طلبه مني التخلّص من اللاند كروزر، وحين سألته: لماذا؟! قال، سيارتك تجلب لي الشّبهات! إذ سيتهامس كثيرون: أنظروا إلى سيارة زوجته، لم يمض على تعيينه يومين في الوزارة وها هو يُهديها سيارة دفع رباعي!

- ولكنها سيارتي قبل أن تكون في الوزارة، والأصح: سيارة أهلي!

- هذه الحقيقة أعرفها أنا، يعرفها من حولكِ، ولكن كم من متربِّص بي وكم من عدوٍّ وحاسد وصحفي مأجور يعرفونها؟!

قلت له: معك حق! صورتك أهم من أيّ شيء في الكون! ما نوع السيارة التي تحبّ أن أشتريها؟ ما نوع السيارة التي لن تكون إصبع اتهام موجَّهٍ إلى نزاهتك؟!

- ما رأيك بالهونداي أكسنت؟ لا! إنها متواضعة أكثر مما يجب! تعرفين، أظن أن التويوتا كورولا هي الأنسب! أظن أنها الأنسب!

- وهل تفضّل موديل سنةٍ بعينها، أم موديل السنة؟!

- كم هو سعر اللاند كروزر؟!

- اطمئن، لن نكون بحاجة لدفع مبلغ إضافي، سعْرها يكفي لشراء التويوتا التي لا تسيء إلى صورتك!

- يبدو أنكِ غاضبة، وهذا ما لا أريده! دائما كنتِ متفهِّمة للظروف المحيطة بي! وأنتِ تعرفين، أنني لم أبخل عليكِ بشيء في أي يوم من الأيام، أليس كذلك؟!

- بالتأكيد! أجبتُ، وقد كان يتحدَّث بانفعال، يجعل المرء يحسُّ أنه على استعداد ليُقْسِم على صدْق ما يقوله.

- اتّفقنا، تصرَّفي باللاند كروزر بسرعة إذن! بل سأريحكِ من هذا، سأكلِّف مدير مكتبي بأن يبيعها، كي لا يستغلك أحدٌ كونك امرأة! وسأكلّفه بشراء الكورولا، وتسجيلها باسمك. صورة هويتك الجديدة في ملفِّكِ، أليس كذلك؟! ما اللون الذي تفضلينه؟ أعني لون السيارة!

- أسود!

- لون جميل، ولكن ألا تظنين أنه لون فخم إلى حدٍّ ما ويوحي بالثراء؟!

- أسود! قلت وأنا على وشك الانفجار.

- خلاص، اتفقنا، أَسود!

بعد ذلك الحوار الذي أحسستُ بأنه أسوأ مرافعة قدّمتها في حياتي، ونلت المؤبد بعدها، قال لي: لنحتفل بها تحقق لهذه الأسرة الرائعة!

- قبل أن نرى الكورولا؟!

- معكِ حق!

تناول الموبايل، وتحدّث مع مدير مكتبه: أريدك أن تأتي غدا إلى البيت، نعم بيتي، في الثامنة. سأخبرك بالتفاصيل فيما بعد.

- ... ...

- نعم في الثامنة. شكرا لك.

***

تلك الليلة كان الكيل قد طفح، قلت له عندما أمسك بيدي ليجرني إلى غرفتنا: لقد جهّزتُ الغرفة المجاورة لي، سأنام فيها منذ اليوم!

- ولماذا تنامين فيها؟

- ذلك أفضل لي ولك. واجتاحتني سخرية مُرّةٌ فقلت: ماذا لو

علمت الصحافة أو الأعداء والحسّاد والمتربصون بأنك بعد كل هذه السنين من الزواج لم تزل تنام معي في غرفة واحدة؟!

كنتُ أعرف أنه يحسب ألف حساب لغضبي، لأن الشيء الذي كان يدعوه للفخر بنفسه، هو وجوده فوق هذه المرأة الجميلة الطويلة، التي يتفاخر بحضورها إلى جانبه بين أولئك الذين هم أفضل منه حالا.

- فليقولوا ما ...

- سأنام في الغرفة المجاورة منذ اليوم يا سلمان، لقد سمعتني!

فوجئتُ به يفلتُ يدي ويقول: المهم أن تكوني مرتاحة، فكل الأشياء يمكن أن تكون مقبولة، بل حلالا باستثناء إجبار المرأة على القيام بشيء لا تريده! أليس كذلك؟! فأنت حبيبتي أولا وسيدة هذا البيت! والسيدة تستطيع أن تفعل ما تريد!

تركتُه وتوجَّهتُ إلى غرفتي الجديدة، وأنا أشعر بمدى ارتباكه أمام قرار، كهذا، بعد كل سنوات الزواج التي مرّت.

بعد أقل من ربع ساعة، وقد كنت أتقلّب في السرير جمرة من قهر، باكيةً. سمعتُ طرْقا على باب الغرفة، مسحتُ دموعي بطرف اللحاف، وقلت: نعم!

- هل يمكنني الدخول؟!

- البيت بيتك، وأنا زوجتك! تفضل. لا تُشعل الضوء.

اندسَّ إلى جانبي، وبعد أقل من دقيقة أحسستُ بيده اليسرى تعرِّيني. بقيتُ ساكنة، وحين أسندني بيده اليمنى ليجرِّدني من قميص نومي، اعتدلتُ، فكان له ما أراد!

سمعتُ لهاثه يتصاعد، وقبل أن يستردَّ أنفاسه قلتُ له: لقد أخذتَ حقك الزّوجي كاملا أليس كذلك؟ الآن، آن لي أن أنام!

ومنذ ذلك اليوم، أصبحت تلك هي اللازمة التي أُنهي بها كل لقاء جسدي معه، في تلك الغرفة، غرفتي!

أغرب أمنية!

فوجئتُ بزوجة سلمان الأولى بعد عدة أشهر من تلك الحادثة تنتظرني في مكتبي عقب عودتي من المحكمة، ومعها خالد وردينة.

رحبتُ بهم، وطلبتُ منهم أن يتفضّلوا.

بوجل ساروا أمامي، كما لو أنني سأزجّهم في كهف وأغلق عليهم بابه بصخرة هائلة.

داعبتُ شعر الصغير خالد، وسألته: كيف المدرسة يا بطل!

لم يُجب. وتردّدوا حين دعوتهم للجلوس.

من جديد دوّى ذلك الصمت الذي كنتُ سمعته في طريقي صحبة الصغار إلى مدرستيهما في ذلك اليوم.

- إحكي! قلتُ لنورة.

- ماذا أقول، أنا ليس لي صوتٌ، فكيف أحكي؟! فلا أنا زوجته فعلا ولا طليقته فعلا، وهو والدهما وليس والدهما، مسؤول عنا وغير مسؤول عنا، مُلزَمٌ بنا وغير ملزم بنا، فمن نحن؟!

- لا عليك، كل ما تحتاجينه سأوفِّره لكم.

- لم أحضر لهذا السبب، رغم أنه يصرُّ على أن يجعلنا نطالب بحقّنا كما لو أننا نتسوّل، وهو حقّنا!

- أعتذر لكِ، أسأتُ الفهم.

- كل ما يريده خالد وردينة هو التقاط صورة معه، يريدان أن يثبتا

لأصدقائهما أنه أبوهما، وأن الأمر لا يتعلّق فقط بتشابه الأسماء! لهذا جئنا!

- هذه عليَّ، كونوا مطمئنين!

ولأول مرّة أرى ردينة وخالد ينظران الواحد منهما إلى وجه الآخر ويبتسمان بسعادة!

- سعادة؟ تساءلتُ، هل انحدرَ معناها إلى هذا الحدّ، بحيث أنها أصبحت في عيني هؤلاء الصغار صورة، وصورة مع مَن؟ مع أبيهما؟!

***

رفض سلمان. رفض كما لو أنني طلبتُ منه أن يوقِّع شيكًا على بياض!

- أنت لا تعرفينها! عاد يُردِّد.

- إنها لا تريد سوى أن تلتقط صورةً مع الولدين، لن تكون هي فيها! سلمان، لا تكسر قلبَي صغيريك أكثر مما فعلتَ. بعد أسبوع عيد الأضحى، قدِّم لهما هذه الهدية، قدِّمها! هل رأيت كم يحبك خالد الصغير؟ هل نظرت في عيني ابنتك؟!

- يكفي، وصمت قليلا، ثم أضاف: لي شرط وحيد!

- تفضّل!

- لن أراهما في البيت، سأراهما في مكتبكِ!

- في المكتب إذًا، كما تريد!

***

كانوا في انتظاره قبل ساعة من الموعد الذي حددته لهم. وقد عملتُ على أن يكون المكتب خاليا من العاملين فيه ومن الموكّلين.

بعد ساعة من الموعد حضَر!

صافحهما، ثم مدَّ يده وناول كلّ منهما كيسا أحضره معه. وضعَا

الأكياس جانبا، دون أن يبتعدا بنظرهما عنه.

حاولتُ نشرَ جوٍّ من المرح حين قلتُ: والآن.. هيا إلى الصّورة! وأمسكتُ بالكاميرا التي أحضرتها خصيصا، لكن خالد أخرج كاميرا صغيرة من جيبه بفرح، وقال: لديّ كاميرا!

- ليس وقتها. أنا مُتعب، ليس وقتها! سنلتقطُ صورة في وقت آخر، ليس اليوم. قال سلمان، وخرج دون أن يودّعهما.

- لماذا لا يريد أن يتصوّر معي يا خالتي؟ سألني خالد، وبدأ يبكي.

قلت له، محاولةً تخفيف الأمر عليه: أنا أحبُّ أن أتصوّر معك. هل تريد أن تتصوّر معي؟

قبل أن أُنهي جملتي، كان قد خرج باكيا يركض.

أمسكتْ نورة بيد ابنتها لتتبعه. قلتُ لها، وليتني لم أقل: هدايا الأولاد!

توقّفت صامتةً ونظرتْ إليّ بصورة أخافتني فعلا. انحنتْ صوب الكيس الأول، أخرجتْ ما فيه: هدايا؟! أيّ هدايا؟! وألقتْ بها بعيدا. ثم التقطتْ ما في الكيس الثاني وأعادتْ جملتها: هدايا؟ أي هدايا؟! وألقتْ بها بعيدا.

خرجتْ.

سرتُ وراءها بصمت غير قادرة حتى على التنفّس؛ وحين عدتُ، انحنيتُ ورفعتُ هداياه! لم تكن سوى (تي شيرت) وبنطال، للولد، وفستان للبنت، لا يتعدّى ثمنها ثلاثين دينارا!

بكيتُ!

أريد النهاية!

بعد أقل من نصف ساعة على إرسال حكايتي الأولى إليه، اتّصل سلمان بيك، وأخبرني أنه يريد نهاية! يريد ما حصل! فقلت له: لم أعتقد أن ما حدث بعد ذلك مهم! فردَّ باستغراب: ولماذا فعلتَ ما فعلتَ، أقصد لماذا فعلتُ ما فعلتُ؟! هل لأنتهي عند هذا الحدّ؟! أريد نهاية، ونهاية سعيدة إذا سمحت! إن لم تكن موجودة، اخترعها! لا تضطرّني لاختراعها!

الحكاية جميلة، لا نقاش في ذلك، قال، وهي بداية، يمكن اعتبارها قوية للغاية، ما أريده هو هذا المستوى مستقبلا! لأن حكاية كهذه تُبيِّض الوجه! شيء أخير، أريد أن ألفتَ انتباهك إليه: أريد أن تكون لدي حكاية جاهزة دائما، على سبيل الاحتياط!

***

تمنّيت لو أنني كتبتُ الحكاية الأولى حتى النهاية، فأن أعود من جديد لها، أمر مزعج، بدل أن أكتب له واحدة أخرى كاحتياط!

بعد عناء عدتُ إلى حيث انتهيت:

كانت سيارة الرينو الحمراء تشقُّ الطريق بين أشجار السَّرو العالية مثل صاروخ، وبدا لي أن فاطمة فرحة، وثمِلة بهذا الفرح، بحيث كانت هي من تحملني بين يديها وتطير بي، لا هذه السيارة التي مرّت عشر سنوات على صُنْعها، على أقل تقدير!

سرنا في شوارع واسعة وأخرى ضيّقة، إلى أن توقّفنا أمام بيت لا يبعد أكثر من سبعين مترا عن شاطئ البحر. صوت البحر نعمة لا يُقدِّرها سوى ذلك الذي حُرم من نعمة البحر! وددتُ لو أترك فاطمة وأركض نحو الماء! أخلع حذائي وأسير على الرمل.

قالت: البحر يناديك أسمع هذا، ولكن لا تنس، أنتَ مختَطَف، إياك أن تُصدر أي صوت ينبئ عن وجودك قربه! أتيتُ بك إلى هنا، لأن أحدا لن يتوقّع أن يكون المخبأ الذي سأحتجزكَ فيه قريبا ومكشوفا!

تأمّلتها وهي تتحدث بلهجة جميلة وصوت رائع، فأحسستُ أن أعمق تعريف للسعادة هو هذه المرأة.

هل كانت في الخامسة والعشرين، السادسة والعشرين، من يعرف؟ ومن يعنيه هذا؟ مُبهجةً كانت وغامرة مثل تلك الموجة التي تصاعد صوتها وبللتْ قلبي برذاذها الناعم!

كانت تفتش في حقيبتها، وتسأل: أين اختفى مفتاح الباب؟!

قلت في نفسي: انتهى كل شيء أمام العتبة إذًا!

لم تجده!

- يبدو أنهم نسوا مفتاح الباب الخارجي في داخل البيت، فالباب يُغلق من تلقاء نفسه. هل أنت على استعداد لتسلّق السّور وفتح الباب من الناحية الأخرى؟!

أربكني اقتراحها، قلت: هذا ما كان ينقصني، أن يباغتني شرطي تونسيّ، وأنا الغريب، متسلّقا السور! ستكون الفضيحة التي يبدو أن المؤتمر في أمسّ الحاجة إليها لفرط رتابته: إلقاء القبض على أستاذ جامعي عربي يتسلق سور أحد البيوت بنيَّةِ السرقة!

- أين وصلتَ؟ شطحتَ بعيدا!

- ألا يوجد حلٌّ غير هذا؟!

- يوجد بالطبع!

- ولماذا لا نتصرّف بموجبه؟

- أنا مستعدة! فهل أنت مستعد؟!

- مستعد؟

- إذًا اخلع بنطالك الجينز هذا وأعرني إياه لكي أتسلّق السور، دون أن أؤذي ساقيّ!

- إلاّ هذه! ورأيت عنوانا عريضا في إحدى الصحف: إلقاء القبض على أستاذ جامعي عربي يحاول سرقة أحد البيوت التونسية عاريا!

- سأتسلق السور؟ ولكن، هل هو بيتك؟

- لا، ليس بيتي! إنه بيت صديقة لي تزوجتْ حديثا وذهبت إلى الجنوب مع زوجها لزيارة أهله لمدة أسبوع.

- وما اسماهما؟!

- زينب وعبد الودود.

- على الأقل أعرف الآن بيت مَن هذا الذي سأسطو عليه! قلت ذلك جادًا، وحين رأيتها تضحك من قلبها، قفزتُ؛ وبعد حركتين مدروستين اعتليتُ السور وبسرعة انزلقتُ إلى الداخل.

بيسر فتحتُ الباب. انحنيتُ مرحِّبا بها: أهلا وسهلا!

- شُفْتْ؟ كان الأمر سهلا! وسارت أمامي. فتحتْ باب البيت، وسبقتْني إلى الداخل.

مرتبا كان البيت، وكل شيء في مكانه. سألتني: كيف ذاكرتكَ البصرية؟

- جيدة على ما أظن!

- التقطْ صورةً واضحة بعينيكَ، واحتفظ بها في داخلك، سنحتاجها عندما نغادر البيت!

***

أمسكتْ بيدي، سارتْ نحو مقعد وثير ذكّرني قماشه بالمطرزات الشعبية، بوحداته الدقيقة وألوانه الحارة. دعتني للجلوس. وابتعدتْ، وهي تقول: آمل أن يكونوا قد تركوا لنا شيئا نشربه! وبعد ثوان سمعتها تُطلق صيحة انتصار، أطلتْ، وفي يدها قارورة نبيذ وكأسين.

تحدَّثنا طويلا، وسألتني للمرة السابعة عن السبب الذي يجعل الرّجل جريئا إلى هذا الحدّ، كما فعلتَ أنت! قدَّمتُ لها سبع إجابات تكمل الواحدة منها الأخرى، وهي تهزّ رأسها في كل مرّة: بل هنالك سبب أكبر بالتأكيد!

حين استعدنا بجسدينا العاريين لحظة خَلْقنا الأولى، ظهر لي سبب آخر لم أتوقعه أبدا، كانت عيناي محظوظتين بأن تريا جسدا مثل ذلك الجسد البرونزي الذي أبدعته يدا الخالق وكانتا كريمتين معه، حيث أوصلتاه إلى ذروة لم أر مثلها من قبل.

طيلة فترة العصر والمساء، كنا نتقلّب في نعيم أحسستُ معه أن البحر بات معنا في تلك الصالة التي تراجعت مقاعدها، مُفسحة المكان لنا لنولد مرّة تلو أخرى، نولد إلى ما لانهاية! ولم ننتبه لشيء إلى أن فوجئنا بأن الليل قد هبط، والبيت قد أعتم، فنهضتْ تتلمَّس المقاعد في طريقها إلى مفتاح النور. في تلك اللحظات أحسستُ بأنني كنتُ أحلم، ولم أعد أذكر أين أنا، وحين انتشر الضوء، ورأيتها تقف أمامي بكامل بهائها، أدركتُ أنني أحلم أكثر، إذ بلغتُ درجة، أو طبقة من الحلم، لم يصلها أحد قبْلي!

أكان عليها أن تسألني: جُعتَ؟

- أيجوع الحالمون؟!

- أنت الآن شاعر سيء! نعم، يجوعون، لكي يحلموا ثانية وثالثة!

أجابت! وعلى عجل ارتدتْ ثيابها: لن أغيب طويلا، سأشتري شيئا نأكله وأعود بسرعة.

هناك في الحلم تركتني مُعلَّقا، غير راغب بالنّزول.

***

في آخر الليل سألتني: متى ينتهي المؤتمر؟

- غدا، غدا الخميس.

- وهل ستسافر؟

- كنت أعرف أنني سأسافر، ولكنني الآن لا أحبُّ أن أسافر!

- ستبقى إذًا!

- للأسف، لا أستطيع أن أتأخر كثيرا، فهناك محاضرات وطلاب، أنت تعرفين!

- أعرف، قالت بحزن، ومتى موعد الطائرة القادمة؟

- الجمعة، هناك طائرة كل جمعة وكل اثنين.

- ألا تستطيع أن تؤجل الأمر حتى يوم الاثنين؟

- صعب.

- إذن دعنا نعيش كما يجب حتى صباح الجمعة!

***

لا أستطيع أن أتذكر كم ساعة نمتُ خلال الأيام الثلاثة التي أمضيتها في ذلك البيت! كانت هنالك مجرد غفوات بين طيران وآخر! نعود بعدها للتحليق ثانية. ومع كل فجر، كنت أتسلل إلى البحر، أمشي حافيا، مستمتعا بهواء نقي يملأ رئتي بألف مدينة.

وأعود إليها كما لو أنني بُعثتُ من جديد.

مساء الخميس، أمسكتْ بيدي، وأجلستْني أمامها، وقالت: أريد منك ولدا!

***

حزينة كانت حين ودّعتها، وكنت أكثر حزنا. قالت لي: أيها القاسي، أنت لم تترك لي شيئا منك؟ هل تعدني أن تعود قريبا؟ هززتُ رأسي موافقا.

لم أعد ثانية. أما ما حدث، فهو أنني بقيتُ على مدى عدة أشهر، أحسُّ في كل لحظ أنني ما زلت في داخلها، كان هنالك بحر صغير فيها، بحر رائع لا تتوقف أمواجه عن التدافع، تُطبق (عليه) وتلتفُّ، تعتصره، وتتراجع، ثم تعود ثانية!

***

تأملتُ ما كتبتُ حزينا!

مجموعة السبعة الكبار!

أمضيتُ اليوم محاولا إيجاد حلٍّ آخر غير أن أقوم باستعراض مغامرة ليستْ لي، استجمعتُ أفكاري، وبدأتُ من أول نقطة يمكن أن تخطر ببالي. رحتُ أعارك ذاكرتي، أنفضها، أُذرِّيها، أمضي بعيدا إلى المرحلة الابتدائية فالإعدادية، أسترجع وجوه أصدقاء تطلّ وتبتعد، تتجمّع وتذوب، تذكرتُ بعضهم ممن واصلوا التنقّل معي من صف إلى صف، إلى أن أنهينا الجامعة، وفقدتُ بعضهم في منعطفات حادّة، أو طرُق لم تتبيّن لي نهاياتها.

كنت على يقين من أنني مثل غيري، راهقتُ، ووقعتُ في حبّ ابنة جار، أو طالبة في مدرسة البنات التي لم تكن تبعد عن مدرسة الأولاد أكثر من مائتي متر لا غير!

تذكرتُ تلك الفوضى التي أحدثتْها أمي في كلِّ مرة اكتشفتْ فيها الدماء تغطي كلسوني الأبيض، إلى أن أمسكتْني من يدي وجرّتني إلى غرفة صغيرة، وسألتني ذلك السؤال الغريب: بدِّكْ تقول الصحيح، إنتَ ولد ولّا بنت؟!

– ولد، أنا ولد. سلمان! أكدتُ لها!

– والعادة الشهرية هذه؟! والدّم الذي أجده على ثيابك كلما غسلتها! دم ماذا؟!

– لا أعرف عن أيّ دم تتحدّثين!

- دم الحيض؟! لا تخف، لن أخبر أباك أنك بنت إذا كنت بنتا!

- أنا ولد، قلت لك إنني ولد!

- آه، معنى ذلك أن الأولاد يلعبون عليك!

- طبعا لا، ماذا تقولين، أمّي؟!

- اشلح بنطلونك!

رفضتُ، تراجعتُ خطوتين فالتصقتُ بالحائط، لكنها كانت امرأة قوية، على رقَّتها، ومُستعدّةً لمنازلة أي رجل إذا اقتضى الأمر.

بعد أقل من عشر ثوان، كان بنطالي وكلسوني عند قدمَي. راحت تزن بأطراف أصابعها خصيتَيَّ وعضوي، وتقول: ولد والله ولد! حتى أن لك شيئا أفضل من ذلك الذي عند ...! لم تكمل جملتها، ثم قالت: البس ملابسك واتبعني للضوء!

سبقتني، فخرجتُ أجرّ أذيال هزيمتي وخجلي لأنني انكشفتُ عليها. كانت تجلس على كرسيّ من القش، تهزُّ رأسها وتُحدّث نفسها: لا أظن أن هذا المفعوص سلمان مثل ذاك الذي يقولون أن اسمه (شهربار)[2] الذي يتزوج فتاة كل يوم. ماذا يكون إذن؟ آها! فهمتُ، فهمتُ! تعال يا ولد، أُقعد.

جلستُ حيث أشارتْ، على التراب بجانب كرسيِّ القش الذي تتربع فوقه، وقد بدت مثل ملكة جبارة. كنت أخشاها في الحقيقة أكثر من أبي مرّتين!

أمسكتْ بأذني، وقالت: والله، سأخلعها لكَ، وأجعل ذلك الشيء ينخلع معها ويخرج من رأسك في نفس اللحظة! كم مرّة تتزوَّج نفسَكَ في اليوم؟! اعترفْ، وإلا سأقلع لك ذلك الشيء من جذوره!

للحقّ أرعبتْني، إذ لم أكن قرأتُ أو سمعتُ عن أن أُذني موصولة (به)

---

[2] - تعني: شهريار

من قبل! فصرختُ وأنا أتألم: ثلاث مرّات!

شدَّت على أذني أكثر وسحبتْها للخارج فأحسستُ بذلك الشيء يضمُر ما بين ساقيّ.

- أربع مرات!

وشدَّتْ أكثر فأحسستُ به يغوص ما بين خصيتَي، وبأذني تنفصل عن جسدي وتبتعد.

- خمس مرات، والله خمس مرات، أو ستّ مرات!

توقّف ضغطها على أذني، وما إن تركتْها حتى رحتُ أضغط عليها لتعود إلى مكانها ليعود ذلك الشيء بدوره إلى مكانه!

كنت أريد أن أمدَّ يدي لكي أتأكد من أنه عاد، ولكنني خشيت أن تصرخ بي موبِّخة: ماذا تفعل يا قليل الحياء؟!

هدأتُ قليلا، حاولتُ النهوض، ضغطتْ على كتفي وألصقتْني بالأرض ثانية، فبقيتُ هناك قرب أقدامها، قبل أن أسمعها تتنحنح.

استرقتُ نظرة إليها، وخُيِّل إليَّ أنها كانت تبتسم. وضعتْ راحتها على رأسي وغرستْني كشتلة في التراب!

لا أعرف كم مرَّ من وقت وأنا على تلك الحال التي ما كان يمكن أن تستمر إلى الأبد. رأيتُ أصابعها الغليظة تقترب من وجهي وترفعه: أنظر إليَّ، عليك أن تعرف أنكَ أصبحتَ رجلا، لكن ما تفعله سيدمِّر حياتك، ستُفرِغُ ماءَ الحياة الذي في داخلك بسرعة! وحينها تتزوّج، لن يكون لديك ما يكفي لإنجاب أولاد! فهمتَ. خمس مرات في اليوم! ما هذا، لو كنت تغرفُ من نهر لانتهى ماؤه. مثل هذا الماء الغالي لا يُفرِّط الإنسان فيه هكذا. فهمت؟!

- فهمتُ!

وتحسستُ بطني محاولا أن أعرف ما تبقّى داخلي من هذا الماء الذي

تحدَّثتْ عنه!

***

بعد تفكير طويل تأكّد لي أنني لم أنس تلك الحادثة إلا لأنها الأكثر إذلالا لي في مرحلة مراهقتي، وبخاصة بعد أن تبيّن أن أذني لم تكن موصولة مباشرة مع ذلك الشيء! وأن ماء الحياة فيَّ يتجدّد كما يتجدّد ماء النهر الذي يصبُّ في بحر!

***

تخيلتُ نفسي أقول كلاما كهذا في واحدة من السهرات، تخيلتُ نفسي وقد صرتُ نكتة لمجموعتنا الصغيرة التي بتُّ أُطلِق عليها، تشبُّها بالتكتلات الاقتصادية الدولية: مجموعة السبعة الكبار! هؤلاء الذين سمعتهم يتبارون فيما بينهم بقصصهم الرائعة التي عاشوها في الفترة نفسها التي كانت فيها أمي ممسكة بأذني وتشدّها.

مرحلتي الثانوية، كانت أشبة بمرور في أراضي سيبيريا! في ذلك الوقت الذي لا تغرب فيه الشمس، بيضاء وبيضاء وبيضاء! أما الجامعة فقد خالط بياضها بعض السّواد الذي انتهى سوادًا أعمى، فبعد أمنيات كبيرة عاشت في قلبي ثلاث سنوات، وأنا أطارد فيها تلك الزّميلة الفارعة ذات الشعر الأسود الطويل، تبين لي أن كل ما فعلتُه كان ركضًا خلف سراب!

اقتربتْ مني وأنا منهمك في تسجيل علامات سنتي الثالثة المعروضة خلف ذلك الصندوق الزّجاجي، وقالت لي: مبروك!

التفتُّ وكان عليّ أن أُصعِّد نظري إليها، لأنني وجدت نفسي معها وجهًا لنهدٍ!

قلت في نفسي: فُرجتْ أخيرا، أحببتَ فصبرتَ فنلتَ فتزوجتَ!

- شو هادا سلمان، مسحتْنا كلنا! عيني عليك شو ذكي! عيني عليك

شو بتلقطها ع الطاير! عيني عليك شو فهمان! كل علاماتك ، تعي (ميمي) شوفي بعينك علامات أبو السُّلُم!

قلتُ في نفسي: أخيرا! وأخذتُ نفسًا عميقا. تخيَّلتها في ثوب الفرح إلى جانبي، وصوت مُحرّم فؤاد يصدح:

من كم ليلة من كم يوم..

واحنا بنستنّى هاليوم؟!

وارتفعتْ حرارتي حينما أمسكتْني من يدي، وجرَّتني خلْفها إلى أقرب مقعد أمام مبنى الكلية!

حطَّتْ طيور قربنا وطارت، وتحوَّلت العصافيرُ الثلاثة أو الأربعة، في عينيَّ، إلى رفّ! بل تحوّل كل عصفور منها إلى رفٍّ!

- سلّومة حبيبي! لازم أحكي معك بصراحة!

قلت: ها هي تبوح أخيرا بحبها، وتنهار أمام أسوار نهاية السنة الثالثة!

- سلّومة حبيبي، لا أحبّ أن أخدعك، أنا حاسّة بمشاعرك من أول محاضرة شفتك فيها، وأعترفلك إنك أصدق شاب شفته في التلت سنوات اللي مرّوا. لكن قلبي هو المشكلة، لأنه في مكان تاني! ومشكلتي معك متل مشكلة كتير من البنات: إللي بحبِّك كتير بيكون طيّب فعلا، لكن ما بتحبيه! واللي بتحبيه كتير بيكون لئيم وبيطلع في النهاية نصّاب!

- يعني بتحبّي عليّ!

- أعوذ بالله! شو هادا الحكي سلُّومة، أنا بحب غيرك! مستحيل أبدا إني أحب عليك!

- ما فهمت!

- سلّومة، أنا جيت اليوم على شان أطلق سراحك! إنت حُرّ مني ومن حبك إلي، طِيرْ، حلّق، حِبْ واحدة تانية، لا تضيّع السنة الرابعة

هيك في الوهم على واحدة ما بتستاهلك!

وأشارت بيدها في حركة نصف دائرية: شايف كل ها البنات إللي حوالينا، كلهم بتمَنُّوك!

نظرتُ أمامي فلم أر أي فتاة! ونظرت إلى حيث كانت تجلس بجانبي، فلم أجدها!

***

هذه هي ذكرياتك يا سلمان، يا سلمان بيك، فتفضَّل وجُدْ على السامعين بها، وأنظر كيف ستتحوّل إلى مسخرة؛ أنظر كيف ستنخسف هيبتك، للحضيض!

- لكنني متأكِّد من أن لديّ ذكريات كثيرة، ومغامرات، ولكنني نسيتها!

- سلمان، أنظر إليَّ، نعم إليَّ، وليس إلى أحد غيري، لا أريدك أن تواصل ترديد عبارة (إنني نسيت! أنسى!) حتى أصبحتَ تنسى تماما! اعترفْ أن لا ذكريات كبيرة لك، ما العيب في هذا؟! ظروفك، أعني ظروفنا كانت صعبة، ولم نستطع في غمْرة انهماكنا في تحقيق أهدافنا الكبرى أن نكوِّن ذكريات من تلك التي يُفاخر بها المراهقون! ثم ها أنت ترى، لقد تحوَّلتَ إلى أكبر دون جوان سمعوا بمغامراته، ما إن أخبرتهم بحكايتك الرائعة تلك على الشاطئ التونسيّ! ثم، ولكي أريحك أريد أن أسألك سؤالا واحدا: حينما تحتاج إلى سيارة فارهة، هل تجلس لتَصنعَها أم تذهب لشرائها من أقرب وكيل سيارات؟!

- أذهب وأشتريها من أقرب وكيل سيارات بالطبع!

- والحكايات الجميلة أيضا هكذا، سلمان، ليس هناك مبرر لكي تَحفى قدماك وأنت تطارد بنتًا تستحقُّ، أو لا تستحقّ، لتصل إلى نتيجة واحدة يتمناها الجميع: النوم معها! فها أنت تشتري الحكاية التي تريد،

أجمل حكاية تريد، وتنـام في النهايـة مـع مَـن تريـد، مـع مَـن أردتَ! ثـم أُحلِّفكَ بأغلى ما لديك: أنا! أليست ديانا أجمل ألف مرّة من تلـك التـي لوَّعت قلبك ثلاث سنوات، واختفت كما تختفـي الكائنـات الفـضائية في أفلام الخيال العلمي؟!

- أجمل.

- خلاص إذًا، لا أريد أن أفتح معك هذا الموضوع مرة ثانية. اتفقنا.

- اتفقنا.

السعادة السرّيّة!

بعد سهرة طويلة أمضاها خارج البيت، امتدّت حتى الثالثة صباحا، أحسستُ بسلمان يندسُّ إلى جانبي، توقَّعتُ خطوته التالية، لكنه كان منشرحًا، إلى حدّ أنه لم يخطُها!

أثار ذلك استغرابي، بخاصة، حين رأيته بعد خمس دقائق ينهض ويغادر السرير ويقفل الباب خلفه بهدوء.

لا أعرف إن كان ظنّ أنني نائمة أم لا.

في الصباح تأكّد لي أنه كان منشرحا فعلا، إذ انطلق يتحدّث في أشياء كثيرة دفعة واحدة! وبعد أقل من رُبع ساعة، وبينما كنا نتناول الإفطار، بدأ يتحدّث عن ذكرياته، وبصورة فجّة بسَط لي حقيقة أنه أحبني أكثر مما أحب أي امرأة أخرى، وحدّثني عن مغامرة له خاضها في تونس قبل سنوات طويلة! وما قاله لتلك الفتاه التي فوجئ بجمالها في ذلك الفندق، وكيف أمضى معها أياما جميلة قرب البحر، في بيت أصدقاء لها، ووعدني أن نذهب إلى البحر، أن ننزل في فندق قريب منه، لنسمع صوت الأمواج العالية تتلاطم في الخارج ونحن (نُحلِّق) -وهذه هي الكلمة التي استخدمها-.

حاولتُ أن أتذكّر عدد المرّات التي كنا فيها معا في فنادق بجانب البحر، بل في البحر نفسه، من أوروبا إلى الإمارات، مرورا بالإسكندرية والغردقة، والعقبة بالطبع، وكيف كان يفرّ بعيدا عني، إلى أن صرَّح لي

مباشرة أنه لا يستطيع النوم معي في غير سريرنا، في البيت.
غريب كيف نسي ذلك كله!

***

بعد أسبوعين، أقيمت سهرة في الجناح المجاور لجناحنا، وأتى إليَّ بقصة أخرى. كان يصرُّ على أن يتحدّث في أدقّ التفاصيل التي تجرح المرأة حتى لو كان الزوجُ عاش تلك الحكايات قبل ميلادها!

عند منتصف ليل ذلك اليوم، فتح باب غرفتي، كنتُ مسترخية في السرير أراجع ملف قضية تشغلني، تلفتُّ وإذا به يقف عاريا أمامي. فوجئ بدوره فتراجع، لكن تلك اللحظة كانت كافية لكي أعرف كم كان ضئيلا ولزجا مثل حيوان تم سلخ جلده وهو لم يزل بعد على قيد الحياة!

قدَّرتُ، أنه حسبني نائمة، وأن الضوء مطفأ، وأن استعداداته تلك ستختصر كثيرا من الوقت -كان يُنظِّر دائما في أهمية الوقت، وما يعنيه من نقود-. لعله سمع ما قاله ذلك الاقتصادي الكبير الذي سألته المذيعة في نهاية اللقاء التلفزيوني: هل تستطيع أن تخبرنا بحجم ثروتك؟! فابتسم لها وقال: قبل أن يبدأ حوارنا أم الآن وقد شارف على الانتهاء؟!

كان سلمان مهووسا بحجم ثروته، وتزايدها، بحيث يمكنني القول إنه قد تحوّل كلّه إلى حاسبة إلكترونية عملاقة، قادرة على إعطاء النتائج بدقة لا تُهمل أعشارَ الفِلس!

كنت أعتقد أنه دقيق في هذا المجال، لأنه هوسه، إلى أن فوجئت بأشياء أخرى تهمّه لم تخطر ببال!

***

عاد وطَرَق الباب ثانية، فقلت له تفضل! فطلب مني أن أطفئ الضوء، فأخبرته: إن كان لا يريده مضاء فليطفئه بنفسه!

كان يرتدي روبا حريريا مورّدا بزهور ليلكية وزرقاء وبيضاء كبيرة، اشتراه من الصين لي، لكننا عندما وصلنا إلى عمان، أعجبه، فقرر الاحتفاظ به لنفسه!

مُربَكا كان، إذ كيف يمكن أن يقفز فجأة عليّ! وفي يدي ذلك المِلف. سألني، وقد أصبح في السرير: قضية كبيرة؟!

- كبيرة ومأساوية! أجبتُ دون أن أرفع عيني عن الصفحة التي أمامي.

- هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟ أنا حاضر دائما!

- أشكرك، فالأمور المأساوية باتت من اختصاصي!

- لم تقولي لي، كيف الكورولا معك؟

- ممتازة! وتساءلت: ما الذي ذكَّره بها الآن؟!

- أترين! نصحتكِ وكانت النصيحة صائبة، كم سنة مرّت على وجودها معك؟!

- لا أعرف، منذ أن دخلتَ الوزارة، وانظر كم سنة مرّت على تركك لها! سنوات!

- فعلا الزمن يمرُّ بسرعة، تعرفين! لولا إحساسي بأنك بتِّ متعلِّقة بها، لقلتُ لكِ لماذا لا نبيعها ونشتري لك لاند كروزر، بل ربما باستطاعتنا أن نشتري اللاند كروزر من الذي بعناه إياه! فمدير مكتبي، لم يتغير، ويستطيع أن يتصل بالشاري ويشتريه منه!

- لا ضرورة لذلك، الكورولا تكفي، وفي النهاية، كلّه تويوتا! لكن ما أفكر فيه فعلا هو السفر، أحب أن نسافر؟!

- هذه الأيام لا أستطيع، الأشغال أعلى من رأسي!

- يمكن أن أسافر وحدي!

- كيف؟! هذا لا يجوز، ثم إنك لن تستمتعي بالسفر وحيدة، يجب

أن أكون معك!

***

مسألة السفر باتت بوابتي للخلاص، كما قلتُ، فهو حين يراني مُصرَّة على السفر وحدي، يضطرُّ أخيرا إلى مرافقتي؛ وحين يسافر لتوقيع اتفاقية أو لعقد لقاء، لا يسمح أبدا أن يتركني خلْفه! ومع الأيام اعتدتُ على ذلك، فما دمنا بعيدين عن عمان، فهو بعيد عني!

***

أطرف ما سمعته حول سفرنا المتواصل، ما همستْهُ في أذني زوجة مسؤول كبير لا يغيبُ وزوجته عن أي حفلة أو عشاء كبير: تعرفين ديانا، من يراكما هكذا تتنقّلون من بلد إلى بلد، يحسُّ بأنكما ما تزالان في شهر العسل!

ضحكتُ كثيرا، بصوت عال، بل فاضح، فالتفتَ الجميع نحوي، مسحتُ دموعي واعتذرتُ، وحين التقتْ نظراتي بنظرات سلمان، مرَّت تلك المغامرات التي أصبح يحدثني عنها خطفًا أمامي، وقلت لعل الرجال كلهم هنا قد سمعوها منه، في سهراتهم الضيّقة أو الواسعة؛ لكن ما حيرني هو كيف تذكَّرها هكذا فجأة، فأصبح يرويها ويعيدها، كما لو أن أكثر ما يخشاه هو نسيانها؟!

نصرٌ مهزوم!

انتظرتُ تكليفي بالتدريس حتى بداية الفصل الثاني؛ كان الانتظار صعبا، رغم أن انشغالي بكتابة حكاياتي وإرسالها إلى سلمان بيك، أخذت حيزا واسعا، وإذا كان لي أن أعترف هنا، فقد أشفتني من جروح كثيرة، لأن مجرَّد الانغماس في كتابتها كان يمضي بي إلى عالم آخر، وهو ما يجعلني أتخفَّف من ثِقل الحاضر.

في خسراني لهذه الحكايات إذًا فائدة ما آخر الأمر! يمكنني القول: إن التخفُّف من ثقل الحاضر هو الفائدة أو المكافأة التي لا تقلُّ أهمية عن ذلك النصر المهزوم الذي مثَّلته عودتي إلى التدريس من جديد!

خمس حكايات كبرى كتبتُها له، في غضون أربعة أشهر، وقد كنتُ وضعتُ قائمة بأهم ما مرَّ، وسجَّلتُ أسماء النساء اللواتي سأكتب عنهن؛ لم يكن عددهن كبيرا، صاحبات الحكايات التي يمكن أن تُروى؛ وفكرتُ: يريد عشر حكايات! لكنه عددٌ لا يستهان به، عشرُ حكايات حبٍّ لا تُنسى أمر غير قليل في حياة إنسان واحد، فكثير من الناس يموتون وهم يتمنّون أن يحظوا بواحدة، بل بنصف واحدة من الحكايات التي عشتها!

***

عودتي إلى الجامعة ظلّت مجروحة إلى حدٍّ ما، لأنني أصبحتُ أتساءل عما كان يمكن أن أجنيه من أرباح لو أنني كتبتُ هذه الحكايات بالفرنسية

ونشرتها؛ وأنا أعرف كتّابا عربا استطاعوا تحقيق نجاحات لا يمكن الاستهانة بها حين نشروا أعمالا، كانت أقل مستوى مما كتبتُ، في دار غاليمار وسُويْ وسواهما! وتخيّلتُ عنوان كتاب بالفرنسية (عشر حكايات حبّ لا تنتهي) أو (عشر عاشقات على ضفتي المتوسط)! فوجود (البحر المتوسط) في عنوان أي نشاط، كفيل بإثارة الحماسة وضخ الدّعم!

***

في بادرة، لم أفهم معناها، دعاني سلمان بيك لحضور واحدة من سهراته. كان وجود الدكتور رجب النّاصر أستاذ التاريخ، بين تلك المجموعة المنتخبة، هو المفاجأة الكبرى، لكنني أدركتُ بعد أقل من نصف ساعة أن دوْر الدكتور رجب قد حُدِّد قبل بدء السّهرة، إذ كانت لديه قدرة عجيبة على إدارة السهرات بخفّة دم لا تمتُّ لرجل غارق في صفحات التاريخ! في تلك السهرة كان التاريخ بحرا وهو يطفو على سطحه بخفّة قشة!

لا أعرف إن كان وصفي له مدحًا أم ذمًّا، لكن هذا ما أحسسته، ولم أكن راغبا في إمضاء السهرة مُحللا جملةً عابرة!

قاد الدكتور رجب المركب نحو الماضي، وهذا اختصاصه! وبدأ بنبش ذكريات الحضور السبعة المنتشين بحاضرهم وماضيهم، بعد أن أشاع جوّا من الألفة، بمساعدة ذلك النهر الدافق من الكحوليات المتنوعة، في الوقت الذي كان سلمان بيك يتلذّذ بصورة غير عادية بكوب الشاي الذي في يده!

بعد حكايات كثيرة لا أستطيع وصفها إلا بالسّاذجة، باح بواحدة منها رجل لا تفارق صوره الجرائد؛ وحكاية خائبة رواها مدير عام إحدى المؤسسات الثقافية الشهيرة، متعمِّدا -في ظنّي- أن تكون كذلك؛

ومتملِّقا، لكي لا يَسرقَ الضوء من حكاية سلمان بيك القادمة! طلب مني الدكتور رجب أن أُدلي بدلوي، فاعتذرتُ، لأنني لا أملك حكاية يمكن أن تُروى! أبدى بعض الحضور استغرابهم، وقال رجل هو الأكثر غموضا بين الحضور، يوحي بأنه رجل أمن: ما هذا يا دكتور، أتريد أن تُثبت أن شعوبنا كانت مخطئة حين قالت: ليس هناك أكذب من شاب تغرَّب، وعجوز ماتت أجياله؟! ضحكوا. أحسستُ أنه أفسد السهرة، لأن دور سلمان بيك لم يحِن، لكنه أضاف بحنكة: أقول هذا لأنني أعرف أن سلمان بيك لم يتغرَّب، ونحن نشهد، كمجايلين له، أن ما يقوله صحيح، بل ونبصم له بالعشرة!

ضحكوا، وقال الدكتور رجب: ها قد مهّد لك الأستاذ لكي تُسمعنا شيئا سلمان بيك!

نظر سلمان بيك إليَّ وبدا راضيا لأنني لم أتحدّث، وإن كنت أحسستُ أنه لم يرض عن مثَل الشباب والعجائز.

تمنَّع!

فقال الدكتور رجب: سلمان بيك لا تبخل علينا، كلّنا نعرف أنك لا تُحبُّ التفاخر، ولكننا ضيوفك، ويجب أن تُكرِّمنا بمغامرة من مغامراتك!

- فعلا لو كانت لدي حكاية لقلتها، قال، بمزيد من التمنّع!

- سلمان بيك. بيتُ السَّبعِ لا يخلو من الغزلان![3]

نظر إليه سلمان بيك، أخذَ رشفة كبيرة من كوب شايه، وقال: غلبتي دكتور رجب حين تلاعبت بكلمات المَثل.

- سمعًا إذا! سمعًا! سلمان بيك سيتحدث.

هبت عاصفة سرّية ما، كنستْ الكلام كلّه من أفواه الحضور ونظَّفتْ آذانهم!

---

[3] - أصل المثل: بيتُ السَّبعِ لا يخلو من العظام!

حكَّ سلمان بيك حنكه بطريقة ذكَّرتني كثيرا بحركة مارلون براندو في فيلم العراب! بل لعله شاهد الفيلم واختطف تلك الحركة منه أيضًا، كما اختطف حكاياتي! نظر إلى الأعلى، ما ذكَّرني بالعقيد معمر القذافي في حواراته التلفزيونية وخطبه، وتصفَّحَنا جميعا كما فعل آمرُ ذلك السّجن في أحد أفلام جورج كلوني، وهو ممسك بذلك الوليد العاري الذي أنجبته ابنته، ليقارن ملامح الوليد بملامح السجناء! أما المفاجأة فقد كانت صاعقة بالنسبة إليّ، حين قال: هذه الحكاية، بالذات، كتبتها، لأنها واحدة من أجمل الحكايات التي عشتُها، كنت أخاف عليها من ذاكرتي، فأنتم تعرفون أن أيَّ قصاصة ورق قادرة على التذكُّر أكثر منّا في النهاية! ولذلك اسمحوا لي أن نقرأ الحكاية بكل تفاصيلها!

أما المفاجأة الأكبر، فقد حدثتْ عندما أشار إليَّ يدعوني لأن أتناول الصفحات من يده، طالبا مني أن أقرأها!

- أنا؟! قلتُ.

- ومن غيرك يستطيع أن يفعل هذا، ألا يكفي أنك ضننتَ علينا بحكاية من حكاياتك؟!

حملتْ جملته من المعاني ما يكفي لكي أُذعن! وما كان لي إلا أن أُذعن؛ فقد ذكَّرني بحكايتي المشؤومة مع نُهى، ونال توقيعي على أن الحكاية فصل من فصول مغامراته، بحضور كل هؤلاء الكبار والصغار، وتأكّد من أنها ستُتلى بطريقة سليمة لأنني كاتبها وبطلُها.

كانت تلك، حكايتي مع طالبة من أم فرنسية وأب عربي حضرت إلى عمان لاستشارتي في موضوع رسالتها، الدكتوراه، التي ستقدّمها في باريس بعنوان (ابن خلدون وعلماء الاجتماع الغربيون)، كانت جميلة إلى حدّ مذهل، بعينيها الخضراوين وابتسامتها الواسعة التي تكشف عن أجمل صفّين من الأسنان رأيتهما في حياتي.

ولكي تلائم الحكايـة وضْـعَ وظـروفَ سـلمان بيـك أدخلـتُ عليهـا تغييرات كثيرة، لكنني سأستعيدها هنا كما حصلت، لأنني لفرط تحويري لها والتلاعب بأحداثها لم تعد هي!

أدركتُ أيامها أن أفضل وسيلة للوصول إليها أن أكون صادقا في توجهها ومناقشتها في كلّ كبيرة وصغيرة! ولم يكن ذلك صعبا على أي حال! فقد راحت تُجري مقارنة بيني وبين أستاذها المشرف على رسالتها في السّوربون. حدّثتني كم كان وقحا في تحرّشه بها، مؤكدة أن يوم تخرجها سيكون يوم خلاصها الحقيقي، وستفرح بذلك أكثر مما ستفرح بالدرجة العلمية التي ستنالها!

فكرتُ بما قالته، فوجدتُه يحمل وجهين: الأول أنها تمتدح أخلاقي! والثاني أنها ترى فيَّ رجلا يمكن احترامه إلى حدّ الدخول معه في علاقة!

تمسكتُ بخطتي أكثر، وبعد يومين دعتْني لأن نشرب شيئا، وحدَّدتْ لي فندق البريستول موقعًا للقاء.

حين وصلتُ، أدركتُ أنها اختارت المكان الأنسب، فمشهد عمان في السادسة مساء، تحت شمس الغروب، كان ساحرا إذا ما قورن بمشهدها في الظهيرة، حيث لا لون سوى لون الإسمنت!

تحدّثنا طويلا، وتجاوزنا ما هو أكاديمي إلى ما هو إنساني بيسر أدهشني. أخبرتني بأنها تودّ الزواج مستقبلا من شاب عربي، وربما فلسطيني: أنا أحبّ الفلسطينيين. أخبرتني أنها زارت نابلس وأفزعها الدمار الذي أحدثه الإسرائيليون بالبلدة القديمة عام 2002، وقالت: لا شيء مثل القدس، وروت حكايتها مع المدينة شارعا شارعا.

حدثتُها عن دراستي في فرنسا، والنهاية المأساوية لزوجتي

وطفلي، وخوفي من الارتباط من جديد لأنني غير قادر على أن أفقد حبيبا مرّة أخرى! وسيمرُّ وقت طويل قبل أن أدرك أنني لا أستحضر ذكرى زوجتي إلا لأنني قررتُ أن أوقع امرأة ما في حبالي!

كان لا بدّ أن يصل الحديث إلى القطط، حين تحدّثتْ عن قطتها (صوفي) التي تركتْها وراءها في باريس؛ فانتهزتُ الفرصة وحدَّثتها عن تعلّقي بعدد من القطط التي قُتلتْ أمُّها أثناء معارك عام 1970، وكنت قرأت الحكاية في رواية لكاتب من هنا! وكيف أنني حين عدتُ إلى بيتي المهدّم لأُحضِرَ بعض الأشياء اللازمة لنا في الملجأ، وجدتُ القطط الصغيرة العمياء ترضع من أمّها الميتة!

مسحت دمعتها وشتمتْ الحروبَ من طروادة حتى الحرب على العراق وأفغانستان.

***

حين وصلنا إلى المصعد، ووقفنا في انتظاره، نظرتْ إليّ كما لو أنها تراني بعد غيبة ألف عام، وقفزتْ، وإذا بساقيها حول خصْري. راحت تقبّلني بجنون، نسيتُ معه أننا في الممرّ! وحين سمعنا صوت الجرس الرقيق الذي ينبئ بوصول المصعد، أنزلتُها، خائفا أن يكون أحد في داخله.

لم يكن!

وعند ذلك جاء دوْري لأُقبِّلها قبلة فرنسية لم تنته حتى الطابق الأرضي.

***

ما فاجأني أنني كنت غارقا في الحكاية، وفي التفاصيل التي تلتْ ذلك: في سيارتي التي كانت متوقِّفة في الكراج المقابل لبوابة الفندق، ثم في شقتي.

باختصار. نسيتُ أنني أقرأ قصة من المفروض أن تكون قصة سلمان بيك! وهذا ما جعلني أحسّ بأنني استعدتُها فعلا! وعندما صفقوا بانفعال في النهاية، وقد استثارتهم أحداثها، أحسستُ بأنهم يصفّقون لي؛ ويبدو أن ذلك بدا واضحًا عليَّ وأنا أهزّ رأسي محييًا إياهم! لأنني حين استدرتُ وجدتُ سلمان بيك يحدّق فيَّ مكفهرًّا!

أدركتُ أنني نسيت دوْري واختطفتُ دوْره، فتداركتُ الأمر بسرعة، ونهضتُ بنفسي، ناولته القصة وأنا أقول بحماس يفوق حماس الدكتور رجب لِزُوْجَةً: ليسمح لي الجميع، لا يمكن أن يكون هناك دون جوان أفضل من سلمان بيك، وعدتُ إلى كأسي، رفعتُها، داعيا إلى شُرب نخبه!

عند ذلك فقط، ابتسم لي، وعلَّق: كنت رائعًا، إلى حدِّ أنني أحسستُ بأنني لم أعد موجودا بينكم، بل كنت هناك! أتعرفون ما أقصد بـ (هناك)؟

- في صحة (هناك) إذًا، صاح أستاذ التاريخ!

***

كنتُ مطمئنا إلى أن هناك رصيدا كافيا من الحكايات لديّ، لكن قلقا ما تسرَّب إلى قلبي، طعنة ما تسرَّبت إلى قلبي!

نصف جبل!

لم أنزعج في حياتي كما انزعجت في ذلك اليوم الذي اتّصلتْ فيه حماتي، وطلبت مني أن أزورها لأمر مُلحٍّ.

صحيحٌ أنها حماتي، وديانا أغلى ما أملك! ولكنني لم أمنع نفسي من أن أحسّ بأنها تستدعيني رغما عني، وأنها تتعامل معي كما لو أنها نسيتْ من أكون!

قلت لها: سأنتظرك في بيتنا.

- الكلام الذي سأقوله لك، سلمان، لا يقال في بيتكم، بل في بيتي!

- هذه الأيام لا أستطيع، سأرتِّب مع ديانا ونزوركم يوم الجمعة القادم.

- من الآن إلى يوم الجمعة يموت أناس ويحيا أناس! ثم إنني أريد أن أتحدّث معك وحدك، ولو أردتُ التحدّث مع ديانا لاتصلتُ بها.

- إذا، سأزوركم الخميس!

- الخميس! الخميس! لا حول ولا قوة إلا بالله!

حين عدتُ إلى المنزل لم أجد ديانا، كانت الساعة قد بلغت التاسعة مساء، اتّصلتُ بها، فأجابتني هامسة إنها تحضر فيلما عرضًا من عروض أسبوع الأفلام الأوروبية في المركز الثقافي الملكي.

- متى تعودين!

- حين ينتهي الفيلم! وأقفلت الخطّ.

***

بعد أقل من ساعة، سمعت الباب يُفتح، نهضتُ، وقبل أن تلقي بمفاتيحها في تلك السّلة الصغيرة بجانب الباب، سألتُها: ما الذي تريده أمُّك مني؟!

- حسبتُ أنك ستسألني عن شيء أعرفه! الفيلم الذي حضرته!

- أنا لا يعنيني الفيلم، يعنيني طريقة أمّكِ في الاتصال بي، ولهجتها التي كانت مثل لهجة من سيرسل إليَّ شرطيّا لإحضاري بالقوة إن لم أذهب وحدي!

- لأنها لم تخبرني بما يدور بينكما، ولأنني لا أعرف ماذا تريد، فإنني لا أستطيع التعليق على الأمر. قالت بهدوء شديد. وأضافت: أقترح أن تزورها، هل حدّدتما موعدا، أم أتّصل بها لأحدّده؟!

- حدّدته بنفسي!

***

لم أكره شيئا في حياتي مثلما كرهتُ وما زلتُ أكره التدخّل في خصوصيات أسرة ما، منذ أن زوّجتني أمي من ابنة جيراننا، أو ابنة أختها، كما تصفها. لقد تعلّقت أمّي بتلك المرأة التي وصلت إلى ضواحي عمان بعد حرب حزيران 1967، واعتبرتها الأخت التي لم تلدها أمّها.

***

فتحتُ عيني صباح اليوم التالي لتخرّجي، وإذا بأمي تجلس فوق رأسي: وجدتُ لك العروس التي لن تجد مثلها أبدا.

- من؟

- ابنة أختي مريم.

- ابنة جيراننا، نورة؟!

- أجل، نورة ابنة أختي مريم.

- نورة؟! ولكنها لم تزل طالبة!

- ستتخرج بعد سنة. ما رأيك؟

لا أنكر أنني كنت قد يئست تماما من العثور على فتاة تحبّني كما أحبها، ولم أكن واثقا من أنني سأستطيع النجاح في هذا بعد تخرّجي، أنا الذي أضعتُ أحلى سنوات العمر، السنوات الفرصة، السنوات التي لا تتكرّر، وأنا مُعلَّق بحبال الهواء المحيطة بتلك الفتاة الطويلة، الفتاة التي انتهزتُ كل الفرص كي أكون قريبا منها، إلى حدّ إقدامي على الانتماء لتنظيم سياسي نشط في الجامعة، لأنني علمتُ أنها من مؤيديه، وخسرتها أيضا؛ وأوشكت أن أخسر الجامعة بسبب ذلك الانتماء لفرط حماستي واندفاعي، بل تهوّري!

وافقتُ، حين مرّ وجه نورة أمامي، نورة الفتاة الخجلة التي كان يمكن أن أفكّر فيها، لو لم أقع في حبّ تلك الزميلة الطويلة. وكدتُ أن أتحوَّل إلى مُطالب بالزواج من ابنة جيراننا، بعد أن قالت لي أمي تلك الجملة الرّهيبة: أم أنك أفسدتَ ذلك الشيء بأعمالك! ولو قلتُ لها: لا أريد الزواج، لن يكون مستغربا أن تمسكني من أذني وتقرّعني كما قرَّعتْني في ذلك اليوم البعيد!

لا أنكر أنني لم أعُد أطيق البقاء في الداخل: داخلي، أكثر مما بقيتُ، فقلتُ في نفسي: لمَ لا، أبي لديه ما يكفي ليزوّجني وينفقَ عليّ وعلى زوجتي، وبعد ذلك فليحلّها الحلّال! ثم إن نورة شبه يتيمة، وأستطيع التخلّص منها، متى أردتُ!

هل كنت أُبيِّتُ نيةَ الطلاق منذ ذلك اليوم؟! ربما! لا بدَّ أنني كنت أخطط لهذا دون أن أنتبه، في غفلة عن نفسي! وهكذا، ما إن تكاثرتْ خلافاتنا، بسبب عدم وجودي في المنزل إلا للنوم، وامتدتِ النارُ إلى أطراف ثوبِ أمي وثوب أختها، (حماتي)! انتهزتُ فرصة أول خلاف بين

الأختين! لأضرب نورة بصورة مبرحة تجعلها لا تفكر بـالعودة إليّ حتـى لو رجوْتها أن تعود! وأعلنتُ على الملأ أنني لن أقترب ثانية منها، انتصارا لأمي التي أُهينـت! مـع أنـني أعـترف الآن، بـأن ذلـك الخـلاف لم يكـن السبب، بل أنا السبب، وما كان يشغلني ويضغطني هو السبب، منـذ أن وجدتُ نفسي وجها لوجه مع نورة في السرير!

كم فوجئتُ بكونها قصيرة وهي مـستلقية! كانـت أقـصر ممـا يجـب، رغم أنها في الحقيقة لم تكن أقلّ طولا مني!

هل كرهتُ قِصَرَها لأنه كان يذكرني يوميّا بهزيمتي أمام تلك الجميلة الفارعة، التي انتهت زوجة لواحد من رؤسـاء تحريـر إحـدى الـصحف يكبرها بسبع وعشرين سنة؟ هل كرهت قِصَرها لذلك السبب؟

يبدو أنني فعلتُ.

الغريب، أنني في أقلِّ من ثلاث سنوات أنجبت من نورة بنتا وولـدا: ردينة، وخالد -كنت واقعا في حب أبي خالد، جمـال عبـد النـاصر-، أمـا الأغرب، فهـو أنـني لم أذهـب مـرّة إلى بيـت أمـي، بعـد الانفـصال، إلا ووجدت أميَ مع حماتي السابقة، تتضاحكان كطفلتـين. ومـا إن تـراني أم نورة حتى تلملم شتات ابتساماتها، كما يلملم المرء ما تطاله يـده بـسرعة، حين تداهمه حرب!

***

تلك الفاتنة الفارعة، حبيبتي في الجامعـة، عرفـتُ عنوانهـا، ولم يكـن هنـاك عنـوان أوضـح مـن اسـم زوجهـا! كانـت سوسـو قـد تعلّقـتْ بالصحافة، ناسيةً القانون الذي لم تحفظه أصلا، ولم يكـن صـعبا أن تعثـر على مئات الصحفيين الـذين يمكـن أن يـشجِّعوها بقـوة عـلى احـتراف العمل الصحفي! لكن، ما إن رآهـا الـسيد رئـيس التحريـر، حتـى غـدا المُشجِّع الأكبر! وتقديري أنها فرحتْ بتشجيعه، لأنّ ذلك التـشجيع هـو

الطريق الأقصر للصفحة الأولى!

دعوتُهُ بعد أن دخلتُ الوزارة، وكان من ذلك الصِّنف الـذي يتباهي كثيرا بوجوده في حضرة وزير، لكي يعود إلى الصحيفة كطاووس، مُطْلقا تحليلاته التي يُشرِّح فيها أحوال الشرق والغرب وما بينهما، مدَّعيا أنه علِم من مصادر عُليا! يحلّل ويستفيض، ويُحجِم، بالطبع، عن ذكر اسم مصادره بسبب خطورة هذه المعلومات! وينشر ما يفترض أنه سمعه ببساطة تفوق حديثه عن إصابة ابنه بالرّشح!

كل ما يمكن أن يُرضي غروره فعلتُه، لأتمكَّن من رؤية تلك الفارعة! ولم يكن هناك شيء يمكن أن يُسيِّل لعاب غروره أفضل من دعوته، هو وزوجته، لتناول طعام العشاء معي ومع ديانا! ولكي أغرِّر به أكثر، عاملته كصديق وأنا ألفظ اسم زوجتي أمامه، دون أن أكون مضطرّا لأن أقول: أدعوكما أنا والمدام لعشاء صغير بعيدا عن فوضى الحفلات المكتظة!

شكرني، بل شكرني بشدّة، وقال: معاليك يُحدد الوقت، ونحن سنكون هناك!

إلى هنا اكتفيتُ بالتّعامل المباشر معه، إذ إنني أعطيته أكثر مما يستحقّ! أعرف هذا، ولذا تركتُ مدير مكتبي يتحدّث معه في اليوم التالي ويخبره بمكان العشاء وزمانه!

***

لم أستطع كبح جماح نفسي، كبح جماح ذلك الشّاب المهزوم فيَّ، الذي تلقى ضربة قاصمة طرحتْه أرضا ثلاث سنوات جامعية كاملة، وأمضى السنة الأخيرة وهو يحاول النهوض بجنون!

وجدتُ نفسي أذهب إلى الموعد قبل نصف ساعة، لأنني كنتُ على يقين من أنه سيأتي قبل ربع ساعة، وهذا ما حصل! كنت أريد أن أراها

بعد كل هذه السنوات مُقبلةً، تتمايل مختالـةً كـما كانـت تتمايـل أمـامي في الجامعة، مُقبلةً كانت أم مُدبِرةً، وفي الحالين: آه!

انتخبتُ ذلك المقعد المطلّ على الباب الرئيسي للمطعـم، وبعـد ربـع ساعة طويلة، مُرهِقة، أطلَّ رئيس التحرير، ورأيتُ امرأة بجانبـه لم أتبـيّن ملامحها، كانت ضخمة إلى حدٍّ لا يصدَّق، فقلتُ: يا للهول، هل أحـضر زوجة أخرى؟! لكن الأمر اتّضح بعد عشر خطوات.

وقفتُ شبه مصعوق. صافحتُه أولا، كما كنـت قـرّرتُ، لكـي تظـلَّ يدي في يدها أطول مدّة ممكنـة! وقـد ظلّـتْ فعـلا، ولكـن رسـالة يـدي المصافِحة لها قد تغيّرتْ، فبـدلَ أن تحمـل لهـا ذلـك الـشوق الـذي كـان يعصف في داخلي كزوبعة، حمل لها رسالة أخرى تماما: هـا أنـتِ عـلى مـا أنتِ عليه الآن، أين طولكِ الذي كسرتِ به قلبي؟! وأين رشاقتكِ؟!

لا أبالغ إذا قلت، بأنني حمدتُ الله لأنني رأيتُ ما آلت إليه!

جلسا. اعتذرتُ لهما لأن زوجتـي لم تـستطع القـدوم لوعكـة صـحيّة مفاجئة! فراح رئيس التّحرير يدعو لها بالشفاء وكأنه في مكة يدعو لروح أمه! أما هي فلم تتمنَّ لها شيئا، بل لم تجاملني حتـى بكلمـة، كـأن تقـول: سلامتها!

كان صحفيّا مثاليّا، فهو يتحدّث أكثر ممـا يَـسمَع! ليـوحي لـك بـأن مـصادره واسـعة؛ ويعمـل المـستحيل لكـي يُحلـل وقـائع دوليـة ومحليـة واضحة، لا تحتاج إلى تحليل!

أراحني هذا في الحقيقة، أما ما أراحني أكثر فكان وجودي أمام تلـك الفاتنة التي تحوَّلت إلى نصف جبل! وبلغتْ بي الـشماتةُ حـدّ تخيُّـل أنـه لا يأخذها معه إلى أي مكان، ولو لم أقل إن ديانا قادمة لما أتى بها!

الجولة الثانية من لقائنا، الذي بدوتُ فيه مُنشرحا أكثـر مـن الـلازم! كانت حول الجامعة، والدراسة؛ وكم فوجئ رئيس التحرير حين قلتُ له

إنني درَستُ في الجامعة الأردنية. التفتَ إليها وقال، محاولا التبسُّط: مش معقول! سوسو درَستْ في الأردنية! واشتعل حماسه مرّة أخرى وهو يقول: سأفاجئ معاليك أكثر: لقد درستْ سوسو القانون في الأردنية أيضا، لكنها فضَّلتِ الصحافة، وحين تعرفتْ إليّ فضَّلتْني على الصحافة والقانون! وراح يضحك، لكن ضحكته انكمشتْ فجأة!

- صحيح؟! وجَّهتُ سؤالي إليها، وأنا أحاول ما استطعت إتقان دوْر من فوجئ فعلا.

- صحيح!

وهنا وجَّهتُ لها الضربة الثانية التي لا تستطيع ردَّها: في أيِّ سنة تخرّجتِ مدام؟!

كظمتْ غيظها، وقالت: 79، وأوضحت والأرقام تخرج مجرَّحة من بين أسنانها: 1979.

- عجيب، وأنا تخرّجتُ في ذلك العام أيضًا!

- العجيب ألّا تكونا قد التقيتما وأنتما خريجا الدّفعة نفسها. قال رئيس التحرير!

- فعلا عجيب!

- ربما لأنها تغيَّرتْ قليلا، لم تعرفها! قال زوجها!

- مهما تغيّر الإنسان من الصعب أن تتغيّر ملامحه، وبخاصة حين نتحدّث عن فتاة جامعية، أي أن عمرها في تلك الأيام كان اثنتين وعشرين سنة، ثلاثا وعشرين على الأكثر! أقول هذا لأنني في الحقيقة فخور بذاكرتي البصرية، ولو كنتُ التقيتُها لتذكَّرتُها فور دخولكما!

***

نهاية العشاء كانت متوقَّعة تماما، فما إن دفعتُ الحساب حتى قال رئيس التحرير: يُشرِّفنا دعوتكما أنت والمدام قريبا جدا! اليوم هو السبت،

ما رأيك أن نلتقي الخميس القادم، وعلى هذه الطاولة بالذات!

- شكرتُه، وقلت: لنُعطِ ديانا مُهلة لكي تتعافى! أقترح أن تهاتفني صباح الأربعاء، فإذا كان وضعها الصّحيّ يسمح، فهو كذلك، وإلا، سنتفق على يوم آخر في الأسبوع التالي.

- اتفقنا؟

- اتفقنا!

وفي انتظار إعادة بطاقة الإكسبرس، سألني ذلك السؤال الذي كان يمكن أن يكون مبالغا في حشريّته: هل تسمح لي أن أسألك سؤالا خاصًّا؟

- بالطبع، فبيننا خُبز وملحٌ ومياه معدنية أيضا!

- المدام مسيحيّة؟

ضحكتُ، وبالغتُ في الضحك: لا، ليست مسيحية، ولكن أباها رجل مثقّف ومُولع بالأساطير، أسماها ديانا على اسم إلهة القمر والصيد والغابات عند الرومان القدماء!

افترقنا، وأنا أُعِدّ العدّة لرسم سيناريو اللقاء المقبل.

***

في اللقاء التالي، حرصتُ على أن نتأخر، أنا وديانا؛ وكنوع من الأدب، اتّصلتُ به، وقلتُ: سنتأخر على الأكثر نصف ساعة!

قلت في نفسي: سأُلوِّعها كما لوَّعتْني!

كنت على يقين من أنها ستأتي، فالفضول قاتل! وقلت: لعلها تُمنِّي النفس في أن ينطبق على إلهة القمر والصيد والغابات تلك، ما ينطبق على المُعيدِّي (تسمع بالمُعيدِّي خير من أن تراه!)، ولعلها قالت: أنا على يقين من أنها ستكون أقصر منه وأبشع منه، مؤكِّدة يقينها بذلك المثل اللئيم: الطيور على أشكالها تقعُ!

في التاسعة والنصف وصلتُ أنـا وديانـا. كانـت تجلـس في مواجهـة الباب كما توقعتُ تماما، ورئيس التحرير إلى جانبها.

لم يكن صعبا عليَّ أن ألاحظ أيّ صاعقة تلك التي نزلتْ على رأسـها، إذ تجمّدتْ عيناها على جسد ديانا الذي يموج إلى جانبي مثل إلهة الغابات فعلا، بذلك الفستان المُشجَّر الذي طالما أحببته، وبكعبها نـصف العـالي، الذي يشدُّ قامتها ويحوّلها إلى رمح، بل إلى سروة خضراء يانعة!

تصافحنا، وحرصتُ على أن تجلس ديانا قبالتها!

في الحقيقة، كانت نتيجة المباراة قد حُسمتْ منذ دخولنا بوابة المطعم، ولكنني قلت: لا بأس بشوط إضـافي! مـع علْمـي أن ذلـك لا يحـدث في ملاعب كرة القدم بعد أن تنتهي المباراة بفوز أحد الفريقين!

انطلقتْ ديانا تتحدّث عن الأفلام التي شاهدتْها مـؤخرا، والنـدوات التي حضرتْها، والكتب التي قرأتْها، مُبالِغة في تعداد أسماء الكتب العربيـة والأجنبية، وأنا على يقين أنها لم تكن تدّعي، بل كانت تريد أن تملأ حفـرة الصمت التي تفصلها عن مدام سوسو. في الوقت الذي راحت فيه مـدام سوسو تتضخّم وتتضخّم كأنها موشكة على الانفجار.

ببلوغ مدام سوسو ذلك الحدّ، استأذنتُ منهما: لأن هناك اتفاقية دوليّة مهمّة، يجب أن أدْرسها الليلة، قبل التوقيع عليها غدًا!

نهضنا. امتدَّت يدي، صافحتُ زوجها أولا، ثـم صـافحتُها؛ وبتلـك المصافحة التي تعمّدتُ أن تطول، وأنا أفرط في الحديث عن روعة السهرة وضرورة اللقاء قريبا، في تلك المصافحة الطويلة، أوصلتُ لها مـا لم يكـن وصلها من حروف الرسالة الأولى!

الأصابع المضمومة.. خوفًا!

اتصلتْ أميَ بي وقالت: الرّجل ناوي شرّ! بعد زيارة قام بها سلمان إلى منزل أبوَيَّ، زيارة لم تستغرق أكثر من عشر دقائق.

سألتها: ماذا حدث؟! فقالت لي: إنها كانت مضطرّة أن تحدِّثه بشأني، صحيح أنكِ، ديانا، لا تتحدّثين، ولم تبوحي لي بشيء، ولكن التعاسة التي تطلُّ من ملامحك لا تستطيع أن تخفيها أسوار قصْره، ولا الطائرات وتذاكر السفر التي تحملكِ من بلد إلى بلد!

- هل شكوتُ لك لتفتحي موضوع سعادتي وتعاستي معه؟!

- حين يتعلَّق الأمر بقلب ابنتي وروحها، وأهمية أن يكون لها أولاد مثل بقية الخلْق، لا أكون مضطرة لطلب الإذن من أحد، حتى منكِ! حين تكونين غير قادرة على فتح فمك، يصبح الأمر متعلّقا بي وبأبيك! ثم إن كلاما كهذا كان يجب أن أقوله لك في ذلك اليوم الذي جئتِ فيه تطلبين مالًا لتدفعي له بدل حصّته في المكتب!

فكَّرتُ بأمّي تلك الأطيب والأرق من حمامة بيضاء، فكَّرتُ كم كان عليها أن تكظم غيظها، لسنوات وسنوات، قبل أن تتحدّث.

- لماذا لا تنجبين؟!

لم أكن راغبة في استمرار الحوار، لأنني أعرف أنه سيتعبها، مع انفراد عدد من أمراض الشيخوخة بها، كالضغط والسكري. طمأنتها: لا عليك، ابنتك قادرة على التصرُّف في هذه القضية بنفسها، أم نسيتِ بأنني

محامية؟!

- أنسى، وكيف يمكن أن أنسى؟! فالشيء الوحيد الذي أتذكّره دائما هو أنكِ محامية! تربح كل قضية تتولاها وتخسر قضيتها الخاصة كلَّ يوم، مع أن الزمان أعطاكِ فرصا كثيرة، وأدلّة جديدة، لكي تستأنفي من جديد وتكسبي!

- أعود وأطمئنكِ، لو كنتُ أريد الفوز بهذه القضية لفزتُ من زمن بعيد! بعض الأشياء تحتاج إلى وقت!

- وقت؟! أنتِ إن لم تُنجبي اليوم، لن تنجبي أبدًا!

- أمي، سأفاجئكِ بشيء، الشيء الوحيد الذي لا أريده هو أن أنجب من سلمان! فوجئتُ بنفسي أقول ذلك!

- ماذا؟!

- أظنّه وصل! اسمع المفتاح يُدار في قفل الباب! قلت لأمي، لكي أُنهي الحوار الذي لا يوصل إلى شيء.

***

الفكرة الوحيدة التي عبرتْ رأسي أثناء المكالمة، كانت فكرة شريرة، لم تخطر ببالي من قبل؛ وقد استغربتُ إلى أيّ حدّ من الوحشية أوصلني سلمان، حين همستُ لنفسي: إذا ما ماتتْ أمُّه، لن أجلس في هذا البيت يوما واحدا بعد ذلك!

- تتمنِّين الموت لواحدة من أطيب البشر! المرأة التي أحبَّتك، لتستريحي من عذابكِ الذي يسببه لك ابنها! ما هذا، ديانا؟! إنك أسوأ منه. أسوأ منه بكثير. على الأقل هو هكذا، من يوم قيامه بفكِّ الشَّراكة؛ من يوم أن فُتحتْ أمام عينيكِ صفحة فضائحه، التي عرفتِ بها من الصحافة الخارجية ومن تسريبات المواقع الإلكترونية، التي تحترمه لسبب غامض، وتناكفه لسبب أغمض! وعرفتِ بها من المواقع التي لا تحترمه،

وتشير إليه من بعيد بأصابع مضمومة كي لا تُساق إلى المحاكم!

***

كم مرّة داهمني رعب أن أضطرَّ للدفاع عنه، في قضية من قضايا الفساد التي يتصاعد دخانها حوله، منه، بين حين وحين! لم أكن ثورية مثله، لم أكن ثورية مثل سواه، من الحقيقيين أو من المزيّفين؛ رأسمالي أن لي ضميرا، ويمكن أن أقول له: لا، إذا ما حُشِرت في الزاوية. أعرف أن هذا الضمير ينكمش ويجبن لأسباب لا أعرفها! بل ربما أعرفها! أحسّها، لكن هذا الضمير موجود. لا أظنّ أن إنسانا على وجه الكرة الأرضية بلا ضمير تماما! فما دام يتذكّر شيئا سيئا فعله، مجرد أن يتذكّر، فهذا يعني أنه لم ينس، وأن لا ينسى، معنى ذلك أن فيه شيئا من ضمير، مثل (حتّى) التي حتْحَتَتْ قلوب علماء اللغة، وحين مات كبيرهم: سيبويه، قال: أموت وفي نفسي شيء من حتّى!

الضمير هو (حتى) هذه، كلما وجدتَ له حلولًا تبدو منطقية، مُرضِية، أطلّ عليك من حالة مُلتبِسة أخرى، تقلقك.

***

لم يأت سلمان مبكرا إلى البيت كما توقعتُ. هناك أشياء كثيرة يمكن أن يفكّر فيها وينشغل، ما دمتُ صامتة، وأؤدي ما علّي من واجب، في السرير!

الشيء الوحيد الذي كنتُ متأكّدة منه، أنه لا يخونني، أن لا امرأة أخرى في حياته. لا لأنني أثق به، بل لأنني على يقين من أنه لا يجرؤ أن يحاول!

جبان، جبان حقيقي أمام أي امرأة، جميلة كانت أم غير ذلك! في مرات لا تُحصى، رأيته يتحاشى الحديث مع نساء جئن وحيدات إلى هذا الحفل أو ذاك، فجأة يبدأ بالتلفّتِ حوله كطفل أضاع أمّه، وما إن يراني

حتى يبدأ بالتلويح لي؛ أصلُ، فأجـد عَرقـه ينحـدر كـشلال صـغير مـن أطراف رقبته، وجبينه.

امرأةٌ جميلة، جاملتْني ذات يوم حين استجار بي: لديكِ زوج، ما شـاء الله، لو وضعتِه بين قبيلة من ملكات الجمال لكنتِ مطمئنـة! ثلاثـين مـرّة سألني: هل تعرفتِ إلى زوجتي؟ لا بدّ أنك قابلتِ زوجتي! كنا هنـا، في احتفال السنة الماضية، ليس من المعقول أنكِ لم تري زوجتي!

لم أعرف إن كانت تجاملني أم تهزأ به وبي!

***

تلك الليلة، ليلة عودته من بيت أهلي، عاد متوتّرا، فلم يحـاول معـي! كما يحدث حين يكون قد فعـل كـل شيء في نهـاره، ولم يبـق سـوى شيء واحد لا بدّ منه لكي يتوِّج به ذلك اليوم! مضى إلى غرفتـه، كأنـه يعـاقبني بهجرانه لسريري! وطوال يومين لم يتحدّث معي. تحاشاني عنـدما التقينـا صباحا حول طعام الإفطار، ولم يرفع عينيه نحـوي، قلـت: لعلـه يعتقـد أنني امرأة أخرى، يجبن أمامها، كما يجبن أمام بقية النـساء! ولكـي أكـون صادقة، كانت المرّة الوحيدة التي رأيته فيها يتحدَّث بانطلاق مـع امـرأة، هي تلك المرّة التي دعانا فيها رئيس التحرير للعشاء، إذ تحدّث مع زوجته بطريقة حيّرتني، فقلت، ربما يعود ذلك إلى أن المسكينة لم تكـن تنتمـي إلى فئة النساء لفرط قبحها!

***

أعترفُ أنني لم أكن أحبُّ النوم قبل أن يعود، لا قلقا عليه، بل لأننـي كنتُ أكره أن يندسَّ بجانبي ويفعل ما يفعله: يَـسرقني! ولأكـن صريحـة أكثر: يغتصبني نائمة، ملكُ الظلام هذا!

***

في غاباتكِ، عليكِ أن تعترفي، لم يضع أحدٌ سواكِ!

***

بعد يومين، وصل في الواحدة بعد منتصف الليل.

كنت قد بدأت أعدُّ نفسي للنوم، على وشك أن أسحب الغطاء فوق جسدي. طرَق باب غرفتي: تفضّل.

أجاب من وراء الباب: بل تفضلي أنتِ!

خرجتُ.

كان يمسك بمِلفٍّ كبير، يحرِّكه بعصبية؛ ألقاه فوق طاولة الطعام.

- اجلسي.

جلستُ.

- منذ يومين أحاول أن أكظم غيظي! ماذا قلتِ لأمك عني حتى تتحدّث معي بالطريقة التي تحدَّثت بها؟ ما الذي ينقصكِ؟! هل ينقصك المال؟ أم ينقصكِ هذا؟! وضرب بيده الملفّ! هل تنقصك السعادة؟! هذا الملفّ لكِ، احمليه وتأمّليه جيدا، قبل أن تذهبي إليها شاكية باكية! ونهض صافقا باب غرفته خلْفه، وهو يصيح: سأكون مضطرا لنسخ مائة صورة عن هذا الملف إذا لزم الأمر لكي أثبت للناس أن لا شيء ينقصكِ!

في تلك اللحظات كان يمكن أن أتوقَّع ألف شيء، بل مليونا، دون أن أتوصّل إلى معرفة موضوع ذلك الملفّ الذي ألقى منه نسخة في وجهي واختفى.

أمسكتُ بالملفّ، وسرتُ نحو غرفتي مُنهكةً، إذ لا أسوأ من أن تختتِم يومك بمشاجرة صاخبة قبل النوم!

وضعتُ الملفّ بجانبي، أطفأتُ الضوء وحاولت أن أنام! لم أستطع، عدتُ وأشعلته، أمسكتُ بذلك الملفّ الغامض مثل وجه سلمان في العتمة، وفتحته.

صعقتُ حين وجدتُ أنه سجَّل فيه نوع واسم كل هدية قدَّمها إليَّ

وثمنها منذ أن تزوّجنا! بدءًا من هدايا الخطوبة، وصولا، في الصفحات التالية، إلى سيارة التويوتا، وفرق السعر الذي كان عليه أن يدفعه فوق سعر اللاند كروزر! ثم تذاكر الطيران التي اشتراها لي في كلّ رحلة لم أُغطِّ فيها تذكرة سفري لسبب ما! فروق أجور الفنادق والرحلات السياحية التي أقمنا فيها أو قمنا بها في البر والبحر أو إلى حدائق الحيوان! المطاعم!

أما الصفحات الأخيرة الكثيرة، فقد كانت أغرب الصّفحات، إذ احتوتْ تاريخ كلَّ مرة نام فيها معي، وساعتها! وعدد المرّات في تلك الليالي! ولأن زواجنا مستمر منذ سنوات، فقد كان عدد صفحات هذا الفصل هو الأكبر!

نهضتُ، وطرقتُ باب غرفته. نهض شبه مذعور، وهو يصرخ: شو في؟!

- أتهدّدني بملفّ كهذا؟ أتهدّدني بإرسال نسخة منه إلى أمي، سأطلب منك شيئا واحدا، وأرجوك أن تلبيه أيها الزوج المحترم: أريد مائة نسخة من هذا الملفّ لأوزعها بنفسي على كل مَن يعرفونك! وطرقتُ الباب خلفي.

في تلك اللحظات التي أعقبت التقاء الباب بإطاره، سمعتُ صمتا، هوَّة من صمت، واسعة، كونية، لم أسمع مثلها من قبل!

حكاية إيزابيل!

اتصل بي سلمان بيك، طالبا حكاية دسمة على عجل: أريدها أكثر حرارة من أيّ حكاية سبقَتْ، لا أريد رومانس، أريد عملا! تحدّث مدير مكتبي مع الجامعة، بمستطاعك أن تغيب عن المحاضرات في اليومين القادمين. أريدها غدا قبل الخامسة مساء!

***

بعد أن كتبتُ له مجموعة من الحكايات، هي الأبرز، والأجمل في حياتي، بدأت أحسّ فعلا بخواء ما. أصبحتُ أشعر أن هنالك مناطق فارغة في جسدي، وليس في روحي فقط! فالحكاية التي تخرج، من المستحيل إعادتها، مثل العمر الذي يمرُّ، مثل مدّخراتك التي أمضيتَ عمرك تركض خلفها لتخبئها ليوم شيخوخة، ثم وقفتَ على هوّة قرب البحر ونثرتَها!

بدأتُ طريقا، وأصبح من الصعب عليَّ أن أعود من منتصفه، أو ما بعد منتصفه، لأنني لم أكن على ثقة من أن المسافة التي قطعتُها لن تكون أقل وحشة إذا ما فكرتُ بأن أقطعها عائدا! فقد أحرقتُ كلَّ شجرة يمكن أن أتفيأ في ظلها. أما نقطة البداية، فلن تكون هناك أبدا!

في نهاية الشهر الماضي، وصلَني شيك راتبي في المكتب، وقّعتُ على استلامه، وحين ذهبتُ وأودعته البنك، كتبتُ في وصل الإيداع الرّقم الذي أعرفه، لكن موظف البنك مازحني، أتريد التبرع للبنك بمائتي

دينار؟!

وأعاد الشيك إليّ والوصْل، فوجئتُ بالزّيادة، وقلت: يبدو أن فرحه بحكاياتي غلبَ بخله الذي يتهامس كثيرون حوله!

***

فكَّرتُ بدمج حكايتين، لأنني أحسستُ أن الواحدة منهما تُكمل الأخرى على نحو رائع، مع أن الأولى حدثت في ليون بفرنسا، والثانية في سان فرانسيسكو! مساء ذهبت إلى الشقة التي خصَّصها لكتابتي، فقط كتابتي! لأنه حذّرني من أن البيت باسمه، وسمعة البيت يجب أن تظلّ ناصعة!

تبدو الساعة الخامسة مساء هي الأنسب للكتابة بالنسبة لي، بعد غفوة تستمر نصف ساعة بعد الغداء. تبدو الساعة الخامسة ساعة مريحة، فالضوء، وبخاصة في الخريف، يبدو فاتنا، وساعة الغروب تعطيني ذلك الحسّ بانسحاب العالم نحو السّكينة، نحو التوغّل عميقا في ذاته، بعيدا عن كل ما يُنغِّص حياة المرء في النهار!

لقد لاحظتُ مثلا، أن الكتابة تصبح أسلس كلما خفَتَ الضوء في الخارج، كلما انتشر الذّهبيّ أكثر ليلوِّن عمّان، عمّان النهار الباهتة؛ هذا الذّهبي الذي سيظلّ يذكّرني بطالبة الدكتوراه وشرفة فندق البريستول!

***

عدتُ إلى فرنسا بعد ستِّ سنوات على مغادرتي لها، كان هنالك مؤتمر في ليون، أقيم في عدد من القاعات ووزّع جدوله بصورة ممتازة، كما يحدث في المؤتمرات الكبرى، حيث يذهب كلُّ مُهتمٍ إلى المحاضرة التي تهمّه.

كان أحد أفضل أصدقائي، وليد، يشارك فيه؛ صديق تخرّج معي، ولكنه بقي في فرنسا بعد أن تزوّج من قريبة له، كانت

زميلتنا، وتحمل الجنسية الفرنسية. لم يكن تديُّنها يَخفى، كانت راضية عن نفسها، وبعد الزواج ذهبت مسافة أبعد، بحيث ارتدت الحجاب.

تفاصيل ما حدث معي، بعد ذلك، ظلت غامضة طوال أيام المؤتمر والأيام الثلاثة الإضافية التي قررتُ أن أمضيها في ليون.

كانت الفتاة التي قدَّمها إليَّ وليد، باعتبارها صديقته العزيزة، جميلة حقا، وفيها من سُمْرة الشرق مسحة ساحرة، ومن الفرنسيات تلك الهالة التي تُذكِّرك في كلّ لحظة بأنك تتحدّث مع (مدام)، مع سيّدة.

- إيزابيل.

- كريم.

صافحتْني بحرارة، كما لو أننا أصدقاء من زمن، مع احتفاظها بتلك المسافة الغامضة الخاصة لفكرة سيدة جميلة عن نفسها! لكن، لم يكن صعبا عليَّ أن أدرك بأن شيئا ما حدث في اللحظة التي لمستُ فيها يدها، ثم الطريقة الناعمة التي سحبتْ بها أصابعها.

حسٌّ كهذا، يمكن أن يكون خادعا بالطبع، ولذا فكّرتُ بأن أخطو للخلف، خطوة واحدة، لكي أوصل إليها رسالة أنني لستُ سهلا، وأنني أحترمها. طلب مدير المحاضرة من المحاضرين الصعود إلى الخشبة، فاستأذن وليد وذهب، بعد أن تمنّيتُ (لنا) محاضرةً مفيدة، فضحك!

سارتْ نحو الصفوف الأولى، متوقِّعة أن أكون وراءها، لكنني لم أفعل؛ فقبل أن تنتخب مقعدها، كنت قد جلستُ، ورحتُ أراقبها، أراقبُ ردّة فعلها حين لن تجدني قربها. استدارتْ، فرأتني أجلس

هناك في الصف الثالث في مؤخرة القاعة. ابتسمتْ ابتسامة محبطة، وجلستْ.

لا أستطيع أن أعرف ما الذي حدث لتلك السيدة التي نظرتْ خلفها، باتجاهي أربع مرات على الأقل! كما لو أنها تريد أن تتأكّد من أنني لن أخرج قبل أن تتحدّث معي ثانية.

تشبثتُ بمقعدي أكثر مع تلك النظرات! قلت: ها هو المؤتمر في اليوم الثالث، يؤتي أُكُلَهُ على ما يبدو!

كانت محاضرة وليد شيِّقة فعلا، وكنت سجَّلتُ عددا من الملاحظات لأنه سمح لي بقراءتها قبل يومين، وتطورَّتْ ملاحظاتي الإيجابية طوال الليلة السابقة، لكنني حين رأيت تلك السيدة تطورتْ ملاحظاتي أكثر، بل لنقل: تجلَّتْ!

سُمح لي بالحديث، ولم يكن في رأسي سوى هدف واحد: أن أُبهر تلك السيدة، وهذا ما استطعتُ أن أفعله! وفي الوقت نفسه أن أُنصفَ صديقي، الذي كان يستحقّ هذا!

عندما انتهت المحاضرة، مضيتُ نحو الباب الخارجي، إلى الهواء، تاركًا وليد، أمام خشبة المسرح، يناقش جمهوره، يناقش ذلك الذي يريد أن يوضِّح شيئا قاله، وتلك التي لم يسمح لها الوقت بتوجيه سؤالها.

قلتُ: إذا تبعتني إلى هنا، فهذا يعني أن نظراتها لم تكن طائشة، أنها لم تُطلقها إلا لتصيب، وإذا لم تتبعني، فالأمر انتهى عند الحدّ الذي وصله!

بعد قليل رأيتها مقبلة تبتسم! حيَّتني، وهي تبحث في حقيبتها عن شيء، تبين لي أنه علبة سجائرها، عرضتْ عليّ سيجارة، تناولتُها شاكرا، وقلت مع أنني أحاول تقليل عدد السجائر ما أمكن،

فأنا أخطط لترك التدخين!

- ما دمتَ لم تتركه بعد، فهذا يعني أن من حقي كزميلة مدخِّنة أن أدعوك لواحدة دون أن أشعر بالذَّنب!

تحدثنا في المحاضرة وأثنينا على صديقنا المشترك، بل وبدا حبّنا له شيئا صافيا يجمعنا بصورة لافتة. وسألتُها: لا أعرف إن كنتِ تعرفين ليون كما يجب!

فقالت: أعرفها بالتأكيد.

فسألتها: ما رأيك أن أكون دليلك إذًا؟!

- توقَّعتُ أن تقول لي: ما رأيكِ أن تكوني دليلي؟!

- المدينة التي لا تضيع فيها لا يمكن أن تعرفها، وأظنكِ بحاجة إلى دليل لا يعرف من هذه المدينة شيئا!

- على أيّ حال نظريّة جديدة، سأجرِّبها.

- لن تندمي!

وصل صديقنا المشترك، وتداخلت الأجساد أمام بوابة القاعة. نظرتُ إليها، كانت تبتسم لي من فوق الأكتاف، فأدركتُ أي فتنة تلك التي يمكن أن تسكن ابتسامة فتاة رائعة لم تتجاوز السابعة والعشرين من عمرها!

اقترب وليد مني أكثر وهمس لي: سنسهر في البيت، لا ترتبط.

فقلت له: ولكني ارتبطتُ مع أحدهم!

فقال: تخلَّص منه بأي طريقة!

- لن أستطيع.

- إذن أدعه لمرافقتك إلى سهرتنا!

- إنها إيزابيل!

كانت المفاجأة التي سكنتْ ملامح وليد كافية لأن تجعله شخصا

آخر!

لم أفهم سبب هذا التغيّر!

كان مشتَّتا على نحو مرير، ولكنه جمَّع نفسه في كلمة واحدة وقال: أُدْعُها!

ما حدث بعد ذلك كان أعقد موقف متشابك وجدتُ نفسي فيه في أي علاقة عشتها.

***

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف مساء، خرجتْ عمّان النهار من لونها الإسمنتي الوحيد، وتفتَّحتْ، كما لو أنها واحدة من أجمل المدن المبهجة! وقفتُ أتأملها، وأنا أهمس: مدينة رائعة كهذه، كان يلزمها بحر فقط. وخيِّل إليَّ أن المساحات السوداء في امتداداتها ما هي إلا ذلك البحر المُفتَقَد!

أخذتُ نفسا عميقا، وتحسست جيبي باحثا عن شيء لم أجده، وحين انتبهت، تبيّن لي أنني أبحث عن سيجارة! أنا الذي تركتُ التدخين منذ عشر سنوات!

نظرتُ إلى جهاز الكمبيوتر خلفي، وقلت: سأكمل غدا.

في الطريق انتابني حسّ غريب، هو أنني لم أكتب بقية تلك الحكاية، إلا لشيء واحد: أن أحتفظ بها لنفسي يوما آخر! ليلة أخرى، قبل أن أفقدها إلى الأبد!

عصر الجليد!

لم أنم تلك الليلة، ليلة المِلف، إحساس عميق سكنني: لقد فقدتَ أجمل شيء حدث لك في حياتك، أجمل امرأة، أجمل إنسان: ديانا. أتعرفُ ما الذي فعلته؟ أتعرف ما الذي سيحدث لك إذا ما هجرتكَ؟ ستكون مضطرًّا لإعادة زوجتك الأولى التي لا تستطيع أن تتجوّل معها حتى في سوق الخضار!

في الخامسة صباحا، تجرأتُ وفتحتُ باب غرفتي، بعد أن ارتديتُ ملابسي، كنت حريصا على ألا يصدرَ عني أي صوت. وجدتُ الملف فوق طاولة الطعام، وفوقه خاتم زواجنا! ارتجف قلبي. نظرتُ صوب باب غرفتها، كنت على يقين من أن تلك الغرفة ستغلق في وجهي إلى الأبد إن لم أكفِّر عن خطيئتي، امتدتْ يدي والتقطتْ مفتاحا لواحدة من السيارات المتوقفة في كراج البيت، فتحتُ الباب وخرجت.

حتى تلك اللحظة، لم أكن قد عرفتُ ما الذي عليَّ أن أفعله، انطلقتُ في الشوارع باحثا عن شيء، حين أراه سأعرف أنه هو! وأصيح: وجدته!

عمّان شبه نائمة، المحلات كلّها مغلقة. استدرتُ نحو شارع الملكة رانيا، تاركا شارع المدينة المنورة خلْفي، ولكنني بعد قليل أدركتُ أنني لن أجد شيئا في هذا الشارع سوى الصّحف، فعلى جانبيه مباني ثلاث من جرائدنا اليومية.

يسمونه أيضا شارع الصحافة! ويسمونه شارع الجامعة!

أصبحتُ على مقربة من جسر المدينة الرياضية؛ المضيُّ أَماما لن يفيدني، إذ لا توجد محلات تجارية كما أعلم. سرتُ في الشارع، إلى يمين الجسر، وانعطفتُ يمينا باتجاه شارع حدائق الملك عبد الله.

مقابل السيفوي، كنت مرتبكا، هل أواصل التقدُّم أم أنعطف باتجاه شارع الجاردنز؟ انعطفتُ، فهو، إن لم تخنّي الذاكرة، يعجّ بمحلات مختلفة. نظرتُ إلى الساعة، كانت قد بلغت الخامسة وخمس وعشرين دقيقة.

كل المحلات الكبيرة يمكن أن تكون مُشرعة في ساعة كهذه، في مدن أخرى!

وقعتْ عيناي على محلٍّ لبيع الزهور، كان مغلقا، فاهتديتُ لما أريده. بعد قليل رأيت آخر، ولمحت ثالثا على الجهة الثانية من الشارع. في نهاية شارع الجاردنز قبل دوّار الواحة بأمتار، انعطفتُ عائدا. كانت أعداد السيارات في تزايد، وبدأتُ أرى بعض المارّة من عمال، وحراس للبنايات، وسواهم.

أكثر ما كنتُ أخشاه أن لا أستطيع العودة إلى البيت قبل السابعة، ساعة استيقاظ ديانا منذ أن تزوّجنا.

لم أجد شيئا، عدتُ وانعطفتُ باتجاه شارع حدائق الملك عبد الله، واستدرتُ عائدا باتجاه السّيفوي؛ أظنه لا يُغلق أبوابه؛ هل يوجد فيه محل لبيع الزهور؟!

أدركتُ أنني أنا الذي أسكن في عمان، لم أعد أعرفها.

كانت الساحات أمام السيفوي خالية من السيارات، أوقفتُ اللكزس، ولكنني لم أجرؤ على الدخول، ففي النهاية سيعرفونني، وسيتساءلون: أي حكاية حبٍّ تلك التي تجعل معاليه يصحو مبكرا، هكذا، لشراء الزهور؟!

أدرتُ المحرِّك من جديد، واستدرتُ يمينا. تذكَّرت كشك الزّهور في مدخل مجمع النقابات. أعرف أنه لم يزل هناك، وكم كانت فكرتي هذه سخيفة! لا بدّ أن صاحبه يعرفني أكثر من عمال وموظفي السيفوي، وقد أجد نفسي وجها لوجه مع واحد ممن يعملون في إدارة المجمع.

سأعتذر لها. يكفي أن أعتذر لها، وستقبل اعتذاري. بالتأكيد ستقبله!

***

طرقتُ باب غرفتها، ففُتح فورا، كما لو أنها كانت تنتظرني! وجدتّني أمامها مرتبكا، وخيط عرق يتدفَّق من جبهتي نحو صدري.

- أعتذر لكِ، لم أكن أقصد!

- أتريدني أن أعتبر ما حدث زلة لسان؟! زلة تغتفر، بعد هذا العمر الطويل تحت سقف واحد!

- إذًا أنتِ لن تسامحيني!

- ملفّك كبير، ألم تفكر في مسألة النشر؟! نشره! أظنك ستحقّق نجاحا غير مسبوق في هذا البلد. بصراحة، أنصحك بنشره؛ أعرف ناشرا، وكّلني بعدد من القضايا، يمكن أن أتحدّث معه، بل يمكن أن أحمل له سجل إنجازاتك بيدي. وأؤكد لك، لن يرفض نشره!

- كل ما أريده منكِ أن تهدئي قليلا!

- أنا هادئة فعلا، وإلا لما كنت اقترحتُ عليك ما اقترحتُ. وصمتتْ قليلا ثم قالت: سأعدّ لك طعام الإفطار. أتريد بيضتين كالعادة، أم أكثر!

لم أُجب.

***

منذ أن أصبح لنا في البيت خدم، لم تتنازل عن قيامها بإعداد طعام إفطاري لأيٍّ منهم. سارت نحو المطبخ، مواصلة كلامها: تصوّر لو كنت مبدعة مثلك، لفكَّرت في عمل ملفّ خاص، أخصص فيه فصلا للبيض،

وأسجل بالتفصيل كل طريقة استخدمتُها لتجهيزه؛ وفصلا للسمك الذي كنت أدلل به قلبك، لكي أطرد عنه تصلب الشرايين والدهون الثلاثية والكولسترول؛ وفصلا للمجاملات، وكيف كان عليَّ أن أجاملك وأستمع إليك في كل قضية كبيرة أو صغيرة استشرتني فيها أو لم تستشر؛ وفصلا طريفا عن الطّرُق التي استخدمتُها والكلام الذي قلتُه لكي أقنعكَ أن تكفَّ عن أكل البيض يوميًا، وكيف قاومتَني لأن هنالك من زرع في رأسك أن البيض مفيد، مفيد جدًا لبقاء الفحولة فاعلة!

وصمتتْ قليلا، ثم قالت: أعترف لك أن كتابكَ ممتاز، ولكن فيه عيبا وحيدا، إذ عليك أن تعيد النظر في المرات التي نمتها معي! أظن أن هناك خللا، خللا لا يجوز أن يكون موجودا في كتاب تصدره شخصية عامة مثل معاليك!

- ما الذي تعنينه؟!

- ما الذي تعنينه يا ديانا؟! ما الذي تعنينه؟! تذكَّرتُ! أظن أن عليك حذف المرات التي اغتصبتني فيها من سجل شرف الفحولة، فقط هذه! أو لأقلْ لك، دعها، مسامحاك!! ففي النهاية أنا زوجتك ولا يجوز أن أتوقّف عند مسائل صغيرة كهذه!

حين انتهتْ من إعداد البيض، مرَّت بي، وقالت: سلمان بيضاتك استووا، يعني صاروا جاهزين! واختفتْ في غرفتها كعادتها تمهيدا لذهابها إلى المكتب.

***

صباح اليوم التالي، وجدتُ إحدى الخادمات قد هيأت إفطاري، وبالطريقة نفسها التي تهيؤه ديانا.

سألتُ عنها، فقالت الخادمة: مدام راح شغل!

ألقيتُ نظرة حيث كان الملفّ، رأيته في مكانه وفوقه الخاتم!

وهكذا بدأ فصل جديد، كما لو أن عصر الجليد قد حلّ!

براءة مرعبة!

وصلتُ في السابعة صباحا، فوجئ الحارس الذي كان ينظف الممرّ أمام مكتبي حين رآني. سار نحوي بسرعة، كاد أن يتزحلق. رأيته يتأرجح فأغمضتُ عينيَ! لم أجرؤ على مواصلة النظر إليه وهو يوشك على تهشيم بعض عظامه بسببي. عدتُ وفتحتهما، في اللحظ التي كان يستعيد فيها توازنه.

أخذتُ نفسا عميقا، وابتسمتُ له.

- الحمد الله على السلامة.

- الله يسلِّمك مدام ديانا! خير إن شاء الله؟!

- لا شيء! لا شيء!

رحّب بي، كما لو أنني لستُ ذلك الشخص الذي بسببه كادت رقبته أن تنقصف!

***

لم يسبق لي أن أحسستُ بهدوء المكتب كما أحسسته ذلك النهار. جلستُ خلف طاولتي، نشرتُ الملفات التي سأتابعها في ذلك اليوم، ثم أبعدتها. أمسكتُ بورقة بيضاء، تأمّلتها، وتعجبتُ: كم من كلام يمكن أن تستوعبه ورقة كهذه! حيّرتني، كم هي بيضاء وقابلة لكلّ شيء، لكل كلام عن الفرح والحزن واليأس والأمل، الشقاء والسعادة، الخيانة والوفاء، الجبن والشجاعة، الحب والكراهية، الجمال والقبح، الموت

والحياة!

أمسكت بالقلم الأسود الذي لا أستخدم غيره للكتابة. كانت ريشته على وشك ملامسة الورقة البيضاء، وكنت سأكتب شيئا لا أعرف ماذا سيكون. أبعدتُ القلم وحبره الأسود عن الورقة، قذفته في سلّة المهملات. تأملتُ يدي دونَ خاتم الزّواج، كانت خفيفة على نحو غريب، كانت ريشة! نهضتُ أفتّش عن قلم آخر، كنت أعرف أنني بحاجة إليه، ووجدته هناك في خزانة القرطاسية، علبة كاملة. دزّينة من الأقلام ذات الحبر الأزرق. تناولتها كلّها وعدتُ إلى الورقة البيضاء التي كانت تتشبّث بي بصراخها مثل طفل صغير استيقظ في مكان غريب فلم يجد أمّه إلى جانبه!

عدتُ إليها، حدَّقتُ فيها من جديد، وكم أدهشتني براءتها في تلك اللحظة، براءتها المرعبة، التي لا تملك أن تعترض على أي كلام يكتب عليها!

مررتُ بيدي على سطحها برفق، ثم كتبتُ بخطٍّ كبير تلك الجملة القصيرة المكونة من كلمتين لا غير: حياة جديدة!

لم أعرف حينها إن كنت أفكّر في الكلمتين اللتين أمامي، أم أفكر في اللون الأزرق، الذي جعلني أحسّ بأن كلمتين مثلهما لا يمكن أن تُكتبا إلا بالأزرق، الأزرق- البحر، الأزرق- السماء!

أرجعتُ الكرسيَّ إلى الوراء، وأكاد أقسم الآن: لقد رأيت تلك الورقة تضحك!

ليلة الألغاز!

قلت لإيزابيل: يبدو أنكِ خسرتِ فرصة الضياع، فهناك من يصرُّ على دعوتنا إلى بيته!

- من؟

- صديقنا المشترك!

- مَن؟!

أشرتُ إليه.

- وليد؟! هل أنتَ متأكد من ذلك؟!

- بالطبع، ولكن هل هو بخيل إلى هذا الحدّ بحيث تستغربين الدّعوة؟!

- أعذرني، أظنّ أنني لن أستطيع تلبيتها!

- ولكنه دعاني ودعاكِ؟!

- مرة أخرى أسألك: هل أنت متأكد من ذلك؟!

أشرتُ إلى وليد، كان ساهما يفكِّر. لمحَنا، رأيته يتقدّم صوبنا، ابتسم: كما قال لك كريم، يسعدني قدومك!

- بما أنني سمعتها بأذني، الآن يمكن أن أُلبِّيها! ولكن، هل أنت متأكد؟! سألته!

- بالطبع، صديقةُ صديقي صديقتي!

حوار كهذا، حافل بغموضه، كان يمكن أن يستمرّ شهورا دون

أن أفهم منه شيئا.

- سأسبقكم وأُحضر السيارة.

- نسير معك. قالت! فقلتُ في نفسي: لقد حرمتْني من حقّي البسيط في سؤالها عمّا يدور!

صامتين وصلنا إلى السيارة، صامتين اتخذنا مقاعدنا فيها. جلستْ في المقعد الأمامي. لم تُغيِّر وضع رأسها، ظلَّتْ تنظر إلى الخارج، كما لو أنني، أو كما لو أن وليد، هناك!

بصمت ترجَّلنا، وكان يمكن أن نواصل ذلك الصمت في المصعد إلى الطابق السادس، لولا أن ثلاثة آخرين من المدعوّين وصلوا باب البناية في اللحظة ذاتها.

لم يكن المصعد يتّسع لأكثر من أربعة أشخاص. طلب منّا وليد أن نصعد، وحين بقيتْ إيزابيل واقفة، طلب منها أن تصعد معي ومع اثنين آخرين، وبقي هو مع امرأة عربية في الخمسين من عمرها، قدَّمها لي كصاحبة غاليري لعرض الأعمال الفنية.

اللذان صعدا معنا، كانا يعرفان الشقّة. انطلقا في الممرّ الطويل قبْلنا، وللحظات أحسستُ بأن عليّ أن أدفع إيزابيل دفعًا، لفرط بطئها!

قرع أحدهما جرس الباب، فوصَلنا صوتُ زوجة وليد، مُرحِّبَة، بل ويمكنني القول فرحَة. تلكأتْ إيزابيل، ولم يكن من اللائق أن ندخل قبلها، فدفعتُها برفق، وأنا خلفها تماما، أكاد أرتطم بها.

في تلك اللحظة، رأيتُ ابتسامة صاحبة البيت الواسعة تنكمش وتتفتّتْ، بل وتتساقط! حيرّني الأمر، وقلتُ: أي كارثة تلك التي أحملها إلى بيت أدخله للمرة الأولى، وودتُ لو أن أحدًا يفسِّر لي الأمر.

أفسحتْ لنا صاحبة البيت الطريق. دخلْنا، تبِعَتْنا. وبعد قليل، دخل صاحب البيت وصاحبة الجاليري.

ضيّقة كانت الصالة، فبدأنا ورشةً لتجميع الكراسي وطاولة الوسط الصغيرة في إحدى الزوايا. فارتفعتْ فوق بعضها بعضا كبرج. حاول أحد المدعوّين أن يتظارف، فقال: كلّه تمام، ولكن لن أجلس بجانب هذا البرج فأنا أصغركم عمرا.

كنت الوحيد الذي ضحكتُ، ولم يضحك وليد ولا زوجته ولا إيزابيل ولا صاحبة الجاليري التي أحسّت، فيما يبدو، أن النكتة سمجة لأنها أكبرنا عمرا!

كان يمكن أن يستمرّ الأمر على ما هو عليه حتى نهاية السهرة، لولا أن اثنين آخرين حضرا، أحدهما كاتب قصة سوري مقيم في باريس، وصلها لاجئا سياسيا قبل عشر سنوات وكان طريفا للغاية، والآخر مغنّ لزج، بشعر طويل، كل كلمة قالها وكل حركة صدرت عنه كانت ممهورة بختم الافتعال!

في تلك الصالة، على بُسطٍ شرقية وفرشات إسفنج نحيلة، عملنا المستحيل لكي يَسَعنا المكان. كنت قد جلستُ، وبجانبي جلس اثنان من المشاركين في المؤتمر، بعد أن قال القاص: إن لنا الأولوية في اختيار العروش التي تريحنا باعتبارنا ضيوفًا!

نظرتُ إليها، وأنا أُمنّي النّفس أن تجلس قبالتي على الأقل، بعد أن فقدتُ الأمل في جلوسها إلى جانبي. التقطتْ نظرتي، لكنها كانت تُجري عملية حسابية لا أول لها ولا آخر، كما بدا لي.

في النهاية، ابتسمتْ، وتقدَّمت صوبي، طالبة من الضيف الذي على يميني أن يُفسح لها المجال. وهذا ما كان!

لسبب ما، شعرتُ بأن زوجة وليد ارتاحت لهذا التوزيع.

بعد ساعة لم يتوقَّف فيها ذلك القاص لحظة عن سرد قصص مضحكة وإلقاء النكتة بعد أختها، بسرعة لم تكن تسمح لنا بمسح دموعنا! وبخاصة بعد أن عمل النبيذ عمله، نسيتُ المقدِّمات الغامضة لبداية السهرة، لكن صاحبة البيت، التي لم تكن تشرب من منطلق ديني، كما أخبرتنا، لم تكن تضحك، بل كانت تفرش ابتسامات مُرَّة، تتلاشى مع اشتداد هبوب قهقهاتنا.

عدتُ للبحث، دون جدوى، عن السبب الذي يجعلها بائسة، فقلت: يبدو أن المسألة أعقد مما أتصوّر، لأنها، حتى، لو كرعتْ كلَّ ما كرعناه، لما أرتْنا ابتسامة حقيقية واحدة!

كل ما كان يدور حولي، لم يكن قادرا على أن يجعلني أنسى إيزابيل التي بجانبي، وكنت لاحظتُ أنها كانت تشرب ضِعفَ ما يشربه أي واحد منا.

دفء جسدها كان حاضرا في تلك الليلة الباردة في الخارج.

وما كان يمكن لي أن أنسى أو أتناسى دفئا كهذا.

امتدتْ يد إيزابيل إلى حقيبتها، وأخرجت علبة سجائرها، ناولتني واحدة، أخذتُها دون تردّد، وحين رفعتُ عيني، وجدتُ سيدة البيت تهزّ رأسها معلنة بصمت قاس: التدخين ممنوع!

تنبّهت إيزابيل لحركة سيدة البيت، فاستعادت السيجارة منّي ودسَّتها في العلبة من جديد!

كان يمكن أن يُفسد ذلك الكثيرَ، لكن نكتة أطلقها القاص أعادت الوضع إلى ما كان عليه!

أشبه ما تكون بحركة عفوية، كانت حركة أصابع إيزابيل: طارت في الهواء بعد نكتة من العيار الثقيل، وحطتْ على فخذي! لكنها لم ترفع يدها، ظلّت هناك، وبدأتْ حرارتُها تتسرَّب بلطف

آسر إلى بقية أعضاء جسمي.

خجلتُ في الحقيقة، لكنني لم أجرؤ على إبعاد يدها، ورأيتُ عينَي وليد مثبتتين على يدها، فخجلتُ أكثر.

بين نارين جلستُ هناك غير قادر على فِعل شيء.

أبعد وليد عينيه، وقد سمعَ سعال زوجته، الذي بدا لي مفتعلا بعض الشيء. أراحني تحرّري من نظرته. وقبل أن يعود وينظر إليَّ ثانية، كانت إيزابيل قد التقطتْ بنصري، جذبتْ يدي نحوها، ووضعتْ رأسها على كتفي!

خجلتُ أكثر، وتلفّتُّ حولي باحثا عن حكم بالبراءة ونظراتي تقول: إنها هي من فعلتْ ذلك وليس أنا! وما كان هناك من شيء يمكن أن يحرجني أكثر من الوجه العابس لزوجة صديقي!

المفاجأة أنها كانت تطلق أول ابتسامة حقيقية!

هل شجّعني ذلك على مقاومة خجلي؟! ربما! هل ذكَّرني أنني الآن في فرنسا، ووجود امرأة ملتصقة برجل أبسط من وجود زهرة في حديقة؟ ربما!

قررتُ أن أستسلم، أن أتناسى ما يدور على كتفي الأيمن، والمصير الذي ينتظر أصابعي التي كانت إيزابيل تمرجحها بين راحتيها كما لو أنها طائر ستطلقه إلى الفضاء!

***

كنت قد استغرقتُ فعلا في الكتابة، لكنّ رنين الموبايل أعادني إلى حيث أنا، إلى عمّان! كان سلمان بيك على الخط.

- تأخرتَ.

نظرتُ إلى ساعتي وتبينَ لي أنني تأخرتُ فعلا.

- إنها الخامسة والنصف، أريد أن أقرأها على الأقل! أن أعرف ما

فيها قبل وصول ضيوفي!

- لم أعرف أنها ستكون طويلة إلى هذا الحد؟

- اختصر وأرسلها إليّ.

- لكنها ستفسد إذا ما فعلتُ ذلك. أقترح يا بيك أن تتلاعب بأعصابهم، لماذا لا تكون القصّة من جزأين أو حتى ثلاثة؟!

- ولكنهم سيكونون قد نسوا الحلقة الأولى حين آتيهم بالثانية!

- جرِّب يا بيك، وأظنهم سيكونون متشوِّقين إلى حدٍّ أنهم سينظِّمون لقاء غدا، لسماع البقية، وإذا لم يفعلوا، فتأكّد أنني سأختصرها وأرسلها إليك، لمناسبة أخرى!

أحسستُ به يأخذ نفسا عميقا ويفكِّر: سنُجرِّب، لكنك ستخسر زيادة راتبك الأخيرة إن أفسدتَ الأمر باقتراحك هذا!

***

العودة إلى الكتابة من جديد كان أمرا غاية في الغرابة، أريده ولا أريده، سعيد لأنني أتذكّر ليلة من ليالي العمر، ولا أريد أن أتذكرها، لأن تذكُّرها لا يعني سوى أن أكتبها ثم أزجَّها في هذا الفراغ الكوني (الإنترنت) لألقي بها في صندوق البريد الإلكتروني لسلمان بيك.

***

في الثانية صباحا صحوتُ على رنين هاتفي فَزِعا.

التقطتُ الهاتف الذي أضاءتْ شاشته العتمة: ألو.

- اقتراحك كان في محلِّه، اطمئن، لن تخسر شيئا من راتبك! وأغلق الخطّ.

الكاتب!

تبين لي أن أسوأ ما يمكن أن يحدث للكاتب هو إبقاؤه نصًّا ما مُعلَّقًا، أن يُبقي هذا النصَّ جالسًا في انتظاره، مثل أيّ مواطن ينتظر في ممرٍّ معتم عودةَ المسؤول، لكي يتفضّل بتوقيع معاملته!

قرأتُ كثيرا عن كتَّاب لا يرتكبون هذه الحماقة مع كلماتهم، وقرأتُ عن كتّاب يبدأون كتابةَ عمل مكوّن من ثمانين صفحة، ويُذلُّون القارئ بالتاريخ الذي يضعونه في نهاية روايتهم، مثل: 1990- 2002! فأصرخ: يا للهول! لو كتبوا كل يوم ثلاث كلمات لأصدروا رواية بحجم قاموس متوسط الحجم!

لا علينا، تبين لي أن الكتابة سلسةٌ معي؛ لا أعرف، إن كان ذلك لأنني أتذكّر، أستعيد جمالا نادرًا؟ أم لأن كل ما يهمّني الآن أن أعيش يومي التالي، رغم كوني أعيشه في واقع لا موازين إنسانية تحكمه، يفرض عليك أن تدفع ذاكرتك ثمنا، وأن تفقد كل ما تسترجعه، كي تملك أبسط شروط البقاء!

يهيأ لي أنني أتقدّم بسلاسة في الكتابة، لأنني أيضا، أكتشف أشياء لم أكن اكتشفتها في الماضي، ولأن هذه الأشياء تصبح أوضح! ففي تلك الليلة في ليون، كانت كلّ حواسي في الحقيقة مركَّزة في تلك اللمسة الدافئة ليد إيزابيل، وفي أصابعي التي تحلِّق بين أصابعها! أما تحوّلات ابتسامة زوجة صديقي فلم تتّضح كما يجب، إلا عندما كتبتُها، ولو

انتبهتُ إليها حقا كما جاء في كتابتي، أيّ كما اختزنتها عميقا، فلربما كنت أمسكتُ بيد إيزابيل وخرجتُ احتجاجا على يباس الاستقبال الجارح!

لا أخفي أنني عدتُ وقرأتُ المشهد الأخير الذي كتبتُه، لكي أواصل الكتابة.

سأتوقف هنا، لأن ما سأرسله إلى سلمان بيك لا يحتمل هذه المقدّمة، إلّا إذا قرر أن يتباهى بكونه كاتبا أيضا! كما يتباهى الآن بأنه دون جوان!

في الحقيقة، وهذا تدخُّل أخير! أحسستُ بأنني أقوم بأسوأ مهمة يمكن أن يضطلع بها كاتب، مع أنني لست كاتبا! فالكاتب يتخيَّل، ويكتب رواية؛ يبحث، ويكتب رواية؛ يستمع، ويكتب رواية؛ أو يخلط ذلك كله، ويكتب رواية؛ أو يكتب سيرة: فنان مشهور، لاعب كرة قدم، سياسي على وشك التقاعد أو تذكر أنه لم يعد موجودا بعد عشرين سنة من تقاعده! ممثلة تريد أن تثبت أنها كانت العقل المفكِّر خلف أفلام مخرج أعمالها الذي مات وكاتب السيناريوهات المصاب بجلطة دماغية! أما أنا فقد خطر لي أن ما أفعله هو كتابة سيرة عضو سلمان بيك، ولا أستطيع أن أؤكد سبب ولعه في أن يكون لعضوه سيرة، هل لأنه عاطل عن العمل؟ أم لأنه يعمل ولا يعثر على مطلبه؟ وتنطبق عليه تلك الجملة التي قالها لي ذات يوم أستاذي الفرنسي حين سألته عن صحته، فردّ: صحّتي ممتازة، ولكن لا أعرف ماذا أفعل بها! أم أن السبب أن السيد سلمان يؤمن بأن العضو الذي لا سيرة له، غير موجود؟! أم أنه يؤجل، ما استطاع، الخروج في جنازتـ(ـه)، لأنه من تلك الفئة التي تقول: اللهم أمتْني في حياتـ(ـه) ولا تميتـ(ـه) في حياتي!

أظنني ابتعدتُ كثيرا، ولكن ما يحيرني، أنني لست على يقين من أن مسألة هذا الابتعاد نوع من الغضب، أو لعلها نوع من الاعتراف بالهزيمة والعجز عن فعل أي شيء؟! فلأعُدْ للسّهرة!

***

يبدو أن يدَي إيزابيل قد تعبتا من التحليق، إذ عادتا من جديد إلى فخذي الأيمن مجتمعتين، وبينهما أصابع يدي اليمنى الفرحة بجنّتها الصغيرة الدافئة!

حررتْ إيزابيل يدها اليمنى بدوْرها، لكي تطفئ ظمأها بما تبقّى في كأس نبيذها، شربتْ ما فيه دفعة واحدة، ووضعتْه في متناول يد صاحب البيت ليسكب لها. كان متردِّدا! أما المفاجأة التي لم أتخيّلها، فهي مبادرة صاحبة البيت السريعة، إذا اختطفت القارورة من أمام يد زوجها المرتبكة، وزحفتْ على ثلاث، وملأت لها الكأس حتى آخره!

في تلك اللحظة أحسستُ بأنني أخيرا نلتُ رضاها! جميعًا نلنا رضاها! وأنها أعطتنا الرُّخصة لكي نكون أحرارا في بيتها! وبدا وكأن كلّ الابتسامات السابقة المُرَّة لزوجة وليد قد طارت في الهواء والتصقتْ بوجه إيزابيل كإخطبوط!

لم أعد قادرا على استيعاب ما يدور، وفي موجة عبث أعدتُ القول الممجوج: إيزابيل تشرب وزوجة صديقي تسكر!

لن أبالغ إذا ما قلت: إن ما حدث بعد ذلك كان مثل تقاذف الكرة بين فريقين كبيرين! إذ أعادت إيزابيل الابتسامات اليابسة بحركة بارعة إلى وجه زوجة صديقي، دون أن تتحرّك من مكانها!

عاد إليَّ ارتباكي.

كانت إيزابيل تحدِّق في وجه صاحبي كما لو أنها تؤنّبه على شيء ما! ربما يكون تلكّؤه في صبِّ النبيذ لها!

أعادتنا نكتة أطلقها الكاتب السوري إلى قلوبنا من جديد، وإن لم تكن ضحكاتي وضحكات إيزابيل وصاحبة الجاليري وربّة المنزل

ووليد لم تستطع أن تلامس قلوبنا بالتأكيد. لكن ما حدث أعطى إيزابيل استراحة بين شوطين، للعودة إلى أصابعي من جديد!

***

انحنى رأس إيزابيل الذي أمضى نصف السّهرة على كتفي ليحطَّ كطائر رائع على فخذي الأيمن. رجفةٌ قوية هزَّت جسدي، وخجلٌ لم أعرف من قبل أنه يمكن أن يعتريني، حوّل وجهي، لا بدَّ، إلى جمرة!

وثانية، رأيت ابتسامة يابسة تطير في الهواء من وجه صاحبة البيت إلى وجه زوجها! ورأيتها تهزّ رأسها بسعادة لي كما لو أنها تشجّعني على التقدّم خطوة!

ما حدث، أن إيزابيل التي لم ترَ هزّة الرأس تلك، هي التي أمسكتْ خنصري وقبَّلته في البداية، ثلاث قبلات على الأقل، قبل أن يختفي في فمها! تكهربتُ! وانتقلتْ إلى بقية الأصابع تُدلِّلها وتحتفي بها واحدا واحدا، وقلبي ينبض بقوة، تنذر بانفجار.

الجميل، أن فرنسا أثبتت أنها جعلت هؤلاء المتحلِّقين حولي متسامحين أكثر من الفرنسيين! فقد تصرَّفوا، كما لو أنهم لا يرون ما يدور، أو أنهم على درجة من السذاجة، بحيث لا يعرفون معنى هذا الهياج الذي اجتاح إيزابيل وينذر بتصاعد لا يمكن معرفة مداه!

لحسن الحظ، تداركتْ صاحبة البيت الموقف، ونهضتْ. دخلتْ إلى المطبخ، وحين عادت، كانت تحمل في يدها قارورة جديدة مفتوحة! مدَّتها باتجاهي، وقالت: يبدو أنك وإيزابيل تعبتما! ولا أظن أنكما قادران على الخروج وأنتما على هذه الحالة! هناك غرفة صغيرة، فيها سرير صغير، أرجو أن يتّسعكما!

لم أجرؤ على النظر إلى وليد لأعرف إن كان يؤيّد كلام زوجته أم لا! كنت متأكّدًا من أنني سأجد ذلك الإخطبوط متشبثا بملامحه!

نهضتُ، وبصعوبة نهضتْ إيزابيل، ألقتْ نظرة بطيئة على الحاضرين، ربما لكي تعرف مكان وجودها، وقالت تلك الجملة الثملة: وليد.. تصبح على خير!

***

عناق غيمتين مجنونتين كنا، جديلة باهرة من جسدَي نهرين جامحين كنا.

لم ننم تلك الليلة، ولم يكن حجم السّرير، الصغير فعلا، أمرًا معيقا! كانت الأصوات تأتينا من الصالون بين حين وحين شبه واضحة، ثم عمّ الصمت، فرأيت إيزابيل تقف مترنّحة، سألتها: إلى أين؟ فردّت: سآخذ حماما سريعا. كانت عارية.

استمعتُ لصوت شلال الماء فوق جسدها باستمتاع غريب، وحين عادت أكثر صحوا، سألتني: ألا تريد أن تأخذ حماما؟

فعاد إلي خجلي من جديد، وأنا أستعيد فصل الغزل الطويل الذي عشته أمام أعين الجميع.

نهضتُ، وسرت إلى الحمَّام، وحين عدتُ وجدتها في انتظاري جاهزة لجولة أخرى.

***

غادرتْ إيزابيل صباحا قبل استيقاظ وليد وزوجته، وحين التقيتها ظهرا، كما اتفقنا؛ كانت تنظر حولها بارتباك، بل بخوف! وبعد إلحاح أخبرتني أن وليد أخبرها بأنني عضو مهم في إحدى التنظيمات اليسارية الفلسطينية! وأن الموساد يترصَّدني! وأنها قد تكونُ الضحية التي تتواجد دائما في المكان الخطأ والزمان الخطأ

إذا ما قتلوني!

عبثا حاولتُ أن أنفي كلام صديقي، واكتفت هي بأخذ رقم هاتفي في عمّان ووعدتني أنها ستراني مرة أخرى: سأتّصل، وأراك!

***

بعد يومين دعاني كاتب القصة؛ ولأنه كاتب قصّة ربما، كان مدفوعا بقوة لكي يسرد لي قصّتي، بل يفاجئني بقصتي التي عشتها ولم أفهمها.

قال لي: هل تعرف أنك قدَّمتَ أكبر خدمة لصاحبة البيت!

سألته باستغراب: لماذا؟ ماذا فعلت؟ فرد: لأنك نمت مع إيزابيل!

أخبرته بما قاله وليد لإيزابيل عن كوني رجلا خطرا وعن إمكانيات اغتيالي، فصرخ كاتب القصة: المجنون، يحبّها أكثر مما توقّعنا!

***

بعد أقل من عام، تلقّيتُ اتصالا: ألو.. مَن؟

- إيزابيل، إيزابيل ليون!

- أهلا، أهلا إيزابيل، تتحدّثين من فرنسا؟

- بل من عمّان!

***

ما تبقى حكاية أخرى، لا أعرف أن كان تدوين وقائعها الأغرب، ستسرُّ سلمان بيك أم لا، مع أن ما حدث يمكن أن يكون فصلا مثاليا في سيرته، أعني سيرة عضوه، إذ تبدو الحياة أكثر تشابكا ومكرا ودهاء مما نتصوّر، أليس ذلك طبيعيا مادام البشر هم أبطال لعبتها؟!

قعر الحفرة!

عدتُ إلى المنزل، ذات ظهيرة، متوعِّكة. ارتبكتْ الخادمة! سرتُ نحو غرفتي! فتحتُ بابها، وهناك وجدتُ المفاجأة التي لم أكن أتوقّعها تنتظرني: كان سلمان عاريا فوق واحد من قمصان نومي، قميص أبيض بَسَطه فوق سريري، وأندفع محاولا ولوْجَهُ!

أكثر من أن تُحتمَل كانت المفاجأة. انتفض ململما نفسه كما لو أنني ضبطته متلبّسا مع امرأة أخرى! تراجع قابضا على قميص النوم، الذي سقط جزؤه الأعلى كاشفا صدر سلمان حتى ما فوق السُّرَّة بقليل.

صاح بي: أغلقي الباب!

التفتُّ خلفي، كانت الخادمة واقفة، غاضَّة بصرها.

تراجعتُ خطوة، أقفلتُ الباب، وانتظرتُ خروجه.

بعد دقائق طويلة، خرج بكامل ثيابه، لم ينس حتى ربطة العنق، مثلما كان يخرج إلى الوزارة في تلك الأيام البعيدة.

دخلتُ، حملتُ قميص نومي، ولحقتُ به أمام باب المطبخ: نسيتَ هذا!

لم يجرؤ أن يمدَّ يده ليتناوله.

- انتظِرْ، قلتُ له.

توقَّفَ. سرتُ حتى وصلتُ صندوق القمامة تحت مغسلة الأواني، وألقيتُ بالفستان داخله!

- إذا ما احتجته، تعرف الآن أين تجده!

أقفل الباب الخارجي خلفه بصمت، كأنني نائمة ولا يريد أن يوقظني!

***

أغلقتُ باب غرفتي من الداخل.

ومنذ ذلك اليوم أصبحتُ أغلقه من الخارج أيضا، وأضع المفتاح في حقيبتي حين أغادر البيت، أما المفاتيح الاحتياطية، فأوصدتُ عليها في الخزنة الصغيرة الموجودة في مكتبي.

الخادمة سألتني: ولكن كيف أنظِّف غرفتكِ مدام؟!

- حين أكون موجودة.

***

بعد ليلتين طرَق الباب: إياكَ أن تدخل، قلتُ له.

كان بمستطاعي أن أشعر بحركة يده التي تطوف حول يد الباب، وبقدميه الحائرتين اللتين تتحرّكان في مكانهما كمثقب يدور بلا جدوى.

سمعتُ خطواته تبتعد، بابه يغلق، وجسده يندسُّ في السرير ويتكوّم!

بعد ثلاث ليال كرّر المحاولة، بعد أربع.

فقدَ الأمل.

***

لا أستطيع أن أتحدّث عن مشاعري تجاه تلك اللحظة التي رأيتُ فيها ثوب نومي يُغتصب، كما لا أستطيع أن أتحدّث عن مشاعري تجاه سجلِّ فحولته الذي قذفه في وجهي.

طردتُ سلمان من داخلي، وأنا على يقين من أن ذلك سيكون إلى غير رجعة!

***

اتّصلتْ بي صديقتي فيروز، الطبيبة، وهي دودة كتب بكلّ ما تعنيه الكلمة، وأخبرتني أن هنالك حفل تكريم يقام على شرف أحد المؤرخين في مركز الحسين الثقافي، واقترحتْ عليّ أن أخرج مما أنا فيه! ولم تكن تعرف إلا القليل منه! ولو كانت تعرف الكثير لاستدعتْ قوات الدفاع المدني لإخراجي من تلك الحفرة التي عِلقتُ في قعرها!

بصورة لا إرادية، وافقتُها، ولو اقترحتْ أي شيء آخر، غير منطقي لوافقتها أيضا! لو قالت لي: عليّ أن أستأصل رأسك لأُريحك من هذه الحبّة الصغيرة على خدك، لما قلت لا! ولو قالت لي: لمَ لا نذهب لاصطياد بعض الفتيان الذين هم بعمر أولادنا، لما قلت لا!

في السادسة من مساء ذلك اليوم، كنتُ أنتظرها أمام باب البناية التي تضمّ مكتبي؛ حين أصبحتُ إلى جانبها، نظرتْ إلى الأعلى وقالت: ألا يريد أن يرفع اسمه عن يافطة المكتب؟!

- لا!

- ولماذا لا؟!

- لأنه مصرٌّ على هذا الوجود، حتى لو كان فارغا، يهمّه الأمر رمزيًّا!

- وأنتِ؟ هل يهمّكِ ذلك؟

صادما كان سؤالها. صمتُّ.

غيَّرتِ الموضوعَ بسرعة، وبدأتْ تتحدّث عن حالات نصب استثنائية تعرّضتْ لها كطبيبة في الفترة الأخيرة، إحداها، بطلتها سيدة تأتي وتبدأ بالحديث عن مصائبها، قالت، مما يضطرّني إلى إعطائها أدوية مجانية، وإجراء عمليات بسيطة لها مجانا؛ ولكنني فوجئت بتلك السيدة ذات صباح تقود أحدث سيارة مرسيدس. نظرتُ إليها مباشرة وهي بجانبي أمام الإشارة الضوئية، فتغيرتْ ملامح وجهها كما لو أنها رأت شبحًا!

ثم سألتني: ما الذي يريده هؤلاء أكثر مما يملكونه؟!

***

كان التكريم تقليديًّا إلى حدٍّ مملٍّ: كلمات مستعادة، يمكن أن تكون صالحة لأي تكريم، مثل مرافعة يتيمة لمحام غبيٍّ يعيد تقديمها في كلِّ مرّة دفاعا عن كلِّ متَّهم يكون وكيلا عنه!

فتح عريف الحفل الباب للحضور ليُدلي مَن يريدُ بشهادته، راجيًا ألا تتجاوز مدّة المداخلة ثلاث دقائق.

نكزتُ صديقتي أدعوها إلى النهوض، بعد كلمات لم تستطع أيّ منها أن تُنسيني ما أنا فيه، ولو، لعشر ثوان!

مالتْ نحوي وقالت: عيب أن نخرج الآن، فالذي يكرِّمونه والد زميلة لي، ويجب أن أهنئه وأهنئها بعد انتهاء الحفل!

تحدّث رجل كان من جيل المُكرَّم، فأحسستُ به يَرثي نفسه ويرثي المكرَّم ويرثينا أحياء! ولكنه لحسن الحظ لم يُطِل.

وتحدّث آخر مُستعرضا معلوماتِه من ورقة يبدو أنه أعدَّها خصيصا قبل الحفل، أو أعدَّها له غيره! إذ بدا مرتبكا أثناء قراءته لها، مثل من لم يحفظ درْسه!

رفع أحد الحضور يده وكان يجلس قبالتنا تقريبا، خلف واحدة من الطاولات التي رُتِّبتْ على شكل مربع ضخم؛ فعجبتُ من أنني لم أره، كان في أوائل العقد السادس من عمره، ربما؛ بدا أنيقا بقميص أبيض وجاكيت كتان أُفْ وايت، شعر ناعم، يتخلله شيب، ذكّرني بشعر الممثل ريتشارد جير!

لسبب ما تمنّيت ألا يَسمح له عريف الحفل بالكلام. سيتكلَّم ويُفسِد صورته الجميلة هذه! كنتُ علي يقين من أن هذا سيحدث! وحين سَمح له بالكلام، قائلا: تفضل دكتور كريم. تململتُ لأقف، فشدَّتني فيروز

وألصقتْني بالكرسي من جديد!

- مضطرَّة! سأعود سريعًا.

قبل أن أصل الباب الضخم للقاعة، سمعتُ مستوى آخر من الكلام. جمّدني مكاني. استدرتُ ونظرتُ إليه، مُسندَة ظهري إلى الحائط جوار الباب. راح يتحدّث بفصاحة وجمال وعمق وتأثُّر عن الشخص المُحتفى به، إلى حدٍّ أنني تسللتُ عائدة إلى مكاني!

التفتتْ إليَّ صديقتي مُستغربة. لكنها لم تكن تريد أن تُضيِّع لحظة واحدة، وواصلت استماعها بسعادة.

لا أستطيع إلا أن أقول: لقد تجاوزتْ مداخلتُه الدقائق الثلاث بكثير، لكن أحدًا لم يجرؤ على مقاطعته، حتى عريف الحفل بدا سعيدًا وقد تخلّى عن ضرورة الالتزام بالوقت المحدّد!

حين انتهى، وجدتُ نفسي أصفِّق، وهنا التقتْ عيناي بعينيه لأوّل مرّة. تبعتْني القاعة مصفِّقةً له بحرارة.

قلت لها: أخيرا سمعنا كلاما رائعًا!

- كنتِ ستُضيِّعينه بحاجتكِ المُلحَّة!

***

دبَّت الفوضى التي تعقب عادة مثل هذه الندوات. شدّتني صديقتي من يدي نحو مُقدّمة القاعة لنهنئ صديقتها وأباها على التكريم. نظرتُ إلى حيث كان ذلك الدكتور الذي تحدّث، لم أجده. فرُحتُ أبحث عنه بجنون داخل القاعة!

كنتُ على يقين من أنني فقدتهُ، فقدته إلى الأبد.

هنَّأتُ المُكرَّمَ وابنته بسرعة، وتركتُ صديقتي غارقة في مجاملاتها، وخرجتُ.

كانت المساحة الصغيرة أمام القاعة عامرةً بالحياة، إذ بدأ الحاضرون

باحتساء الشّاي والقهوة والعصير وتـذوّق المعجنـات والحلويـات التـي وضِعتْ فوق صفٍّ من الطاولات بكرم واضح!

لم أستطع معرفة الاتجاه الذي يمكن أن أسير فيه.

سمعتُ صوتا، يقول لي: مرحبًا.

التفتُّ: كان هو!

- أهلا.

- كريم، الدكتور كريم.

- ديانا، محامية.

- أهلا أستاذة. أعترف لك أنك رفعتِ معنوياتي! كنتُ مرتبكا لأنني لم أكن أعرف هل ما أقولـه ضروريّ أم لا، فالرجـل الـذي نكرِّمـه أكـبر بكثيرٍ من أيِّ كلمات، إلى أن رأيتكِ وسمعتكِ تصفّقين، فارتبكتُ أكثر!

- ولماذا ترتبك أكثر؟!

- خشيت أنكِ الشخصَ الوحيد في القاعة الذي تقبَّل كلامي بمودّة؛ وكنت على يقين من أن أحدًا لن يصفّق معك!

- تواضع هذا، أم حقيقة؟!

- بل الحقيقة. تخيّلي لو أن أحدًا لم يصفّق، سواكِ؟!

- كنتُ سأضعكَ في موقف محُرج بالتأكيد. ولكنني فعلتُهـا لأننـي لم أُجْرِ كلَّ هذه الحسابات، وما كان يمكـن لي أن أجريهـا في لحظـة قـصيرة كتلك! على أي حال مرَّتْ بسلام، ولكنني سعيدة لأنني فعلتُ ما فعلت.

- أنت امرأة مستقلة إذًا، يهمّك ما تؤمنين به، أيّا كانت النتائج!

- أيا كانت النتائج؟! مستحيل؟ لا أنـا، ولا أنـتَ، ولا أي شـخص رأيته في حياتي، لا تهمّه النتائج، إننا نقول ذلك فقط لنمنح أنفسنا بعـض الجرأة حين نكون وحيدين أمام تحدٍّ هائل!

المفاجأة التي لم أتوقّعها، أنه بدأ يُصفِّق لي! لكن، لحسن الحـظّ، كـان

من الصعب أن يسمع أحد تصفيقه الخافت.

- تخيَّلي لو أنني صفّقتُ لكِ بقوة الآن!

- كارثة! لن يصفّق أحد، وسأذوب خجلا. وأنتَ؟

- سأكون فعلتُ ما فعلته وأنا حزين، لأن تصفيقي لم يُفهم تمامًا من قِبَل الموجودين!

نظر إلى ساعته، وقال: عذرًا. إنها السابعة والنصف، وعليَّ أن أنتهي من واجب سأقدِّمه غدًا!

- في الجامعة؟!

- تقريبًا.

وصافحني وابتعد.

التفتُّ ورائي، كانت فيروز تُربِّتُ على كتفي كما لو أنها تطلب إذنًا بالدّخول! في الوقت الذي كنتُ أفكر في فقداني لذلك الرّجل الذي لن أراه بعد ذلك أبدًا، رغم أن عمّان صغيرة ولا أحد يضيع فيها!

استدرتُ نحوها حزينة، سألتْني: مالكِ؟ ألم تقضِي حاجتك الملحَّة بعد؟ لونك كامد!

في تلك اللحظة سمعتُ صوته يأتي من ورائي؛ صوت لا يمكن أن أنساه: أستاذة ديانا.

استدرتُ: نسيتُ أن أقول لك: فرصة سعيدة! وناولني بطاقته.

- فرصة سعيدة!

راقبته يبتعد، وحين استدرتُ صوب صديقتي، كنتُ أبتسم، قالت لي: الله! ما الذي يدور؟!

فتحتُ سحَّاب الحقيبة، ودفعتُ بطاقته البيضاء إلى أبعد زاوية فيها!

نظريات قلقة!

حضور أمسية التكريم ترك في داخلي مشاعر غريبة، ربما أحسّها لأول مرّة! إذ كنتُ طوالها أفكر في أننا قادمون لوداع ميّت لم يمت بعد، ميت حيّ.

استعدتُ ذكريات لقائي الأول به، كواحد من ألمع الأساتذة الجامعيين، استعدتُ نباهته وجدِّيته الصّارمتين، واستعدتُ فصولا كثيرة من كتبه -كانت ضمن مراجعي لرسالة الدكتوراه-. استعدتُ مراسلاتي معه، حين تجرأتُ وعرضتُ عليه خطة الرّسالة، وكيف كان يناقشني متحمّسا، كما لو أنني لم أزل واحدا من طلبته. أكثر ما أثّر بي، خلال الأمسية، اكتشافي أنه كان في تلك الأيام أصغر مني الآن! كنتُ أظن أنني لن أستطيع بلوغ عمره، وها أنا أتجاوز عمره ذاك! أما الفرق بين عمرينا، الفرق الذي بدا لي كبيرا وشاسعا في تلك الأيام، فيكاد يكون لا شيء اليوم؛ فما يفصلني عن أن أكون في مكانه مكرَّما، هذا إذا ما وجدتُ أحدًا يكرِّمني! ما يفصلني عن ذلك ربما ليس أكثر من عشرين سنة!

يهيأ لي أننا ما إن ندخل الخمسين حتى نصبح كلنا في عمر واحد! لكن زميلا من كلية الآداب حدّثني أنه التقى الكاتب جبرا إبراهيم جبرا في سهرة أقامتها على شرفه، في عمّان، ممثلة مسرحية، قبل عام من وفاته، وكان جبرا في الرابعة والسبعين، حدّثني أن جبرا قال: أنا مستعد لعمل أي شيء من أجل أن أعود إلى الخمسين! ذلك القول أربك إحساسي، إذ

لم يقل: من أجل أن أعود إلى الستين.

أما أنا، فقد كنتُ طوّرتُ نظرية خاصة، وهي أن على الرجل أن يعيش، ما دام ذلك (الشيء) قويّا ونشطا وفعّالا! وعندما يميلُ، ذلك الشيء، مترنّحا مثل سكير منكفئ، آخر الليل، على الرصيف، يجب أن يميل صاحب الشيء معه ويموت أيضا! إذ لا يجوز أن يعيش بعده، وقد كانا شريكين في الجمال والمتعة ورحلة البحث المُضنية عن ينابيع السعادة!

كان يشغلني هذا قبل اختراع الحبة الزرقاء، التي، والحمد لله، لست بحاجة إليها حتى الآن!

أستاذي الفرنسي الذي قال لي ذات يوم: صحَّتي جيدة، ولكنني لا أعرف ما الذي أفعله بها! ضربَ أركان نظريتي هذه بقنبلة من تلك المخصصة لتدمير الملاجئ العميقة والأساسات؛ زلزل نظريتي لفترة طويلة، لأنه جعلني أصل إلى نتيجة تقول: إن أسوأ ما يمكن أن يصيبك كرجل هو عارُ الرَّكضِ خلف امرأة لا تريدك بسبب عمْرك بالذات! بغضّ النظر عن مدى فاعليّتك!

ما أدهشني اليوم أنني أُعجبت فعلا بتلك المحامية، ديانا، مع أن ما يثير شهية الصياد عندي هنّ الصغيرات، وبالتحديد، اللواتي لم يتجاوزن الثلاثين إلا قليلا.

لا تبدو ديانا هذه بعيدة كثيرا عن الثلاثينات! إذ تبدو ممشوقة بصورة مذهلة، وفي عينيها دفء غريب، وفي لمسة يدها من الدفء ما يكفي لإحياء ميت في القطب الشمالي! أنف دقيق وعينان عسليّتان واسعتان عميقتان، وشعر طويل يغطي نهديها النافرين، ووجه صغير أقرب ما يكون إلى وجه فتاة لم تبلغ العشرين، وسمرة مشتقة من قهوة نحاسية لا من الليل! كانت أقرب ما تكون إلى كلوديا كاردينالي، كما ظهرت في فيلم (الفهد)، أو (حدث ذات مرة في الغرب)، كلوديا التي جعلتني أحمل

فيلميها هذين، من باريس إلى الكويت، إلى عمان!

لا أعرف إن كنت أبالغ أم أقول الحقيقة! لكن الشيء الذي لا أستطيع أن أنكره، هو أنني بعد أن أصبحتُ داخل المصعد، قفزتُ ثانية خارجه، لأنني خشيتُ أن أُضيِّعها. وحين ناولتها بطاقتي وعدتُ، قلتُ في نفسي: جميل أنكَ أعطيتَ نفسك فرصة! أعطيتَ ديانا فرصة، لأن تفكِّر بحريَّة: أتتصل بك أم لا؟ تحتفظ ببطاقتك أم تُلقي بها في أقرب سلّة للمهملات، حتى قبل أن تغادر مكان انعقاد احتفال التكريم؟!

***

في طريقي من رأس العين صعودًا إلى الدوَّار الثالث في جبل عمان، انتابني إحساس مختلف تماما، بحيث تحسّستُ صدري وبطني فعلا، انتابني إحساس بأنني أصبحتُ فارغًا من الدّاخل بعد أن قمتُ بضخٍّ كل ما فيَّ إلى داخل سلمان بيك!

أكانت دهشتي بديانا هي أول إدراك حقيقي بأنني بدأت أفرغ، أو أنني على وشك ذلك، وأنني مستعد لأن أفعل أي شيء لأعيد شحن قلبي بالحياة؟!

ربما. لكن، عليّ أن أعترف أنها امرأة من النادرات اللواتي لا يتركنك لحظة تتساءل عن أعمارهنّ، لفرط جمالهن وسطوة حضورهنّ الآسر.

- أتتمنى أن تتصل بك؟ سألتُ نفسي، وأجبتُ: بالتأكيد، أتمنّى ذلك.

***

لم يكن لديَّ بعد عشر قصص كتبتُها ما يثير الاهتمام! ولأعترف أنني أضفت بعض الحوادث إلى بعض القصص الأخيرة لتبدو جذابة أكثر ومثيرة أكثر، ولأعترف أنني اختلقتُ نهاياتٍ تمنَّيتها، وأنني أكملتُ حكايات ناقصةً لم أحقِّق فيها سوى الخيبة! لأن هذه المرأة، أو تلك،

أدارتْ لي ظهرها في اللحظة الحاسمة، أو اختصرتِ الطريقَ عليَّ حين قالت وكأنها تشتمني: أحب أن أقول لك إنني متزوِّجة، وسأبقى متزوجة! أو تقول لي أخرى: أخطأتَ، لأنني على علاقة بشاب أعتبره أغلى من عينيَّ! أو أخرى قاتلتُ لأصِلها، فلم أجد سوى باب مغلق في وجهي، مثل تلك الطالبة اللعينة نُهى التي سبَّبتْ لي من المتاعب أصعبها، بحيث يمكن أن ينطبق عليها بيت الشعر العربي: إن البعوضة تُدمي مقلةَ الأسدِ! مع أنها في الحقيقة واحدة من أجمل الغزالات إثارة وجمالا!

أفكِّر في تلك الأيام، وأستعيد فكرتي السّاذجة عن أحوال تلك الـ (نُّهى): ها هي بعيدة عن أهلها، وحيدة، مثل أي غزالة ابتعدتْ كثيرا عن قطيعها، وأصبح التهامها سهلا! لكنها استطاعت أن تلتهم ذلك النّمر أو الضَّبع الذي يفكر في التهامها، نجحت أن تلتهمني، تلتهم هذا الكهل مرتين، مرَّة أمام الطلبة بذكائها المفرط، ومرَّة بدهائها حين جعلتني أركض بنفسي للوقوع في فخ سلمان بيك. داهية!

- لعلمك، سلمان بيك ليس خالي! قالت لي في اليوم التالي الذي هنّأتُ فيه سلمان بيك بنجاح ابنة أخته بدرجة 90! أنا الذي أمضيتُ الليل مرتبكا خائفا أن يصرخ سلمان بيك في وجهي: إنها ابنة أختي وأعرفها، إنها أذكى من ذلك بكثير، ألا يُقال بأن ثلثَي الولد لخاله، فهل تعني أن ذكائي لا يتجاوز هذه العلامة؟! لكنه صمتَ يومها، وأنا أهنئه، فخفتُ أكثر، وتبيّن أن خوفي كان في مكانه!

***

حين وصلتُ إلى تلك الشّقة في جبل اللويبدة، كنتُ قد أصبحتُ حانقا على كلِّ شيء، على نفسي وعلى سلمان بيك، وعلى تلك المفعوصة التي تسبّبتْ في كل هذا الذي أنا فيه. لم تذلّني لحظة فقط، بل إنها تواصل إذلالي منذ ثلاثة أعوام، فها أنا أكتب له دون توقّف، وأتركه يتباهى

بفتوحاته وسط حلقته الصغيرة، حلقة السبعة الكبار!

كنتُ أحسُّ بعطش قاتل، دخلتُ المطبخ. كانت صناديق النبيذ الثلاثة على حالها، لم ألمسها لسبب غامض! أشرعتُ باب الثلاجة وشربتُ لتر ماء على الأقل.

سرتُ نحو الشّرفة، نظرتُ إلى الأسفل، فبدا لي أن قعرَ ذلك الجُرف قد ازداد!

***

حمدتُ الله لأن سلمان بيك لم يطلب مني بقية حكاية إيزابيل، أعني ذلك الجزء الذي جرى في عمان، إذ كان عليَّ أن أكذب كثيرا، أكثر مما يجب، لكي تبدو الحكاية منطقية. كان عليَّ أن أستبدل اسم ذلك الشخص، زميلي الناقد في كلية الآداب، الذي عرفتُ منه، مصادفةً، بقيّة القصة، زميلي الذي كان أحد ضيوف ذلك العشاء الذي أقامه، في مطعم (تنّورين) بمنطقة أم أذينة، ذلك الكاتب الشهير، الذي يصعب عليَّ اختراع اسم آخر له، مختلف، أو أن أحوِّل تخصصه الأدبي من شاعر إلى موسيقي أو من مغن شهير إلى ممثل!

***

في اليوم التالي لوصول إيزابيل إلى عمان، الليلة التي أمضيتُ قسما منها معها: حتى العاشرة مساء، في سيارتي، في شارع جانبي بمنطقة تبعد عن المطار خمسة كيلومترات على الأقل! في تلك الليلة التي تبيّن لي فيها أن السيارة يمكن أن تكون أوسع من غرفة نوم ملكيَّة! قال لي ذلك الزميل في صباحها: لقد كنتُ الليلة الماضية ضيف (...) على العشاء في أحد المطاعم! فسألته إن كانت الجلسة جميلة، فأخبرني أنها لم تكن كذلك للأسف! فسألته لماذا، فقال: لقد أمضينا ساعتين على الأقل في انتظار ضيفته الفرنسية!

عند ذلك خفق قلبي بشدّة.

- وماذا حدث، هل أتتْ في النهاية؟

- أتت، بعد العاشرة بقليل، وكان مُضيفُنا قد فقَدَ صبره، لكنها حين دخلتْ عرفْنا أن الحقّ معه في أن ينتظرها طويلا وننتظرها معه أيضا! ماذا أقول: كانت ملكة جمال حقيقية، وساحرة. بابتسامة واحدة أعادت له البهجة!

- هل كنتم في مطعم تنّورين؟!

- كيف عرفتَ؟!

- لم أعرف، ولكنني قدّرتُ ذلك، يمكن أن تقول: حاولتُ ونجحتُ!

***

نهاية كهذه ما كان يمكن أن تكون سارَّة بالنسبة لسلمان بيك، كان سيمزِّقها ويلقي بها في وجهي، مع أن بطلها أعترف بأن هذا حدث، وأن إيزابيل كانت تعمل على موجتين، مثلما حدث في تلك الليلة الكبيرة في ليون.

قلتُ، سيحسّ سلمان بيك بأن كبرياءه انجرح، وأن فصلا كهذا لا يجوز أن يكون من فصول كتاب شيئه. لأن أيّ امرأة تعرفه، وتعرف حجم فحولته لا يمكن أن تنظر إلى سواه، أو تطعنه من الخلف!

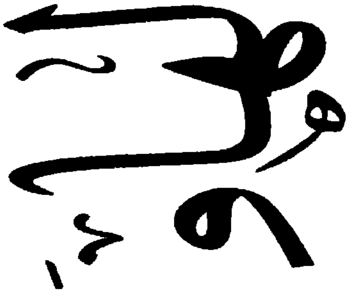
***

سأكتب له الليلة حكايتي مع ديانا وسأستفيض! سأرسم سيناريو علاقتنا المستقبلية، وأضيف! سأختلق أحداثا أقوى من تلك التي عشتها من قبل! سأفعل العجائب! وأظن أنه بحاجة لعلاقة فيها بعض الغموض، وليس هنالك ما هو أكثر غموضا من علاقة مع امرأة، لنقل متزوِّجة من رجل متنفّذ، تعيش في عمان! تخيلتُ كيف ستمزّق قصة

مشوقة كهذه قلوب سامعيه وهم يحاولون معرفة شخصية تلك المرأة الغامضة الأشبه بالملكات!

لسبب لا أعرفه، تراجعتُ عن الفكرة! حين انتابني شعور غريب، بأن هذه المرأة لي! وإذا ما اتّصلتْ بي ذات يوم وتعرَّفت إليها أكثر، فلن أكتب له حكايتها. انتابني شعور بأنني أنفقتُ رصيدي الكبير كاملا في لعبة المقامرة التي قبلتُ بها مضطرًّا: حياة بذاكرة؟ أم ذاكرة بلا حياة؟! وعاهدتُ نفسي إذا ما اتّصلتْ فستكون حكايتي معها الحكاية التي لن أهدرها مهما كان الثمن!

- أي ثمن؟! سألت نفسي، وأجبت: أيّ ثمن! المهم أن تتّصِل!



الخروج إلى الداخل

الأصل، والأصل أيضا!

لا أستطيع أن أقول إن التاريخ يعيد نفسه، بل البشر يعيدون الأخطاء نفسها، لأنني على يقين من أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يتعلَّم من أخطائه – باستثناء العلماء في مختبراتهم، ربما-. فكَّرتُ كثيرًا في هذه المسألة، في القدرة الهائلة للخطأ على الإغواء، على جرِّ الإنسان إليه بجاذبية تفوق جاذبية الكرة الأرضية ألف مرّة على الأقل!

هناك معارك خاسرة نخوضها، ونهزم فيها بقسوة لا تحتملها أرواحنا، ولا مكانتنا، ولا قوتنا، ولا ظروفنا، ولكننا نخوضها من جديد كلما فَتحتْ لنا الهاوية شرفتها لنطلَّ على نهايتها السّحيقة!

***

في الفصل الثاني للسنة الدراسية الثانية لعودتي، دخلتْ تلك الفتاة بهدوء، وجلستْ في المكان الذي كانت تجلس فيه نُهى قبل ثلاثة أعوام. أبعدتْ شعرها الأسود الطويل عن جبينها، وبحركة ماهرةٍ، ساحرةٍ، حشرتْ تلك الخصلة المُتمرِّدة من شَعرها خلف أذنها اليمنى من جهتي. كانت نسخة مثالية عن نُهى!

لم يخفق قلبي كما خفق في تلك اللحظة، وعصفتْ بي مشاعر متناقضة. أن أتقدَّم نحوها من جديد كما تقدّمتُ وبالغتُ في التقدُّم من نُهى؟! أم أُقفل الموضوع من أوَّله، وأتعامل معها كما لو أنها غير موجودة؟!

***

هناك معارك قديمة لم تُحسم، تتجـدّد كلـما وجـدنا أنفـسنا في سـاحة صالحة لإشعال الحرب من جديد!

فكّرتُ في البداية أن الفتاة الجديدة ربـما تكـون أختهـا، بـل لا بـدَّ أن تكون أختها، وفي موجة حمّى أصابت عقلي، قلتُ، ولماذا لا تكون هي؟!

لكنّها لم تكن!

طلبتُ من الطلبة أن يُقدّموا أنفسهم لي ولزملائهم كالعادة. ولم يطـل انتظاري: سامية رمضان.

ليست هي إذن!

ولكن هل تكون أختها؟ حاولتُ تذكُّر الاسم الثاني لنُهى لم أستطع.

بعد أن انتهيتُ من كلامي، وفتحتُ باب الأسـئلة والنقـاش، كانـت أول من يرفع يده في القاعة ويسأل: مـا هـي اللحظـة الحاسـمة في ظنّـك دكتور، التي يمكن أن يعتبر الإنسان نفسه فيها أنه أصـبح جـزءا حقيقيـا من جماعة؟ وإذا كان هذا قد تحقّق، فمتى يمكن أن يكون الإنسان نفسه؟

سجَّلتُ سؤالها، وتركتُ المجال مفتوحا للطلبـة لمواصـلة أسـئلتهم. وأنا أراقب حركتها الأثيرة: حشْر خـصلة الـشَّعر المتمـرّدة خلـف أذنهـا اليمنى من جهتي.

المفاجأة، أن مستوى الطلبة كان، أو على الأقل مستوى نسبة لا بـأس بها منهم، أفضل من مـستوى أيّ سـنة سـابقة. قلـتُ سـيريحني هـذا ممـا اعتدتُ عليه، وسواي، من التعامل مع كثير من الطلبة باعتبارهم تلاميـذ مدارس لا أكثر، بعد أن تراجعت الجامعة إلى درجـة أنهـا غـدت امتـدادًا عليلًا للمدرسة!

أثنيتُ على سؤالها حين جاء دوْري في الكلام؛ وكي لا أبالغ في مديحها أثنيتُ على سؤالين آخرين وجههما طالبان. كانت إجابـاتي مختـصرة، لأن

وقت المحاضرة لا يسمح بالتوسُّع في الإجابات كما أخبرتهم: لكن بعض الأسئلة سنحتفظ بها لنناقشها في محاضرات قادمة! ولم أنس أن أنظر إليها وأنا أقول ذلك كنوع من التقدير الخاص!

الصورة النهائية التي كوّنتُها عـن سـامية، أنهـا فتـاة تبـدو أكـبر مـن عمرها، ذكاءً ومعرفةً، لكنها على المستوى الإنساني قـد تكـون أقـلّ مـن جريئة!

***

حين خرجتُ من القاعة، بعد طلبتي، لا أعـرف لماذا خطـرتْ ببـالي تلك المحامية، ديانا؟! لا أعرف سرَّ تلك الرّغبة للالتقاء بها، هـي التـي لم أرها سوى مرّة واحدة، بل أقلّ من مرّة! تلك المرأة التي اختفت. شـهران على لقـائي بهـا مـرًّا، دون أن تظهـر أو تتّـصل، شـهران عـدتُ خلالهـما وحضرتُ نشاطات في مركز الحسين الثقافي مـرتين، وفي رابطـة الكتـاب ثلاث مرات، وحضرتُ حفل فلامنغو أقامته السفارة الإسبانية في المركـز الثقافي الملكي.

أما الفكرة الغريبة التي سكنتْني فكانت: تلك المرأة هي الحلّ.

لكن، كيف يمكن أن تكون الحلّ وقد اختفتْ؟!

قلت: اعتبرْها حلم، ولتنتبه للواقع!

***

أول شيء فعلته هو المرور بمكتب سُهاد، سـكرتيرة العميـد، طلبـت منها الكتابين السنويين لسنتَي 2007 و 2008. كان بإمكـاني أن أطلـب الكتاب السنويّ الأول، لأنّنـي لا أريـد سـواه، رغـم معرفتـي أن طلـب كتابين مناورة لن تمرّ ببساطة!

- اعتقدتُ أنكَ قادم لطلب يـد عـروس وتريـدني أن أتوسّـط لـكَ!

قالت سُهاد.

ضحكتُ: إلّا هذا!

- تريد نصيحتي؟! تزوَّج!

مدَّت يدها إلى الخزانة الخشبية خلْفها، وأخرجت الكتابَ الأول، ناولتْني إياه، واقفلت الخزانة!

- أريد كتاب 2008 أيضًا!

- تريده للتّمويه؟! وصمتتْ، ثم أضافت: انتبه لنفسك، إذا ما انكسرتْ عظامنا في مثل هذا العمر، لن يكون الشّفاء سهلا!

شددتُ على الكتاب السنويّ وخرجتُ. وصلتُ الباب، التفتُّ وشكرتها. لم ترُد، كانت ساهمة، تهزّ رأسها بأسى غير عادي.

***

لم أنتظر وصولي إلى مكتبي؛ بدأت البحث عن صورة نهى بين الخريجين في الممرّ، لكنني لم أعثر عليها إلا بعد أن جلستُ خلف طاولتي. نظرتُ إلى الاسم الثاني والثالث، لم يكن أحدهما (رمضان). أخذتُ نفسًا عميقا، وعدتُ إلى الوراء، والكتاب أمامي مستند إلى غلافيه السميكين مفتوحا.

كانت نهى نسخة مطابقة لسامية، كما لو أنهما توأمان.

أي مصادفة هذه؟! تساءلت.

***

أمضيت الليل في استرجاع أخطائي التي ارتكبتُها مع نُهى، والكتاب السنويّ أمامي، وقررتُ أن عليّ تجنّب تلك الأخطاء مهما كان الثمن! رغم معرفتي أن بعض أساليب التقرُّب من طالبة، لا بدَّ أن تتكرّر، لأن المناورة في حيِّز ضيق، محدودة أصلا، مهما ابتكرتَ فلن تبتكر جديدًا!

صباح اليوم التالي، مررتُ بمكتب سهاد: صباح الخير!

- صباح النور، هل سمعتَ آخر نكتة؟!

- ما دامت الأخيرة، لم أسمعها!

- شوف يا سيدي: قالوا لرئيس البلدية الجديد، وكانْ حشّاش: بـدنا نعمل سور للمقبرة! سألهم: ليش في واحد من الميتين هرب؟!

ابتسمتُ، فقالت لي: لم تضحك كما يجب يـا رجـل! نـاسي قلبـك في البيت؟!

- أكيد لأ!

- طمّنتني! ثم همستْ: كأنني لمحتُ نُهى اليوم في الجامعة؟!

- ليستْ نُهى!

- هل تعرف دكتور كريم، ما زلتُ منذ أن سمعتُ النكتة أفكِّر: لمـاذا لا يهرب الميّتون؟!

- لأن هنالك أسوارا للمقابر! وحاولتُ أن أضحك.

- أعتقد، والعِلم عند الله، قالت، أن الميّتين حـين يجـدون أنفسَهم في الحفرة، يبدأون العمل فورا للخروج! ولكنهم بدل أن يحفروا في الأعـلى، يحفرون في الأسفل. انتبه لروحك!

الورقة الأخيرة!

رغم أنني أعتبر نفسي قارئة جيدة، إلا أنني لم أكن أحبُّ الذهاب إلى الندوات الثقافية، كان أكثر ما أخشاه أن تصدمني الصورة التي كوَّنتها لكاتب ما. ولم يكن ذهابي لحفل التكريم ذاك، إلا لعلْمي بأن المحتفى به سيودِّعنا قريبا! ربما أبالغ قليلا هنا، لأنني، في الحقيقة، أتمنّى له طول العمر. فما سمعته عنه يؤكد أنه يستحقّ طول العمر والصّحة.

أتحدّث هنا ببرود شديد عن تلك الأمسية، لأن أكثر ما خشيته منذ ذلك اليوم، هو أن أمدَّ يدي وأستخرج تلك البطاقة الصغيرة، التي حرصتُ على زجِّها في الجيب السِّريِّ المعتم داخل حقيبتي، قبل أن أنظر إليها.

لسبب ما اكتفيتُ باسمه الأول: الدكتور كريم! ما الذي أريده أكثر من ذلك؟ بدأت أخشى هؤلاء البلغاء منذ سلمان! ولكنني لم أكن قادرة على مقاومة سحر من أشعر بصدقهم حين أراهم على شاشات التلفزيونات في مناظرات وحوارات لا تنتهي. لكن، ولأعترف، أن شيئا ظلَّ يشغلني ويجرّني إلى ما قاله كريم، ربما لأن فيه كثيرا من الوفاء والبساطة الجميلة، ربما لأنه لم يكن بليغًا كما ينبغي أن تكون البلاغة، بل صادقا كما ينبغي أن يكون الصِّدق. لكنني كنت أعلم أيضا أن السّير في الاتجاه المعاكس لزواجي من سلمان أمرٌ لا أستطيع تخيّله. بصورة من الصور كنتُ ضعيفة أمام سلمان، وإن كان لي أن أعترف، فسأعترف أنه

كان يسعدني حقًا كامرأة، ولم أكن أنتبه لوجود عقل في رأسي إلا بعد أن أصحو من كل إغفاءة تعقب انصهارنا!

ذلك أصبح خلفي الآن، وإن كنت أتمنى بين حين وآخر، أن أشرع لسلمان الباب بنفسي!

***

بعد شهرين، قررتُ أن أرى تلك البطاقة التي كنتُ أخرجتها من حقيبتي ووضعتها في خزنة المكتب المُحصَّنة، دون أن أرى ما فيها.

تساءلت عن معنى وضْعها في الخزنة، أهو الحرص عليها يا ديانا؟ أم الخوف من أن يراها سلمان؟! مع أن مكتبك وحقيبتك وغرفة نومك فيها مئات البطاقات لزبائن وأصدقاء وزملاء وشهود وضحايا وقتلةٍ أيضا!

أخرجتُها. أمسكتها، وأنا أنظر إلى الجهة الخالية من الكتابة، ووضعتُها على مكتبي محدِّقةً فيها، مثل مقامر يعرف أن هلاكه في الورقة الأخيرة ونجاته فيها.

ربما كنت أميل أكثر إلى احتمال هلاكي فيها! ولهذا السبب أمضيتُ ساعتين أمامها، مرّة أفكِّر في إعادتها إلى الخزنة ومرَّة أفكر في تمزيقها لكي تظلَّ مجهولة إلى الأبد. لكنَّ من انتصر أخيرا هو فضولي وتلك اللعنة التي قد تكون في جيناتي والمتمثلة في حبِّ البلاغة!

على مهل قرأتُ اسمه، تخصُّصه، وحين وصلتُ إلى اسم الجامعة التي يعمل فيها، فزعتُ، خبأتها تحت يدي بسرعة كما لو أن ألف سلمان أطبقوا عليَّ في تلك اللحظة.

أيّ شقاء هذا يا ديانا! لم يعجبكِ من رجال البلد كلّهم سوى ذلك الدكتور الذي يقبض راتبه من جيب زوجك؟! قلتُ لنفسي، ونهضتُ، لا أعرف إلى أين أتجه، إلى أن وجدتني أدور حول نفسي في مكتبي المغلق كمروحة السّقف!

بعد نصف ساعة، عدتُ وجلستُ خلف طاولتي، محاذرة لمس تلك البطاقة، كما لو أنها مادة فوسفورية حارقة تتغلغل في الجلد مذيبة اللحم وسارقة الروح!

***

من أسوأ الأمور أن يكون لديك سرٌّ ولكنك لا تستطيع البوح به لأحد، ببساطة لأنك بلا أصدقاء، أو لأن السرَّ أكبر من أيّ صداقة تعتزّ بها!

كنت بحاجة لشخص واحد أقول له نصف الحقيقة، رُبعها، عُشْرها، لكي يكون للهواء مساحة النصف أو الربع أو العُشر، في رئتَي، حتى أستطيع التنفّس. وكنت أعرف ما ستقوله لي فيروز! ما قالته: أتركيه، هنالك ألفُ سبب لكي تفعلي ذلك!!

- وهل تعتقدين أن كلّ هؤلاء الذين يواصلون حياتهم، لديهم ألف سبب لاستمرارهم معا؟!

- ماذا تعنين؟!

- أعني أن السبب ليس دائما هو المسألة الفاصلة في لماذا فعلنا هذا، ولماذا لم نفعل ذاك؟

- أيضا ماذا تعنين؟!

- ما دمت تتحدّثين عن الإنسان، فأنت تتحدّثين عن فوضى لا نهاية لها في داخله! هذا ما أفكّر فيه منذ تزوّجت سلمان.

- ولكنك امرأة واعية؟

- ومن قال لك إن الوعي سبب كاف للنجاة دائما؟!

- إذًا، عليك أن تبحثي جيدا في داخلك! أخشى أن تكوني قد أضعتِ مفتاح هذا الوعي.

- مفتاح؟!

- نعم مفتاح! ربما يكون هـذا المفتـاح إرادتـك، احترامـك لـذاتك، اعتقاداتك، ضميرك، أي شيء هو في ظني وعي وعيك، أخلاقياته!

- تصعِّبين الأمور عليّ!

- ليس أكثر مما تصعِّبينها على نفسك!

***

ثلاثة أسابيع أخرى مرَّتْ، أمضيتُ معظم لياليها مع صديقتي فيروز في دور الـسينما، شـاهدنا أفلامـا تـستحقّ، وأخـرى لا تـساوي نفقـات العرض! لكنني في كل مرة كنت أخرج مـن هنـاك أقـل تـوتُّرا؛ وفي كـل مجمع تجاريٍّ يضم دورا للسينما اشتريتُ كتبا من المكتبـات الفخمـة التـي فيه، رغم التحذير المتكرّر لـصديقتي مـن أن الأسـعار هنـا عاليـة جـدا، وبثمن الكتاب يمكن أن نشتري كتابين من وسـط البلـد! ودائـما أعيـد: النزول إلى وسط البلد يوتّرني، الازدحام يوتّرني، رائحة الدّخان الصاعدة من عوادم السيارات تخنقني. فتقول لي: يكفيك شراء كتاب واحـد، وأنـا أتعهّد بأن أشتري لكِ البقية بنصف الثمن!

في النهاية استجبتُ لها، ولم أعد أشتري سوى الكتـاب الـذي أحـسُّ بأنني لن أستطيع النوم إن لم أقرأ بعض فصوله.

وبقي السرُّ هناك، في الخزنة.

***

أخبرني سلمان، الذي كان على اسـتعداد لعمـل أيّ شيء حتـى أعـود إليه، بأن هناك احتفالا بمناسـبة بيـع إحـدى شركاتنـا الوطنيـة الكـبرى لمستثمرين أجانب، وأن عليَّ أن أرافقه.

سألته: وما علاقتنا بهذا؟!

- تستطيعين القول إن الحفلة حفلتي أيضا، لأنـني مـن المـشاركين في ترتيب الصّفقة!

- ما الذي بعتموه هذه المرّة؟! سألته شبه ساخرة.
- شركة خاسرة، شركة أخرى خاسرة!
- أنت لا تعرف كم أنا معجبة بذكائكم، أنتم الذين تستطيعون الضحك على الشركات العالمية ببيعها شركاتنا الخاسرة بهذه البساطة!
- ما الذي تعنينه؟!
- أعجب كيف تواصلون انتهاككم لهذا البلد بلا توقّف!
- وهل شكتْ لكِ البلدُ لتدافعي عنها؟! إنها تعرف أكثر منك بأننا نفعل ذلك لمصلحتها!
- لمصلحتها؟ ألا توجد كلمة أخرى غير هذه توضّح لي ما تقومون به؟!
- ماذا تعنين؟
- أعني، سأرافقك! أتعرف لماذا؟ لكي أستمتع برؤية الأجانب الأغبياء!

لسبب ما، لم أكن أريد أن يظهر تفتتَ أسرتنا الصغيرة للعيان. كنت أعرف أن ذلك إن حدث، سيحوِّلني فريسة لألسن مجتمع لا يتقن سوى الثرثرة: إنه مجنون بحبها، لجمالها! هكذا يتمتمون الآن! لقد تركها لأنها لا تُنجب! سيتمتمون فيما بعد!

علي أيّ حال كنت أستسخف نفسي حين أعيد ما تخيلتُ أنهم قالوه أو ما سيقولونه، وأنقم عليه أكثر: ألهذا القاع من البؤس أوصلني؟ ومَن؟ أنا؟!

مرّة سألته: ولماذا لا تريدني أن أُنجب؟!
- أنت مشغولة وأنا مشغول، فمن سيربي الأولاد إذًا؟!
- أربيهم كما تربي ملايين الأمهات العاملات أبناءهنَّ!
- بصراحة، لا أريد، وأرجوك ألا تفتحي هذا الموضوع ثانية.

كنت غاضبة، فصرخت: لأنك لا تريد لهذا الجسد أن يترهل؟ لأنك تريد أن يظل تحتك اثنَي عشر شهرا في العام؟!

***

ذهبنا. وكعادته، ما إن نصل بوابة أيّ احتفال، حتى يصرَّ على أن تكون يده في يدي. أنظرُ إليه، يكون مبتسما وفخورا: أنظروا، هكذا تكون النساء وإلّا فلا!

تلك الليلة، حاولتُ الابتعاد عنه ما استطعتُ، والدّخول في أحاديث طويلة، مع من أجد نفسي معهم وجها لوجه، عن أشياء تهمّني، وأشياء لم أعرف أن لديّ قدرة على الخوض فيها، نسائيات مُستهلكة، وعموميات يمكن أن يتحدّث فيها البُكم أيضا دون توقّف!

***

- تعرف، لقد تأمّلتُ الأجانب الذين ضحكتم عليهم! فعلا، يبدون أغبياء! لو كان هنالك تقدير حقيقي لما تقومون به، لتمَّ تكريمكم على أعلى المستويات! لكن أظن أن عليكم الاستمرار في ما بدأتم به، بيعوا، بيعوا ما استطعتم، تخلصوا من كلّ ما هو خاسر!

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أن البلد خاسر أيضا، فأنت تعرف أكثر مني حجم ديونه، لماذا لا تفكرون ببيعه كلّه مرّة واحدة، بدل بيعه بالتقسيط؟! أعتقد أن ذلك سيكون مجديا وعمليّا أكثر!

- أنتِ ما زلتِ غاضبة عليّ، لهذا تقولين هذا الكلام!

عاتبَني بسبب ابتعادي عنه طوال السهرة، وقبل أن نصل البيت غيَّر استراتيجيته فجأة، وبدأ فصلا طويلا من الاعتذار غير المباشر على ما قاله وفعله، وعاد وأكّد لي أنه يحبني، وأن عليّ أن أنسى قليلا، ولو قليلا! ولأنني كنت أريد أن يسكتَ، وعدتُه: سأفعل! أعدكَ سأحاول أن

أتناسى! فشدّ على يدي بتأثّر. وقال: أعدك، سأكون أفضل!

عندما دخلنا البيت لم يتّجه إلى غرفته، بل ظلَّ يسير معي إلى باب غرفتي، أخرجتُ المفتاح، وانتظرتُ ابتعاده، لم يبتعد. قلتُ له: سلمان لا تُفسد الأمور أكثر!

كنت راقبته طوال السهرة، كان حريصا على صورة الرجل المؤمن، الذي يتفاخر بوجود كاس عصير البرتقال في يده، كما لو أنه تذكِرته لدخول الجنة!

- لقد اعتذرتُ، كم مرَّة عليَّ أن أعتذر، في النهاية أنتِ زوجتي، وهذا حقي!

- كان حقّكَ في يوم مضى! أما الآن فليس مسموحا لك الاقتراب مني إلا إذا كنا في سهرة عند أحدهم!

هاج، وحاول خطف المفتاح من يدي، رفعته إلى الأعلى، فلم يعد باستطاعته الوصول إليه. وفجأة هوت قبضته على معدتي، فتكوَّمتُ على الأرض منهارة. صرخ بي، وهيئ لي أنه قال شيئا مثل: لا يعجبكِ العجب، ومن تظنينَ نفسكِ إيزابيل؟!

كان جسدي ينزلقُ على الأرض، جرَّني نحو غرفتي، وقبل أن يصلها، غيَّر الاتجاه وجرّني نحو غرفته. الشيء الوحيد الذي كنت أعيه في تلك اللحظات، هو أن جسدي خال من الهواء تماما. كنت أحاول التنفّس فيصطدم الهواء بكتل من الاسمنت والحديد في رئتَي ومعدتي. دفع باب غرفته بقدمه، وبعد أقل من دقيقتين وجدت نفسي عارية، موثقة على الطرف العالي للسرير كحذوة، بطني على حافة السرير الخشبية، ويداي موثقتان بقدمي اللتين لا تستطيعان ملامسة الأرض!

كنت أسمع ارتطام جسدي بالسرير، بالهواء اليابس، وأنتظر اللحظة التي ستخرج فيها رئتاي من فمي؛ وكان هائجا، مثل ثور. حين سمعت

خواره العالي، حين انتهى، جلس على الأرض. لم أكن أتحرك، كنت ميتة! بعد ساعة، ساعتين، وخزني بطرف إصبعه، عند ذلك صحتُ، كما لو أنني تلقيت عشر طعنات في ثانية واحدة. حلَّ وثاقي، حاولت الاستناد إلى يدَي، لم أستطع؛ وحاولت ثانية ويدي اليمنى متشبثة بحافة السرير، استطعت أن أرفع صدري أخيرا، وأن ألمس الأرض بكامل قدَمي. حاولتُ الوقوف، تأرجحتُ، ثم سقطتُ على الأرض. رفعتُ رأسي، نظرتُ إليه، لم أر سوى نصفه الأسفل العاري. زحفتُ نحو الباب، بصعوبة فتحتُه، استندتُ إلى إطاره، وأنا أحاول لملمة أطراف ثوبي الممزّق بيدي اليسرى. نظرت صوب غرفتي، وهالني كم كانت بعيدة.

هذه الياسمينة ماتت يا بيك!

كانت ديانا قد استيقظتْ قبلي، سبقتْني إلى المطبخ، رأيتُ ظهرها، وجهها متَّجه إلى الخارج، إلى حائط مغطى بأغصان ياسمينة جفّتْ، وذهبتْ هباء محاولات إحيائها. اقترحتُ على البستاني الذي يعتني بالحديقة ألّا يقصّها، قلتُ له: الأشجار تموت، ولكن يحدث أن تكون بعض الجذور حيّة! فأجابني: هذه الياسمينة ماتت يا بيك، ولكن، آمل أن أكون مخطئا!

قبل أن أجلس، لمحتُ تلك الجروح على كتفَي ديانا، أفزعني الأمر. استدرتُ وجلستُ أمامها. كانت هنالك خدوش ظاهرة في أعلى الصَّدر وأسفل الرّقبة.

لا أستطيع القول إنني نسيت ما حدث ليلة أمس! ولكنني بالتأكيد لا أذكر إن كان ما حدث قد أدى إلى إصابتها بكل تلك الخدوش!

اعتذرتُ لها.

لم تُجب، شربتْ قهوتها، وعيناها مثبتتان على بقايا الياسمينة. نهضتْ، واختفتْ في غرفتها.

لم أجرؤ على التحرّك، بقيتُ جالسا أنتظر خطوتها التالية. بعد عشر دقائق خرجتْ ترتدي قميصا أبيض ذا كمَّين طويلين وتحته بلوزة سوداء عالية العنق.

مرّتْ بجانبي كما لو أنها طيف امرأة ميّتة، وغادرتِ البيت.

***

كلّ حكاية أرسلها إليّ كريم، كان لها نهاية تليق بمقدماتها، أما حكايتي مع ديانا فلم تصل للنهاية التي أتمنّاها. لا يُعقل أن أتفاخر طوال الليل ببطولاتي العاطفية، وأنا غير قادر على النوم مع زوجتي إلا بالقوة!

فقط، لو لم أرتكب تلك الغلطة الكبيرة ليلة أمس، وتلك الغلطة مع فستان نومها! وتلك الغلطة بكشْفي لذلك المِلف! ولكنني بشوق مستمرّ إليها، إلى رائحتها، إلى أيِّ شيء منها، فيها. ما الذي يمكن أن أفعله وأنا أراها تبتعد، توصد الباب في وجهي، تخلع خاتم زواجنا، وتتعامل معي كما لو أنني غير موجود؟! ولماذا؟ لأنني ذكَّرتها بعدد المرات التي نِمتُها معها؟! لماذا لم تعتبر الأمر مجرد طُرفة؟! أعترف: كان عليّ أن أعتبره أنا طرفة قبلها، أعترف بهذا! أجمل وأفضل شيء أبدعتُه خلال زواجنا، ذلك الملف! أفسدتُه في لحظة غضب. كم كان يمكن أن يكون الأمر رائعا لو أنني قدَّمتُ لها ذلك الملف بعد عشرين عاما مثلا؟! كان يمكن أن يكون فرصة رائعة لاستعادة لحظات السَّعادة التي أضاءتْ ليالينا. وستتعامل معه حينها، كما أتعامل معه أنا، بأنه سِجلّ الحبّ! أوليستْ ممارسة الحبّ بهذا الشّغف المجنون هي أعلى درجات الحبّ؟!

***

منذ أيام دخلتْ عليَّ سكرتيرتي. كنتُ في غاية التهيّج، إذ لم أعتد أبدًا البقاء فترة طويلة، كالتي مرّت، بلا امرأة، بلا ديانا. وجدتُ نفسي أفكّر في السكرتيرة، وحين استدارتْ وأصبحتْ إلى جانبي خلف الطاولة ولفحتْني هبةٌ من عطرها القويّ، كنتُ على وشك أن أمسك بها وأجلسها في حضني! لكن يدي تيبَّستْ، وذلك الشيء انكفأ، فأدركتُ أنني لن أستطيع النومَ إلا مع امرأة واحدة، هي ديانا، وأن كل الأشياء يمكن أن تكون مقبولة، بل حلالا بالنسبة إليَّ، إلا الزِّنى!

كثير من الرّجال يمكن أن يجدوا حلولا: الخادمات في المنازل مثلا! ولديَّ أكثر من واحدة جميلة! السفر إلى أوروبا أو شرق آسيا! ولماذا يبتعد المرء كثيرا، فهذا الجزء من شرق آسيا وروسيا وأوروبا موجود بوفرة في عمّان!

بعض أصدقائي في المجموعة يجاهرون بذلك، يفتخرون! وأظنهم يملكون خيالات خصبة، بحيث يحوّلون لقاءاتهم الخاطفة، أو التي تستمر ليلة، إلى حكايات يحملونها إليَّ وإلى سواي، باعتبارها قصص حبٍّ لا تُنسى! مع علْمي أن بعضهم أصابه العطب الشّديد منذ سنوات! ومع أمراضهم، من الضغط إلى السكري إلى عمليات القلب المفتوح وغير المفتوح، لا يستطيعون أن يتناولوا تلك الحبة الزرقاء القادرة على إحالة الماء السائل إلى حديد!

أكادُ أجزم، أن الحكايات الحقيقية الوحيدة، هي تلك التي أرويها لهم! لأنني حين أنظر إلى وجوههم أرى أيّ دهشة تلك التي تحتلّها! تنفتح عيونهم على آخرها، وتتدلّى عظام أفكِّهم، ولا أبالغ إذا قلت إن لعاب بعضهم يسيل! ما الذي يعنيه هذا، سوى أنهم لم يعيشوا وقائع مماثلة؟

بعضهم كان يغيب عن سهراتنا، لكن، وإذا لم تخنّي الذاكرة، لم يغب أحد منذ أن رويتُ لهم حكاية تلك الفتاة قرب الشاطئ. وأنا أعذرهم لأنني أنا نفسي لا أظن أنني سأنسى تلك الفتاة مهما حييت!

الحادث

بحاستي السادسة أدركتُ أن هنالك خيطًا يمتدُّ ببطء بيني وبين سامية، لكن كلّ ما بذلته من جهد لتقريب المسافة بيني وبينها، ذهب هباء. فقد كانت حريصة على أيّ خطوة يمكن أن تخطوها باتجاهي، وخائفة، مثلي تماما! فكما كنتُ أعرف، كانت تعرف، أن فتاة بجمالها ليست سوى فريسةً مشتهاة في أعين الكثيرين.

لم أكن مستعدّا للتنازل عنها، مدّعيا العمى، كما لم أكن أريد فضيحة جديدة مثل تلك التي حبكتْها نُهى، فضربتان في الرأس لن توجعاه فقط، بل ستهشّمانه!

راقبتها، كانت جزءا لافتًا من نسيج العلاقات الحميمة للطلبة: تضحك معهم وتأكل وتشرب القهوة، بل وتجلس على الدّرجات بجوار فتاة سنفورة[4]، وتتهامسان وتطلقان ضحكات من تلك التي لا يمكن أن نصِفُها إلا ماكرة!

الإحساس الذي بدأ يعود إليَّ بقوة، هو أن هناك طلبة يعرفون بحكايتي مع نُهى، وما آلت إليه. قد لا أستطيع إثبات هذا، ولكنني أراه بين حين وحين محلِّقا في سماء أحاديثهم ونظراتهم! صحيح أن الطلاب الذين يعرفون القصة تخرّجوا، لكنهم لم يموتوا! كما أن العاملين في

---

[4] - يحلو للطلبة في السنتين الثالثة والرابعة أن يطلقوا اسم السنافر على طلبة السنة الأولى!

الجامعة يعرفون الحكاية من بدايتها إلى نهايتها الأسوأ من نهاية أي حكاية أخرى.

في النهاية وصلتُ إلى نتيجة مريحة: استمرار وجودي هنا، هو أكبر دليل على كَذِبِ أيّ إشاعة تتنقّل بينهم!

***

لاحظ الطلبة قلقي لا بدَّ، حين دخلتُ القاعة وبحثتُ عن سامية، ولم أجدها بينهم! ورغم أن من حقي أن أعرف من حضر ومن غاب، إلا أنني أرجأتُ التّدقيق في ذلك حتى نهاية المحاضرة، فمن يعرف؟ ربما تدخل في أيّ لحظة!

لم يكن قد تبقّى على انتهاء المحاضرة سوى خمس دقائق، حين لمحتُها في الخارج عبر نافذة الباب الصغيرة. كانت مُتردِّدة، لا تعرف إن كان عليها أن تدخل، وقد تأخَّرتْ كلَّ ذلك الوقت، أم تنتظر في الخارج!

تناسيتُ مسألة حضورها، وقلتُ لعلّ ذلك ينقل رسالة لمن في القاعة مفادها أنني لم ألحظْ غيابها!

***

كعادتي انتظرتُ حتى خرج طلبتي جميعهم، وخرجتُ. كانت تقف جانبا ومعها امرأة ذات حضور لطيف، قدَّرتُ أنها أختها الكبيرة!

حيَّتني سامية بخجلها المعهود، وقالت لي إنها اضطرّت أن تُحضر أمَّها معها لتشهد أنها لم تتأخر إلّا رغمًا عنها!

لاحظتُ جرحا طريًّا في أعلى جبينها، جرحا تمّ تنظيفه على عجل.

رحَّبتُ بالأم التي لم تَبدُ أمًّا أبدا، ودعوتها للحاق بي بعد خمس دقائق إلى مكتبي، لأن عليَّ أن أقوم بشيء قبل الذهاب إليه!

في الحقيقة، لم يكن هنالك سوى سبب وحيد لما فعلته، هو أنني لا أريد أن أجد نفسي منكمشا وأنا أسير معهما، أو بينهما، حتى حدود

الاختفاء، هربا من أعين زملائي وعينَـي سُـهاد اللتـين تلتقطـان، حتـى، الأمور اللامرئية!

***

اختصرتِ الأمُّ الحكايةَ في كلـمات قليلـة: سـامية كانـت قادمـة قبـل الوقت بكثير، كعادتها، لأنها لا تحبّ أن تتـأخَّر عـن محاضراتـك! ولكـن حادث سير وقع في الطريق إلى الجامعة، فاتّـصلتْ بي ترجـوني أن أحـضر لأفسِّر لكَ الأمر، لأنها تحترمكَ كثيرا!

التفتُّ إلى سامية وقلت: الحمد لله على السلامة، لم تكن هناك ضرورة لأن تزعجي والدتك بحكاية المحاضرة، يكفيها القلق الذي أصابها حـين سمعتْ بوقوع الحادث!

- بصراحة دكتور، الحادث بالنسبة لي أهون بكثير مـن التغيُّـب عـن محاضرتك!

همستُ لنفسي: ها نحن في النهاية نتقدَّم خطوةً، وقلـت لهـا: حياتـك أهمّ من كل شيء!

شكرتْني ثانية، وقالت أمها: يعني خلاص، سامحتَها!

- سامحتُها، اطمئني.

***

أمضيتُ الليل أُفكِّر في معنى ما حدث: هل هي ساذجة إلى هذا الحـدّ لتُحضر أمها إلى الجامعة مثل أيّ تلميذة في الصفوف الابتدائيـة؟! أم أنهـا تريد أن توصل إليَّ رسالة مختلفة،كأن تكون: إن كنت معجبًا بي كـما أرى ذلك في عينيكَ، فلتتفضّل إلى بيتنا، وها قد التقيتَ بأمي!

***

قررتُ إجراء امتحـانٍ مباغـت للطلبـة. احـتجَّ بعـضهم، التفـتُّ إلى سامية، كما لو أن رأيها هو الوحيد الـذي يهمّنـي، وجـدتُها تفكـر في شيء

آخر.

انهمك الطلاب في البحث عن إجابات، درتُ بينهم، وعدتُ إلى الكرسيّ خلف طاولتي، أتأملهم. مرّت عيناي خطفا عليها. كانت تبدو راضية، نهضتُ بعد ربع ساعة ودرتُ بينهم، متعمِّدا أن أسأل هامسًا بعض الطلاب والطالبات عن مدى صعوبة الأسئلة من عدمها، تمهيدا للوصول إليها.

وصلتُ أخيرا، وقلمي في يدي، كتبتُ على رأس ورقتها 10/ 10، علامة كاملة! رفعتْ عينيها غير مصدِّقة، فدسستُ رقم هاتفي تحت ورقتها وابتعدتُ!

راقبتُها من مكاني، خلف الطاولة؛ كانت مستغرقة في الإجابة على ما تبقّى لها من أسئلة؛ أفرحني هذا في البداية، ثم أخافني! أنهتْ مهمَّتها، رفعتْ يدها: انتهيتُ دكتور، هل باستطاعتي الخروج؟! سمحتُ لها.

بحركة ماهرة تناولتِ الورقةَ الصغيرة المدوَّن عليها رقم هاتفي، سارت نحوي، وقبل أن تصل قامت بتلك الحركة الكفيلة بجعل جسدي ينتفض: رفعت يدها اليمنى وبحركة ماهرة يمكن أن تكون أبلغ تعريف للأنوثة، حشَرتْ خصلةَ شعر متمردة خلف أُذُنها الصغيرة، أذنها التي بدت لي مثل قطعة حلوى!

وضعتِ الورقةَ أمامي، دون أن تنظر إليّ، وخرجتْ.

بدأتُ العمل فورًا على تصحيح ورقتها! لسبب ما، كنت أريدُ أن أثبتَ أنني صحّحتُ ورقتها في قاعة الامتحان. حرصٌ مبالغ فيه ربما، ولكنه يضمن كلّ خطوط الرّجعة! فمن يعرف؟! وأمسكتُ بالقلم ومررَّتُ ريشته متتبعًا استدارات وخطوط العلامة الجاهزة، دون أن تلمس الريشةُ الورقة، وقلبتُها كي لا يراها أحد!

اللعنة

أصبحتُ على يقين من أنني لن أرى ديانا مجدَّدا بين ذراعَيّ، وكنت على استعداد لأن أنتحر قبل أن أُعيد تجربة النوم معها بالقوة، لكنني أيضا، كنت أريد حلّا ما.

بعد أن حدث ما حدث من رفض طبيعي لسكرتيرتي، فكرتُ: لم لا أقوم بجولة في الجامعة بحجّة تفقّدها والاطمئنان على أحوال طاقمها الأكاديميّ والإداريّ وطلبتها! قلتُ، لعلّني أصادف إحدى الموظفات الجميلات، أو أستاذة، وإذا ما راقت لي، لمَ لا أتزوّجها؟! نعم، أتزوّجها، فأنا أعرف أنني لن أستطيع الصمود طويلا، إذ لا يعقل أن أعود لأمارس ما كنت أمارسه أيام مراهقتي! كان مجرد تذكّر ذلك كافيا ليجعلني أحسّ بأن أُذني التهبتْ كجمرة!

وصلتُ إلى بوابة الجامعة. رفع الحارس الحاجز وقد فوجئ بي أمامه؛ ووجدتُ نفسي أقول لسائقي: عُد!

لم يفهم شيئا، فأعدتُ: عُد.

- سأدخلُ ثم أستدير عائدا!

- بل ارجع للخلف!

رأيته ينقِّل عينيه بين مرايا السيارة عائدا إلى الوراء، ورأيتُ الحارس مرتبكًا لا يعرف ما الذي عليه أن يفعله، أيُغلقُ الحاجز أم يبقيه مرفوعا؟

في تلك اللحظات، اللحظات الأصعب، أدركتُ أنني لن أستطيع

الاقتراب من أيّ امرأة غير ديانا.

طلبتُ من السائق أن يوصِلني إلى البيت. أوصلني؛ وطلبتُ منه أن يذهب ويشتري زهورًا.

- لأي مناسبة تريدها معاليك؟!

- لكلّ المناسبات، اشتري حتى أكليلا صالحا لجنازة!

المفاجأة التي صعقته هي ذلك المبلغ من المال الذي وضعته في يده.

- هذا كثير يا بيك!

وبدأ يعد النقود.

- هذه خمسمائة وخمسون دينارا يا بيك! خمسون دينارا تكفي وتزيد!

- اشتر بكلّ هذا!

- وأين أرسله؟!

- إلى هنا، إلى البيت! ولكن إياك أن تتأخّر!

لم يحرك أحمد السيارة، كان ساهما، راح يبحث عن موجة إذاعية وعيناه ضائعتان. تصاعدت أغنية لهيفاء وهبي عن رجب، ثم أغنية أخرى لم أعرف مغنيتها.

أدركت أنه غاضب، وأنه يفتش كعادته عن نشرة أخبار، كنت أعرف تماما ما سيجيء فيها! وجدها، رفع الصوت إلى أقصى حدّ: وأفادت الأنباء أن عدد الشهداء في غزة قد تجاوز الألف شهيد هذا الصباح، بعد سقوط خمسة وثمانين شهيدا ليلة أمس!

ابتعد!

***

بعد ساعة وصلتْ شاحنةٌ صغيرة محمّلة بالأزهار، يسبقها أحمد بسيارتي. رأيتها تتوقَّف في الباحة الخلفية للفيلا، مقابل بوابة المطبخ الخارجية، ولولا أنني أعرف أن سائقي، الذي لم يترجل ليساعد في إنزال

الحمولة، لا يمكن أن يخدعني، لقلتُ: لقد خدعني! فقد كان بمستطاعي شراء خمسة دونمات مزروعة بالأشجار المثمرة بهذا المبلغ قبل ثلاثين عاما؟!

وللحظة أحسست أنني قد أكون أسأت الظنّ بأحمد. أشرت إلى البستاني. أتى مسرعا. ناولته ثلاثة دنانير وطلبت منه أن يسلمها لأحمد: قل له، البيك عازمك على الغداء!

أمسك البستاني الدنانير الثلاثة، وسار نحو السيارة ببطء!

***

قبل وصول ديانا، كنّا قد جهّزنا الاستقبال اللائق بها، وسرّني أن الخادمات في البيت كنَّ يعملن بإخلاص شديد، فأدركتُ أن ليس هناك أسوأ من بيت مصاب بكابوس المشاحنات الزّوجيّة!

في موعدها وصلتْ، أشرعتِ البابَ ووقفتْ صامتة دون أيّ انفعال يمكن أن يُقرأ.

كنت وحدي هناك. اختفت الخادمات، وتركتُ الزّهور حرّةً لكي تحقق ما أرجوه منها!

تحرَّكتْ خطوتين إلى الأمام؛ أقفلتِ البابَ خلْفها، ووضعتِ المفاتيحَ في حقيبتها وسارت نحوي.

ساحرة كانت، جميلة إلى درجة لا تصدّق. امرأة مثلها لا يمكن أن أستبدلها بنساء الكون كلّه! إمرأة غيرها كان يمكن أن تجرجرني إلى المحاكم وتحوّل الأمر إلى فضيحة، إمرأة غيرها كان يمكن أن تقف دون خوف وتطالبني بكل حقوقها! أتكون جبانة هذه الديانا؟ لا أظن هذا، فحتى لو كانت، جبنها لم يزل أقوى من ضعفي؟!

- شكرا لك! قالت لي: هذا يعني أنك لم تزل حريصًا على مشاعري، أليس كذلك؟!

- طبعا!

- أنا أعرف أننا لا نستطيع أن نبقى صامتين إلى الأبـد ونحـن نعـيش تحت سقف واحد!

- بالتأكيد!

- وأنا موافقة، ولكن لي شرطا واحدا!

- تفضّلي، أُشرُطي كما أردتِ!

- تلك الغرفة، غرفتي، أتراها؟

هززتُ رأسي كما لو أنني أقول نعم.

- إياك أن تقترب من غرفتي ثانية!

كنت على وشك الإنفجار بعد أن فعلتُ ما فعلتُ. ضبطتُّ أعصابي، قلت: اليوم فتحتْ فمها، غدا ستفتح باب غرفتها!

- ويدي هـذه، إيـاك أن تلمـسها! ورفعـتْ يـدها اليمنـى فظهـرت الكدماتُ الزرقاء تحيط بمعصمها.

- موافق!

استدعتِ الخادمةَ، فحضرتْ، نظرتْ إليَّ، هل تناولتَ طعام الغداء؟

- لا.

- جهِّزي الطعام.

ابتسمتِ الخادمةُ، انطلقتْ تجري نحو الخادمة الثانية فرِحَـة كـسجينة تحررَّتْ للتوِّ من فصل حزن طويل!

نصر صغير كاذب!

دائما كرهت الانتقام؛ كنتُ وكيلة في كثير من القضايا التي كان الانتقام دافعها الأول، وكنت أراه أسوأ الحلول للحصول على حق ضائع، وحتى حين كنت أراه في الأفلام، كنت لا أحبه. فيلم (الوطني) الذي شاهدته في واحدة من الفضائيات قبل أعوام، أحببته، ولكنني كرهتُ قيام عقدته على فكرة الانتقام؛ وحين قرأتُ مقالا حول الفيلم، تأكد لي هذا. يبدأ المقال بسؤال لئيم ولكنه جوهري: "نبدأ من النهاية فنسأل: حسنا، وهل كان لأمريكا أن تحقق استقلالها لو لم يدخل (بنجامين مارتن – ميل جيبسون) الحرب في اللحظة الأخيرة مدفوعا بدم ابنه الذي أُريق أمام ناظريه؟!"

كنت أرفض الانتقام، لأنه في حالة مثل حالتي، سيقتطع جزءا غاليا من روحي، أكثر، ربما، مما سيقتطع هذا الانتقام من سلمان!

ولكنني كنت أتوقُ لنصر، مهما كان صغيرا، حتى لو كان كاذبا!

***

على وشك مغادرة المكتب كنتُ، حين وصلتني رسالة نصية من مجمع النقابات، تدعو للانضمام إلى مسيرة ستتجه إلى مكاتب الأمم المتحدة للاحتجاج على الحرب على غزة، تساءلت: منذ متى لم تذهبي، ديانا، لاعتصام أو مظاهرة؟! سأذهب! كنت أعرف أن هذا يحرجه. انعطفت يمينا بعد قليل من دخولي شارع المجمع، بعد فندق الكومودور، أوقفت

السيارة في أول شارع صادفني، وقد هزّني ذلك السؤال الذي خطر ببـالي: أأنت ذاهبة للتضامن مع غزة، أم لإغاظة سلمان!.... بكيتُ.

الخروج إلى الداخل!

لم يظهر اسم المتّصل، ولم يظهر رقمه، كانت شاشة الهاتف بجانبي مضاءة بالمجهول، إن جاز لي أن أقول هذا.

قبل الرنَّة الأخيرة ربما، أمسكتُ بالهاتف وأجبتُ: ألو!

- ألو. أنا ديانا.

- أهلا أستاذة. تذكَّرتُها فورا، حضرتْ صورتها كاملة بطريقة باغتتني.

- أعرف، مرَّ زمن طويل. غريب أنك لم تزل تتذكّرني!

- كيف كان لي أن أنسى أهم حدث في ذلك الحفل: المعجبة الوحيدة!

- لا تبالغ!

كانت جادة، بل وأحسستُ بها متجهِّمة، كما لو أنها تنتظر حكما بالمؤبد على موكِّل واثقة ببراءته!

قلت، أبتعد عن هذا، فسألتُها عن عملها وهل تمضي ساعات طويلة، وهل تتابع كلّ القضايا بنفسها في المحاكم، أم أن هناك من يساعدها. قاطعتْني: اتصلتُ لكي أراك!

فاجأتني، لا بكونها تريد أن تراني، بل باللهجة التي قالت بها تلك الكلمات، إذ شعرتُ بأنها قادمة لمناقشة أمر مُلحٍّ اختلفنا فيه، رغم أننا لم نلتقِ بعد!

- تحبين أن نلتقي في مكان عام؟

- لا، لا أُفضِّلُ ذلك. عمّان صغيرة والكلُّ يعرف الكلّ. وصمتتْ قبل أن تضيف: مع أنه ليس من حقي أن أسألكَ سؤالا كهذا، هل أنت متزوِّج؟!

- كنتُ متزوّجا.

- تسكن وحدك؟!

- وحدي، في شقة!

- نلتقي في شقتك إذن مساء الغد. السابعة وقت ملائم لك؟!

- ملائم.

- حدِّد لي العنوان إذًا!

***

كانت البناية التي أسكنها ملائمة للقيام بأيِّ مغامرة! تأكدتُ من هذا، في اللحظة التي قررتُ فيها شراء شقّة؛ أنا الذي أمضيتُ سبع سنوات في شقة مفروشة استنزفتْ مدّخراتي، وأوشكتْ أن تبتلع مبلغ التعويض الذي استلمته عن الأضرار التي لحقتْ بي، مثل غيري، نتيجة الخروج من الكويت!

نصف سكان العمارة على الأقل كانوا في الخليج، وما تبقّى أجنبيّ وعجوز عراقية، يبدو أن أيّا من زوجات أبنائها لم تحتمل وجودها في البيت معها، فاتّفق الأبناء على شراء شقة لها. كانت العجوز صغيرة الحجم، ضعيفة، وإذا ما صادفتُها في المصعد، كما حدث مرتين أو ثلاث مرات، وألقيتُ السلام عليها، فإنها لا تردّ، لأنها تكون دائما شاردة، أو ربما ساخرة من معنى كلمة السّلام، أو معنى صباح الخير ومساء الخير!

***

في السابعة تماما، سمعتُ جرس الباب الخارجي. كنت رتَّبت الشُّقة بما يليق باستقبال سيدة، مع أنني لا يمكن أن أضع نفسي في خانة

الفوضويين من غير المتزوِّجين.

صافحتْني، دون أن تتوقَّف عن النظر في عيني مباشرة. دعوتها للدّخول مُرحِّبًا بها بلهجة رسمية حقيقية، كما لو أنها جار قادم للحديث معي في أمور صيانة البناية!

جلستْ

اعتذرتُ لها بأنني لا أستطيع أن أعدَّ القهوة إلا على مزاجي، فكل إنسان يحبّها على طريقته. وأضفتُ، لديّ مشكلة في إعداد فنجانَين أو أكثر، لأنني اعتدتُ أن يكون هنالك فنجان واحد أمامي، أمامي وحدي!

أحسستُ بأن كلامي أراحها. نهضتْ: أنتَ تريد مساعدة إذًا؟!

- بل أنا حريص على ألا يخسر الواحد منا الآخر بسبب فنجان قهوة، هو الأول!

- أنا حريصة على ذلك أيضا، مع أن فنجان القهوة ليس مسألة يُستهان بها!

فتحتُ الخزانة العلويّة، وأخرجتُ وعاء القهوة ووعاء السُّكر، ثم إبريق القهوة الكبير الذي نادرا ما أستعمله، ووضعتُها أمامها قرب موقد الغاز، وتراجعتُ ثلاث خطوات لأتيح لها المجال لأن تعمل بحريَّتها.

- كيف تحبُّ قهوتك؟

- وسط!

- مثلي! اتفقنا! وكم فنجانا تشرب؟

- واحدا في كل مرّة.

- مثلي! اتفقنا.

علّقتُ: أحسُّ أن من يشرب فنجانَين كمن يُشعل سيجارة جديدة من سيجارة انتهتْ!

- تشبيه جميل.

***

اكتشفتُ حين عدْنا لمكانينا، وقد حرصتُ على أن أجلس قبالتها، اكتشفتُ أن عليَّ أن أملأ الفراغ بيننا، ذلك الذي يلعب فيه الصمت دورًا مدمِّرا للعلاقات في الموعد الأول.

حدّثتها عن باريس ودراستي، والموسيقى التي أحبّها، وسفري، وعملي في الكويت ثم هنا، وعمان التي أحبها.

- أشياء كثيرة فعلتَها في حياتك! كثيرة جدا، أحيانا أتساءل لماذا كلُّ هذا؟ سألتْني.

- ربما لأننا مضطرّون! ربما لكي نكون سعداء!

- ولكن عذرا، هل أنت سعيد؟! فليكن السؤال أقلّ قسوة: هل أنت راض عن نفسك؟!

- ماذا تعنين؟!

- أعني أنني اكتشفتُ أننا نحن الذين نُبالغ في سرعتنا ونحن نركض خلف السعادة، نكتشف أننا تجاوزناها أحيانا، وخلَّفناها وراءنا، دون أن ننتبه، ولذا فإن مواصلة ركضنا هو في الحقيقة شكل من أشكال العَمى!

- إلّا إذا كان الركض هو السعادة ذاتها؟ هل فكرتِ في ذلك؟

- لا لم أفكر. لكنني معك، بقاء المرء متجمِّدا في مكان واحد، لا يمكن إلا أن يكون هو الشقاء!

- تعرفين، أحيانا أكون هنا، جالسًا وحدي، وغير راغب في الخروج أبدًا، ولكنني أُجبر نفسي على الخروج، أخرج. أحيانا تحدثُ أمور في غاية الرّوعة، تسعدني فعلا! وحين أعود أؤنب نفسي: أترى: كنتَ ترفض الخروج يا كريم، أشكرني لأنني أجبرتكَ عليه!

- مِثل؟

- مِثل ذهابي لحضور حفل التكريم! قلتُ، لعلَّ الرّجلَ المكرَّم كبر

أكثر مما أتوقع، ولعل ذاكرته تلاشتْ! لعله لن يعرفني! ثم إن ذهبتُ أو لم أذهب، فآخر من سيعتبُ عليه هو شخصي، لأنني لم أحضر! فأنا لم أقابله منذ عشر سنوات تقريبا! ولكنني ذهبتُ، واكتشفت أنه لم ينْسني، وأنه يقدِّرني، وأنني وجدتكِ!

- أظن أنك أفضل مني بكثير، لقد كانت احتمالات ذهابك إلى هناك مفتوحة على الخسارة أكثر مما هي مفتوحة على حدوث أمر جميل، لكنني احتفظتُ ببطاقتك كل ذلك الوقت، مع علمي أنني لو اتصلتُ، فإن قدومي إليك سيكون مفتوحا على احتمالات جميلة، كما تأكّد لي! لكنني كنت أقاوم هذه الاحتمالات الجميلة بالقبح، إن كانت هذه الكلمة هي المناسبة!

- شكرا لك!

- أهلا بك!

- تعرفين، أحيانا أقول، ربما لم نرتكب أيّ خطأ كبير في حياتنا بعد، لفرط حرصنا، ولكننا قد نكون خسرنا الكثير من الأشياء الجيدة لنفس السبب!

- قول رائع، ولكن يهيأ لي أنك تحاول إغوائي، أليس كذلك؟

- أبدًا. تحبين أن تسمعي شيئا ما؟

- الموسيقى التي نسمعها جميلة.

انزلقتْ فوق الكرسي، مدَّت قدميها، وأغمضتْ عينيها مُستغرقةً، ففعلتُ مثلها تقريبا، لكن عينيّ ظلّتا مشرعتين. استغرقتُ في تأمّلها.

امرأة كاملة فعلا، ناضجة، عميقة؛ ومجروحة، يبدو ذلك من هجماتها المباغتة، الصّادمة! أنا على ثقة من هذا، ولذا اتخذتُ قرارًا بأن أسير معها خطوة خطوة، ألّا أستعجل شيئا.

حين فتحتْ عينيها، ألقتْ نظرة واسعة على المكان: الهدوء مثاليٌّ هنا!

- لحسن الحظّ، أصوات عربات الشارع لا تصلني اليوم.

- أقصد هدوءًا آخر، الهدوء الخاص بالمكان نفسه!

تشجَّعت واقترحتُ عليها أن نشرب كأس نبيذ إن لم تكن تمانع.

- لا بأس. نشرب!

اعتدل مزاجها، وباتت منطلقة أكثر، ولكنني اكتشفت أنني الوحيد الذي يشرب، أما كأسها فظلَّت كما هي، لم تلمس شفتيها، رغم أنها لم تفارق راحتيها!

نظرتْ إلى ساعتها، تأفَّفتْ، كما لو أنها تلعنُ الوقتَ، وضعتْ الكأس برفق على الطاولة، وقالت: أتحبُّ أن تزور مكتبي؟!

- إذا كان ذلك ممكنا. يسعدني.

- اليوم هو الأربعاء، ما رأيك أن تزورني السبت. فهو يوم عطلة، والمواعيد قليلة، الخامسة مساء موعد جيد؟

- مثاليّ.

- اتفقنا.

نهضتْ قبلي، سارت نحو الباب، تبعتُها، فأتيحَ لي أن أرى أيّ فرس عظيمة هي!

فرح غريب!

صحوتُ فزعةً صباح الخميس، قبل موعدي المعتاد بساعتين، تذكرتُ أن عليَّ التحرُّك بسرعة لعمل شيء لا بدّ أن يُنجز قبل صباح السبت: تلك اليافطة الحديدية تحت نافذة مكتبي.

ارتديتُ ملابسي على عجل، لكنني أدركتُ أن ذهابي إلى المكتب في ساعة كهذه أمرٌ عبثيّ: ستكون البناية مغلقة والحارس نائما!

انتظرتُ بلهفة حتى السابعة، قبل نصف ساعة من موعد استيقاظ سلمان. وصلتُ البناية بعد ثلث ساعة، فوجدت الحارس يغسل الممرّ.

ألقيتُ عليه تحية الصباح، فوجئ الحارس، الذي كان ينظف الممرّ أمام مكتبي، حين رآني، سار نحوي بسرعة، كاد يتزحلق، رأيته يتأرجح فأغمضتُ عينَي! لم أجرؤ على مواصلة النظر إليه وهو يوشك على تهشيم بعض عظامه بسببي. لكنني عدتُ وفتحتهما، في اللحظة التي كان يستعيد فيها توازنه!

طلبتُ منه أن يتبعني إلى داخل المكتب: لحظة مدام وأتبعك، لم يبق سوى القليل من العمل.

- لا تتأخّر.

كانت تلك هي المرّة الثانية التي أصل فيها مبكّرة هكذا. فتحتُ باب المكتب، توجَّهتُ إلى غرفتي، فتحتُ النافذة، نظرتُ إلى حيث اليافطة؛ كانت قريبة جدا من الحافّة، لكنني لم أستطع معرفة الوقت اللازم لإزالتها

وتخطيط واحدة جديدة وتعليقها.

في الأسفل كان الحارس يواصلُ عمله باجتهاد.

ابتعدتُ عن النافذة، جلستُ، تخيلتُ أيّ كارثة تلك التي يمكن أن تحدث لو أن كريم وصل، ونظر إلى الأعلى ووجد اسم سلمان مجاورًا لاسمي!

عدتُ ونظرتُ إلى اليافطة. خطر لي أن أطلب من الحارس إحضار علبة دهان وإخفاء اسم سلمان، لكنني لم أكن متأكدة من أن هذا لن يكون مُلفتا للنظر، فأول شيء سينظر إليه كريم هو اليافطة ليعرف أنه في المكان الصحيح، وقد يسألني عن اسم شريكي الذي تمَّ طمسه تحت لون أبيض ناصع غير ذلك الذي حرقته الشمس!

الحلّ أن تُستبدَل اليافطة، وبسرعة.

فكرتُ بردَّة فعل سلمان إذا ما مرَّ من أمام المكتب، ولم يجد اسمه، فكرتُ بذلك السؤال الذي قد يُوجِّهه إليه أحد معارفه: يبدو أنك قررتَ ترْكَ المحاماة إلى الأبد؟!

وسيردّ: ماذا تعني؟!

ويجيبه ذلك الشخص: مررتُ بجانب المكتب ولم أجد اسمك على اليافطة!

فكرتُ في هذا، واكتشفتُ أن ردّة فعله لم تعد تعنيني.

***

- هناك خطاط في آخر الشارع، مدام، أعرفه، ويمكن أن ينجز اليافطة بسرعة.

- إذا طلب أكثر، لا بأس، أعطه. المهم أن تكون جاهزة اليوم، أو صباح السبت، فهمتَ؟!

- فهمتُ مدام، اطمئني، ولكن هل قرر الأستاذ ترْك المحاماة؟!

- هذا صحيح!

أعطيتُه كل المعلومات التي يجب أن تُكتب على اليافطة، وناولته مائة دينار: خذ هذه، ولتدفع له ما يريد.

ما إن خرج حتى سألتُ نفسي: ما هذا البلد الذي يحقُّ للجميع فيه أن يتدخّلوا في خصوصياتك؟! حتى الحارس، يسألك: لماذا؟!

***

اتّصل بي سلمان، مستفسِرا عن سبب خروجي مبكّرًا: شُغل كثير! قلت له وأغلقت الخطّ!

***

هدأتُ قليلا، هدأتُ..

كانت الليلة الماضية تجربة صعبة لا أعرف كيف استطعتُ اجتيازها! كيف تجرأتُ على الذهاب إلى بيت كريم؟! وكيف صنعتُ له القهوة؟!

ربما كان ذلك أفضل ما حصل، لأنه خفّف من ارتباكه، وارتباكي أيضا، فقد كان عليَّ أن ألمس المكان والأشياء لأحسّ بأنني لستُ غريبة!

لا أعرف كيف تحدَّثتُ معه أمس؟ كيف أغلقتُ عينيَّ وتركتُ جسدي يسبح في بحر الموسيقى وأنا على ثقة أنه يتأمّلني؟! ربما كنت أحبّ أن يتأمّلني، أن يعرف أي جميلة هذه نصف النائمة أمامه!

نعم كنت أريده أن يُعجب بي، أن يُدرك أيّ امرأة أنا! ولعلّي كنت أريد أن أرسل إليه رسالة تقول: كم أنا مُتعَبة، أن أقول له ما لا أستطيع قوله بلساني.

احترمتُ احترامه لخصوصيتي، حين لم يسألني إن كنتُ متزوجة أم لا. ربما يكون الشيء الوحيد الذي يهمّه هو أن ننتهي أخيرا في السرير. ولهذا فهو على استعداد أن يحتملني قليلا، أو كثيرا إذا ما كان رجلا صبورا!

لكنني لا أعرف كيف دعوته لزيارة المكتب! هل ليعرف أكثر من أنا، كما عرفت أكثر من هو حين دخلتُ بيته؟! فالأماكن التي نعيش فيها جزءٌ من شخصياتنا؛ أو ذلك الجزء الذي سيظلّ خفيّا على الآخرين إلى أن يروه فيعرفوننا أكثر!

كنت تحبِّين أن يعرفكِ أكثر، ديانا! ربما ليدرك أن عليه أن يكون حذِرا في تقدُّمه باتجاه امرأة لها وزنها! أيّ وزن؟! ولها قوتها! أيّ قوة؟! ولها استقلالها؟! طُزّ في استقلال كهذا لا تستطيعين تحت عَلَمِه حماية دولتك التي بحجم سريرك!

على أيّ حال، كلّ هذا لن يستطيع أن يدركه، لن يستطيع أن يعرفه أو يراه. ما سيراه: ديانا خارج كل الظروف المطبِقة على جسدها وروحها!

ولكن هل ستنجحين؟ يهيأ لي أنكِ مستعدّة لتفريغ كل ما فيك من عذاب في لقائك الثاني معه! وإلا، ما معنى أن تُعدّي له القهوة؟ وأن تتمدّدي على المقعد أمامه؟!

- لكنني لم أشرب نبيذه!

***

رفعتُ رأسي فوجدتُ الحارس واقفًا أمامي.

- منذ متى تقف هنا؟!

- دقيقة! أحسستُ بأنك مشغولة!

هذا ما كان ينقصني، أن يقف الحارس أمامي يتأمّل هذه المحامية الغارقة في أفكارها! قلت لنفسي، وسألته: ماذا عن اليافطة؟

- ستكون جاهزة مساء اليوم، مدام!

- ممتاز! هل طلب الخطاط مبلغا إضافيا؟

- لم يطلب مدام. فهو يعرفني!

- الحارس يريد مكافأة إذًا! قلتُ في نفسي، فأنا أعرف أنه من تلك

الفئة التي تتعامل معكِ كغبيّة، فإذا ما عَبَّدتْ أمانةُ عمان الشارع أمام البناية، سيقول لك: يا مدام، تعرفين! كانوا سيعبِّدون الشارع من أمام عمارة 17 حتى آخر الشارع، وأنا أقنعتهم أن يعبِّدوه من أمام بناية 16: بنايتنا! وإذا شكوتِ من ضجّة عيادة طبيب أو تاجر عقارات في الطابق الذي أنتِ فيه، سيهمس لكِ: احتملي قليلا، مدام، سنُخرجه قريبا!

لكن أهم ما حدث فعلا هو أن اليافطة الجديدة ستُعلَّق مساء اليوم، في الوقت الذي تكون فيه السكرتيرة، والمحامية التي تعمل لديّ، قد غادرتا.

***

في الساعة الخامسة وصل الخطاط، وأمامه كان الحارس.

وضع اليافطة الجديدة أمام الباب، ثم انطلق بأدواته نحو اليافطة القديمة التي لا بدَّ أنه حدّد موقعها جيدًا قبل أن يصعد. لم أستطع منع نفسي من أن أقترب من اليافطة الجديدة وأن أمسكها من طرفيها وأرفعها، رغم أنها كانت ثقيلة قليلا. كنت سعيدة بها، كمن يتسلَّم شهادةَ تخرُّجه! ولولا أن الخطّاط أتى ليُعلِّقها، لقلت له: أتركْها قليلا هنا أمامي! وأمضيتُ ساعات وأنا أنظر إليها بفرح!

في أقل من ربع ساعة، كان قد اقتلع اليافطة القديمة، وفي أقل من ربع ساعة كان قد ثبَّتَ الجديدة.

– ما الذي أفعله باليافطة القديمة، مدام؟ سألني الحارس؛ وكم فوجئتُ بصعوبة سؤاله: تخلَّص منها! هل أطلب منه هذا؟ أم: دعْها هنا في المكتب، في غرفة الملفات؟ أم ضعْها في مخزن العمارة؟!

– ضعها في مخزن العمارة؟

– حلٌّ سليم مدام، ربما يقرر الأستاذ سلمان العودة للمحاماة من جديد!

لو كان بمستطاعي أن ألقي به من الشباك دون أن أُحاسب على ذلك لفعلت! أخذتُ نفسًا عميقًا: ضعْها في المخزن!

قلت: القانون وضِعَ من أجل ردع العقلاء كي لا يطاوعوا تلك الرغبة الدَّفينة في أنفسهم في أن يصبحوا مجانين!

***

بمجرد خروجهما: الحارس والخطاط، أغلقتُ المكتب، ونزلتُ إلى الرّصيف لأراها من الخارج. كان الشارع يعجُّ بالمارّة الذين يبحثون عن ألبسة وأجهزة كهربائية وموبايلات أمام الطابق الأرضي للبناية الذي صُمِّمَ كمحلات تجارية.

لم أستطع رؤية اليافطة كما يجب، كان عليَّ أن أقطع الشارع إلى الرصيف الآخر لأراها بوضوح.

نزلتُ إلى الكراج، أدرتُ محرّك التويوتا السوداء، وغادرتُ المبنى. كان عليَّ أن أقطع مسافة طولها كيلو متر تقريبا كي أتمكَّن من الانعطاف نحو الجانب الثاني من الشارع، وحين وصلت مقابل مكتبي، أوقفتُ السيارة، ورحتُ أتأمّل اليافطة بفرح غريب!

كالحكايةِ هيَ.. لغيري!

لسبب ما، غامض، لا أعرفه، كلما ابتعدتْ ديانا أكثر، أصبحتُ أحسُّ بأنني بحاجة أكثر وأكثر لحكايات جديدة. أصبحتُ مثل أي مريض، كلما ابتعد الشفاء، كلما قاتل للحصول على أدوية جديدة أو كمية أكبر من الأدوية!

لا أنكر أن الحكايات التي أرسلها كريم إليَّ كانت رائعة! لئيم هذا الكريم في علاقته بالنساء، يُطوِّع حتى الحجر! وفكرتُ: لماذا لا يكون كلّ ما أرسلَه ليس كافيا؟! هل لأنني أريد حكاية الحكايات، حكاية لا أشكُّ لحظة في أنها لي وأنني عشتها، وأنني مستعد للدفاع عنها، لأنها لي لا لسواي من البشر؟!

هل أفتش عن حكاية مثالية، مثل ديانا نفسها؟!

تذكرتُ أن ديانا غدت مثل كل حكايات كريم، لي وليست لي! ولكن لحسن الحظّ لا يستطيع أحد من مجموعة السبعة الكبار، أن يقول إن ديانا ليست زوجتك، أو يشكِّك في هذا!

اتّصلتُ بكريم وقلتُ له: أريد حكايات جديدة!

قال لي: حكاياتي انتهتْ تقريبا يا بيك! فقلت له وأنا أحاول لجم غضبي ما استطعت: أخرج من جُحرك وعِشْ حكايات جديدة! ردَّ: أنت تعلم سلمان بيك أن حياتي باتتْ محصورةً بين الجامعة والبيت! وقد دفعتُ ثمنا غاليا بسبب ما وقع لي في الجامعة مع تلك البنت!

- هذا لأنك لم تكن نبيهًا! لم تكن حذِرا! كان من المفترض أن تكون أذكى من ذلك بكثير وأنت تلعب لعبتك في حرَم الجامعة حيث تعمل! ثم إن الجامعة ليست المكان الوحيد الذي بمستطاعك أن تصول وتجول فيه! سأمنحك إجازة مفتوحة إذا أردتَ. لا، سأطلب من إدارة القسم أن تُخفِّض عدد ساعات عملك، بحيث يكون دوامك يومين في الأسبوع أو ثلاثة. ما رأيك؟

- ...!

- كريم، أريد قصة جديدة، قصصًا لم يَسمع بمثلها أحد من قبل، واعتبر أن عملك الجامعي منذ الغد ثلاثة أيام في الأسبوع، وراتبك قد أصبح أعلى! ولكنني أريدها مؤثرة، وصادقة! أتعرف، كل الأشياء يمكن أن تكون مقبولة، بل حلالا بالنسبة إليّ، إلا الكذب!

***

يُقلقني ذلك السؤال الذي أطرحه على نفسي منذ أشهر: هل سيظلُّ كريم محافظا على مستواه؟! صحيح أنه عمل بجدٍّ لم أتوقعه، وقدَّم حكايات، يمكن أن تتحوّل - حتى - إلى أفلام، مع قليل من العمل عليها! لكن المؤسف أن تصويرها في الأردن لن يكون ممكنا، فأيّ ممثلة تلك التي ستقبلُ بأداء دور إيزابيل مثلا؟!

هل سأضطرّ ذات يوم لأن أعتمد على سواه لكتابة حكايات أخرى؟ ربما! ولكن أظنّ أنني أبالغ، فمعظم الرجال الذين أعرفهم، لم يعيشوا أكثر من خمس إلى ستٍّ قصص كبيرة في حياتهم كلّها؛ في حين أنني تجاوزت الخمس عشرة حكاية، وكانت كل واحدة منها أجمل من الأخرى! كيف أنسى قصة امرأة البحر تلك! ثم من قال إن عليّ أن أُحضِر في كل سهرة جديدا لم يسمعوه من قبل؟! سيشكّون في الأمر، وربما سيتغامزون من ورائي! من قال إن عليَّ أن أفاجئهم بالجديد وقد

بدأتُ ألاحظ أن أكثرهم يعانون بدرجة أو أخرى من النسيان؟!

حيّرني الأمر أكثر حين عبرني ذلك الإحساس الغامض أنني شخصيًّا بحاجة إلى قصص جديدة، حتى لو لم يكن هناك من يسمعها! ومن يـدر، فربما أكون مضطرًّا في يـوم مـا أن أصرخ في وجـه ديانـا، ومـن تعتقـدين نفسك؟! ملكة جمال الكون؟! ثم ألقي في وجهها مِلفا فيه كـل حكايـات الحب التي عشتها!

شهرزاد وميريل ستريب!

حين تلقيتُ اتصال سلمان بيك، كنت أتابعُ فيلما عن عالم المخـدرات؛ كان فيلما جيدًا. لكن مكالمته اضطرَّتني لإلغاء صوت التلفاز. كان سلمان بيك يتحدّث وأنا أتابع بين حين وحين تلك الفتاة المُدمنة التي تتقلَّب على الأرض متوسِّلة، مستعدَّة لعمل أي شيء مقابل جرعة مخدّرات واحدة!

لم أستطع متابعة الفيلم من جديد بعـد انتهـاء المكالمـة، لأنهـا كانـت المكالمة الأكثر إلحاحا. بدا لي سلمان بيك أضـعف مـن قبـل. قلـت: هـذا الرجل سرٌّ أظنني سأموت قبل أن أعرفه! ثم ما الـذي يعنيـه بقولـه كـان يجب أن تكون أذكى في الحرّم الجامعي؟! هل يُوحي إليَّ بأن عليّ إحـضار حكاية حبّ جديدة إليه، حتـى لـو كنـتُ سأعيـشها في الجامعـة؟! هـل يمنحني رخصة مفتوحة للتحرّك في الجامعة فعلا؟! أم يتطلّع لوقوعي في خطأ آخر سأصبح بعده عبدا كاملا في يده، يفعل بي ما يشاء؟!

تذكَّرتُ ديانا، كنت قد دوَّنت كل ما دار بيننا فور خروجهـا، كـي لا أنساه، ولم أعرف إن كنت أدونه لأسلِّمه لسلمان بيـك، أم لأن هـذه المـرأة أروع من أن أنسى أي تفصيل عشته معها؟!

يريد حكايات جديدة! قلتُ ذلـك وأنـا أراقـب مـن شرفتـي نوافـذ الأبنية المجاورة، وأنا أسأل ذلك السؤال، الذي لا بـدَّ، قـد سـأله ملايـين البشر: كم مـن حكايـة وروايـة خلـف كـلِّ نافـذة مـن تلـك النوافـذ؟! وتوصَّلتُ أخيرا إلى قناعة تقول بأنه لن يكتفي بأي قدر مـن الحكايـات،

حتى لو أتيتُ له بشهرزاد أو ميريل ستريب كما ظهرت في فيلم (خارج أفريقيا) ووضعتُهما في سريره.

أخذتُ نفسا عميقا، تركتُ الشرفة، وقررتُ العودة لمتابعة الفيلم.

كان الفيلم قد انتهى، ولم يكن صعبا عليَّ أن أعرف اسم الفيلم الجديد من موسيقاه الشهيرة: قصة حبّ.

وقبل أن يبدأ المشهد الأول، كنت قد اهتديتُ لأفضل وأروع حلٍّ سيريحني ويريحُ سلمان بيك!

تساءلتُ: كيف لم تخطر فكرةٌ رائعةٌ، مثل هذه، ببالي من قبل؟!

الخوف

أحسنتُ اختيار اليوم حين حدّدتُ السبت موعدا للقائي بكريم، لكنني كنتُ مرتبكة، إذ إنها المرة الأولى، منذ أيام الجامعة التي أواعد فيها رجلا.

كنت خائفة، ولا أعرف تماما لماذا ننتظر الأحداث السعيدة كما ننتظر الأحداث الحزينة، بخوف!

لماذا يسبقنا الخوف ويقتطع جزءا من أفراحنا القادمة، ولماذا يضاعف أحزاننا وهو يحشر رأسه في ترقّبنا ويحوّلنا إلى جمر؟! ولماذا يظلّ الخوف ملتصقا بأفئدتنا، حتى بعد أن نتأكد من أن الحدث السعيد قد حدث، وأصبحنا مطمئنين، والحدث الحزين قد حدث وانتهى؟!

كان خوفي مضاعَفا ربما، لأنني كنتُ أسيرة الخوف والسعادة في آن.

حاولتُ ألا أطلّ على الشارع! لم أستطع! حين تنتظر بلهفة قدوم عزيز ما، لا يكون لعمرك أيّ معنى، ولا لتجاربك، ولا لرصانتك. أنت تنتظر فأنت الآن عاشق، حتى لو كنت واثقًا تماما من أن الذي تنتظره سيأتي!

أغلقتُ باب غرفة مكتبي؛ لم يكن هناك سواي، ولكنني أغلقتُ باب غرفة مكتبي! كما لو أن الأمر الذي لا بدَّ أن يقع هو أن يضبطني واحد من غير الموجودين في المكتب متلبِّسة بحالة انتظار، حالة شوق، تحرُّق، حالة امرأة غافلت الجميع ووضعتْ ما تحتاجه من ملابس وأشياء

ضرورية في حقيبتها، تمهيدًا للهروب!

***

سيأتي في موعده، في موعده تماما، هذا ما توقّعته! يبدو من شخصيته أنه منظَّم، لطيف، لا يمكن أن يجرؤ على جرح امرأة بجعلها تنظر خمس دقائق إضافية! الخامسة تماما، نظرتُ ثانية إلى الشارع، وسمعتُ جرس الباب الخارجي يُقرع. أزعجني الأمر: مَن ذلك الذي يمكن أن يأتي في وقت كهذا. كنتُ متأكِّدة من أننا ألغينا جميع المواعيد!

خرجتُ، فتحتُ الباب، فاجأني بباقة ورد بيضاء، قدَّمها إليَّ قبل أن يصافحني. تناولتُها منه، شكرته، دعوته للدخول، مُفسحةً له المجال ليتقدَّمني.

لم يكن مكتبي واحدا من المكاتب التي يُفتَخر بها! إذ لولا وجود بعض البُسط المصنوعة يدويا، لولا ألوانها الحارة، والمكتبة الجميلة، الغنيّة، وبعض الزّهريات الصغيرة والكبيرة، وثلاث لوحات افريقية، اشتريتها من فنان إفريقي جوّال، في عمان، وأخرى اشتريت صورها من مكتبة، لكانت الحيطان صماء تماما. بالطبع هناك شهادتي الجامعية، وصورة تجمعني مع أمي وأبي فوق طاولتي.

لأول مرّة أدرك أنني لم أعتن بهذا المكتب لسبب واحد هو أن اسم سلمان مُعلّق على واجهته!

- هل تسمعين موسيقى هنا؟

- لا، لماذا تسأل؟

- الموسيقى تجعل المكان أكثر نعومة، كالوردة التي حيثما وضعتِها تستطيع السيطرة على كآبة غرفة من ستة عشر مترا مربعا!

- يبدو أنك كنت تعرف أن كآبتي أكبر من هذه المساحة، فأحضرتَ كل هذا الورود التي، حسب حساباتك، يمكن أن تنشر البهجة في ملعب

لكرة القدم!

- بصراحة، أحضرتُ ما أنا بحاجة إليه أيضا!

حاولتُ الخروج من دورة الكلام الذي لم أستطع أن أحكم، هل هو جميل أم منمق؟! سألته: قهوتك، كيف تحبّها؟

فنظر إليّ نظرة ذات معنى، فهمتُها: كما أعددتها لكَ في بيتك! إلّا إذا كنتَ قد أصبحتَ تشربها بلا سكر منذ أن عرفتني!

- كلامكِ يحمل وجهين!

- قصدتُ وجها واحدا أعرفه، هو أنني قد أكون قد أربكت حياتكَ. ما الوجه الثاني؟

- الوجه الثاني، يبدو غزلا ساذجا إلى حدٍّ بعيد: أصبحتُ أشربها بلا سكر، لأن حلاوتك تكفي وتزيد!

- الصحيح ساذجة، بل ساذجة للغاية!

- ألم أقل لكِ!

ضحكتُ، وسعدتُ بأنني ضحكتُ، لأن الضحكة بددتْ كثيرا من ارتباكي.

***

لم نكن قريبين كما كنّا في اللقاء الأول. أسئلة كثيرة كانت تطوف في الهواء كان يمكن أن تُسأل، فتتلاشى بإجاباتها غيمة الحذَر. قلت له: باستطاعتك أن تسأل ما تريد! وكنت قبالته أجلس، أمام مكتبي.

- أي سؤال؟!

- سؤال واحد فقط لا أريدك أن تسأله: هل أنتِ متزوِّجة؟! لأنني في الحقيقة لن أستطيع أن أجيبك إجابة أعتبرها صادقة!

- هل لك أولاد؟

- لا.

- وأنت؟!

- طفل صغير مات قبل أن أضمّه، مات بعد موت أمّه بيومين!

- ولم تتزوّج بعدها؟

- ولماذا أتزوج بعدها، وأنا متزوِّج منها؟! هل لأنها ماتت لم أعد متزوّجا؟! كم من رجل أو امرأة يمكن أن يكونوا مطلَّقين مع أن شركاءهم ما زالوا على قيد الحياة؟! تستغربين سؤالي ربما، ولكنني لا أستغربه إذ تبدو الحياة، من وجهة نظري، أكثر تشابكا ومكرا ودهاء مما نتصوَّر، أليس ذلك طبيعيا مادام البشر هم أبطال لعبتها؟!

***

الوفاء نقطة أخرى من نقاط ضعفي، تذكرتُ وفائي لأم سلمان، ووصلتُ إلى نتيجة غريبة: أنا لم أزل متزوّجة منه لأنني وفية لأمّه! وعدتُ لأفكر بوفاء الجالس أمامي، الذي بدا لي مستعدًّا للدخول في شجار من أجل زوجة تُوفّت منذ عشرين عاما!

تحفُّزه للشرِّ هذا، أعطاني شعورا بأنه أقرب إليَّ مما كنت أتخيّل. وعبرتْني فكرة غريبة، أغرب فكرة ربما خطرت ببالي: كنت سأكون امرأة سعيدة، رغم كونيَ ميتة، لو أنني متزوِّجة منه!

***

بعد أن شرب القهوة، استأذن. كنت أريد أن أقول له: لم تجلس بعد! لكنني همست لنفسي: دعيه على راحته.

أوصلته حتى الباب. صافحني، وبعد أن خطا خطوتين باتجاه الدّرجات، توقّف للحظات، ثم استدار: متى سأراك؟!

- الليلة! قلتُ له.

- كنت أحبّ أن نلتقيَ الليلة، ولكن لدي مجموعة مهمّات عليَّ أن أنفِّذها بسرعة، فقد أنتهي منها إلى الأبد! ما رأيكِ أن نلتقي الأربعاء،

تفاءلتُ بلقائنا في ذلك اليوم.

- الأربعاء إذًا! قلت ذلك بحزن.

حين أغلقتُ الباب، وبَّختُ نفسي: الليلة! تقولين له: الليلة! وهل طارت الدنيا؟! وسمعتُ نفسي من الطرف الآخر تهمس لي: كنتُ أريد أن يحبني منذ الآن!

***

عدتُ إلى البيت بعد العاشرة مساء، طفتُ في الشوارع، مررتُ من أمام البناية التي يسكن فيها كريم ثلاث مرّات، وامتلكتُ جرأة أن أمضي إلى وسط البلد؛ كان أقل هدوءا، وأرقّ حياة، من الصورة التي كوَّنتها عنه، عدتُ إلى البيت، وجدت سلمان في انتظاري.

- أين كنتِ؟

- أطوف في الشوارع!

- حتى هذه الساعة؟!

التفتُّ إلى ساعتي باستغراب: إنها العاشرة، أليس كذلك؟!

نهض، وسار نحو غرفته، وقبل أن يصلها استدار وقال لي: الأربعاء القادم!

سقط قلبي!

- الأربعاء القادم، نحن مدعوّان إلى عشاء مُهم.

- قد لا أستطيع!

- بل ستستطيعين، لأن عدد المدعوِّين إليه ستة فقط، نحن والباشا وزوجته و (...)! سأخبرك في حينه!

***

اتصلتُ صباحا بكريم، وأخبرته: طرأ ارتباط لا أستطيع الهروب منه يوم الأربعاء، إذا أردتَ أن نلتقي في يوم آخر، لا بأس!

- لا، لا أريد استبدال الأربعاء بيوم آخر!

- إذًا إلى أربعاء الأسبوع التالي، كما تريد! وكنتُ حزينة.

الأسئلة الصعبة!

انتظرتُ مكالمة من سامية، لم تتّصل. قلت لعلها تنتظر عطلة نهاية الأسبوع. مرّ الجمعة والسبت ولم تتّصل أيضا.

انتظرتُ وأنا أتساءل: ما الذي أريده منها؟ هل أريدها لأنها حكاية أخرى سأُرضي بها سلمان بيك، أم لأنني بتُّ بحاجة للحكايات أكثر منه؟ أم لأنها حكاية قديمة بدأتْ ذات يوم ولم تكتمل؟ أم هي حكاية أريد أن أودِّع فيها جمال عمْرها الذي لن أحظى به ثانية، إذا ما سارت الأمور كما أفكّر مع ديانا؟!

كنتُ مهزوما بنتائج حكايتي مع نُهى، لكن شيئا آخر كان يقول لي: لتكن سامية آخر مغامراتك الجامعية؛ اِنهلْ منها حتى الارتواء، حتى النهاية، حتى القرف! كما فعل زوربا في رواية كازنتزاكي حين التهم تلك الكميّة الهائلة من الكرز، الكرز الذي طالما اشتهاه. وبعد ذلك، فلتكتف بديانا، وليكن شعارك فيما تبقّى لك من عمر: إذا خُيِّرتَ بين الجميل والمريح، فاختر المريح! فهذا ما يليق بعمرك الآن! ولا شك أن الدنيا ستثبتُ حبها لك إذا ما تطوّرتْ علاقتك كما تشتهي مع ديانا، فهي ناضجة، أي مريحة،وجميلة أيضا، تمنَّ هذا!

***

قابلتُ سامية في أحد ممرات الكلية، ألقتْ عليّ تحيّة الصباح بابتسامة واسعة! وواصلتْ طريقها. أربكتْني أكثر!

في المحاضرة التالية، جلستْ في مكانها الأثير. سألتْ، وناقشتْ، وكانت تبدو سعيدة أكثر مما رأيتها من قبل.

ومرّ يوم آخر ولم تتّصل.

ما الذي تريده هذه البنت؟! سألتُ نفسي، إذا كانت سعيدة إلى هذا الحدّ بعلامتها الكاملة، وراضية عن الطريقةَ التي نالتْها فيها، فمن الطبيعي أن تخطو فوق الجسر الذي مددتُه لها.

أزعجني الأمر أكثر بعد مرور أسبوع على ذلك الامتحان المفاجئ، فقررتُ أن أُجريَ امتحانا مفاجئا آخر!

ليس ثمة مبرر لإعادة وصْف ما حدث، فهو يشبه تماما مشهد الامتحان الأول، بفارق وحيد، وهو أنني وضعتُ رقم هاتفي تحت ورقتها، وتركتُ أمر العلامة لي فيها بعد!

رفعتْ يدها، وطلبتِ الإذن بالخروج، فسمحتُ لها. سارتْ نحوي، حشرتْ تلك الخصلة المتمرّدة خلفَ أذنها، اهتزَّ جسدي كلّه. وضعتِ الورقةَ أمامي وابتسمتْ وهي تنظر إليَّ مباشرة، فلمحتُ الورقة التي دوَّنتُ فيها رقمي في يدها.

خرجتْ.

مغادرة الجُحْر

- هل هنالـك جديـد؟ سـألتُ كـريم، وسـمعتُ موسـيقى عاليـة! توقعتُ أنه في مرقص. قلتُ ها هو قد تحرّك أخيرًا ليعيش حكاية جديـدة لي!

- لم أسمعك جيدًا سلمان بيك؟! حولي ضجة! لحظة، لحظة! تفـضّل سلمان بيك.

- يبدو أنك قد أخذتَ بنصيحتي وخرجتَ من جُحرك!

- أجل سلمان بيك، تستطيع القول إنني خرجتُ من جحـري. لـديَّ إحساس بأنني قبل نهاية الأسبوع، سأكون قد كتبتُ لك ثـلاث قـصص على الأقل!

- ألهذا الحدّ؟! لم أكن أعتقد أن الأمور تسير بهذه البساطة!

- بل أبسط، سلمان بيك، أبسط بكثير، وأنا أشكرك على نصيحتك!

- كما قلتُ لك، فقط كن ذكيًّا!

- اطمئن سلمان بيك، اطمئن.

- اذهب إذًا، وواصل عملك، لن أعيقكَ!

خمس وعشرون امرأة فاتنة!

أغلقتُ الهاتف، وقد تسللتْ إليَّ سعادة ماكرة، وأنا أستعيد كلمات سلمان بيك: اذهب إذاً، وواصل عملكَ، لن أعيقكَ!

.. ودخلتُ إلى الباب الذي تركته خلْفي من جديد.

عاد الشباب في محل حمّودة لأقراص الـ DVD، للترحيب بي: أهلا دكتور!

لم أعرف كيف تمكّنوا من معرفة أنني دكتور إلّا بعد أن دخل ثلاثة زبائن آخرين وخاطبوهم بألقابهم العلمية، وكلّهم كانوا بقدرة قادر دكاترة!

فقلت: من دخل محلَّ حمودة فهو دكتور!

حاولتُ أن أصلَ بنفسي إلى ما أريد، ولذا، شكرتُ الشّاب الذي عرض عليَّ المساعدة، إذ رأيت أنَّ من غير اللائق أن أسأله عن نوعية الأفلام التي أريدها، ما دمتُ قادرًا على القراءة!

بعد لحظات وجدتُ نفسي أدور ثانية وأعود نحو الباب بعد أن أنهيتُ بحثًا سريعًا في جانبه الأيسر. كان الجانب الأيمن قد خُصِّص لأفلام الحبّ؛ وأدهشني ذلك الكمّ من الأفلام الرومانسية التي لم أر إلا القليل منها.

في النهاية وجدتُ أن عليّ استشارة ذلك الشاب الذي عرض المساعدة منذ البداية. أشرتُ إليه، فأتى مبتسما، وكأنه يقول لي: أرأيتَ،

مساعدتي لك ضروريّة!

سألته: هل رأيتَ كثيرا من هذه الأفلام.

- كلّها تقريبا دكتور! قال بابتهاج!

- أريد منك أن تختار لي عشرين فيلما عاطفيّا.

ابتسم الشاب بخبث، ولكنه بدا سعيدا وقد تفوّق بمعرفته السينمائية الرّومانسية على دكتور!

بدأتْ يداه تعملان بسرعة غريبة، لكنه لم يفقد مهنيّته، أو أصول صنعته! إذ كان يمسك بين حين وحين فيلما، ويفكِّر قليلا وهو يتأمّل غلافه، ثم يقول: لا، بلاش! هذا الفيلم بدأتْ قصته قوية ثم ضعُفتْ كثيرا في النهاية! هذا الفيلم لا يلزمَك! أو يقول: أعرف أن جورج كلوني ممثل جيد، وكاترين زيتا جونز عسل! لكنّ فيلمهما هذا لن يعجبك! ويعيده إلى الرفّ.

ثم مال نحوي وهمس: هناك بعض الأفلام قصتها ممتازة، ولكن فيها قليلا من السِّكس، إن كنتَ ستراها وحدك، فأنصحكَ بعدد منها!

- لا مانع، فأنا فوق سنِّ الثامنة عشرة كما تلاحظ! ولكن لا تنس، أريد أفلاما جميلة!

بعد أن اختار عشرين فيلما، سألني: نسيتُ أن أسألكَ! هل يهمّك أن تكون مترجمة دكتور أم لا؟!

- لا مشكلة في هذا. وسألته: هناك فيلم شهير اسمه (تسعة...) فقاطعني هامسًا: ولوْ دكتور (تسعة أسابيع ونصف) اطمئن! دسسته بينها!

- هناك فيلم آخر، شاهدته قبل عشر سنوات اسمه (هنري وجون)!

- قصة كاتبة وكاتب، صحيح؟ حضرتُه. لحظة وآتيك به.

- وفيلم غاتسبي العظيم.

- لكنه ليس فيلم حب دكتور!
- ولكنني أريده!
- ما رأيك إذًا أن تأخذ (ذهب مع الريح)؟!
- لا، هذا لا أريده، لأنني سأكون مضطرّا لإشعال حرب أهلية بسببه!
- لم أفهمك دكتور!
- لا أريد (ذهب مع الريح).
- هناك فيلم، لروبرت دي نيرو نسيتُه، تمثِّل فيه ميريل ستريب، يحبّها وتكون امرأة متزوجة و...
- أحضره، وليكن الفيلم الأخير.

***

في كيسين بلاستيكيين، حملتُ خمسة وعشرين فيلما، خمسا وعشرين قصة حبّ، تنافسَ منتجو هوليوود وسواها على إنتاجها. مررتُ بمطعم هاشم، فقلتُ: منذ متى لم تأكل يا كريم فيه!

بحثتُ عن مكان في عمق المساحة الصغيرة أمام المطعم؛ وكنت سعيدا ليقيني من أنني سأكون على مواعيد حميمية، منذ الليلة، مع خمس وعشرين امرأة فاتنة!

طلبتُ صحن فول، وقلت له: أَكثِرْ من الثوم! ولا تنس البصَل!

القرار!

مرّ يومان آخران، لم تتَّصل سامية، تحوّلتُ خلالها إلى رجل غاضب مؤهل لارتكاب حماقة!

فكرتُ أن أطلب منها القدوم إلى مكتبي. تراجعتُ عن ذلك.

صححتُ الأوراق، وطلبتُ من طالب نال 9 من10، علامته هي الأعلى، بقراءة العلامات التي نالتها زميلاته وزملاؤه.

كان هدفي الأول والأخير أن أرى ذلك الانفعال الذي سيحطُّ على ملامحها، حين تسمع العلامة!

- سامية رمضان 5من10 !

المفاجأة أنها ابتسمتْ، ورأيتُها تُعدِّل جلستَها واضعة ساقًا على أخرى، كاشفة مساحة كبيرة من فخذيها!

***

بدأت المحاضرة، كانت أشبه بمباراة ملاكمة ستُحسم بالنقاط! إذ لن يتمكَّن أيّ من الملاكمَين من طرح منافسه بالضربة القاضية! هذا ما استقرَّ في داخلي! في نهاية المحاضرة، خرج الطلاب، لكنها لم تخرج. كانت منهمكة في كتابة ملاحظات في دفترها. طلبتْ مني الاقتراب، كما لو أنها بحاجة لأن أوضِّح لها شيئا ما أمامها، حيث وضعتْ سبابة يدها اليمنى على نقطة في الصفحة.

اقتربتُ، فهمستْ لي: اقترب أكثر!

كان رأسي على بعد أقل من متر من رأسها. أخذتْ نفسًا عميقًا، وقالت تلك الجملة الفاتنة: دكتور، أحبُّ رائحتك! اعتدلتُ بسرعة، وخرجتُ.

***

في الأيام التالية، غدتْ أكثر انطلاقا، وفاجأتني، حين خلعتِ المعطفَ العسليَّ الذي ترتديه، وجلست أمامي بتلك التنّورة التي لا تصل ركبتيها حين تكون واقفة!

بدأ الطلبة بالخروج، طلبتُ منها أن تنتظر. ردّت: حاضر! بلهجة مطيعة.

بقينا صامتين إلى أن خرجوا جميعا، فقالت: أنت غاضب لأنني جئت بهذه التنورة القصيرة؟!

- أنا لا أُقرر ماذا ترتدين!

- قلتُ في نفسي ربما ستحبُّها!

- لا، لم أحبها!

كانت جملتي قاطعة بحيث خرجتْ شبه باكية، مسرعة.

قلت: أيّ لعنة، يبدو أن هذه الفتاة تحبّني!

استرجعتُ حكايات من هذا القبيل، وبخاصة حكايتي مع تلك الطالبة التي كانت تحبّني، وضبطتْني في المكتب مع طالبة أخرى. استرجعتُ جنونها وهي تدقّ الباب صارخة، والفضيحة التي أصبحتْ حديثَ الجامعة لأشهر طويلة، وقلت: توقّف هنا. عليك أن تتوقّف هنا يا كريم، فالوضع لا يحتمل المغامرة، لأن سلمان بيك الذي منحك رخصة الحريّة، سيكون أول من يمزّق هذه الرّخصة ويلقيها في وجهك أمام الجميع!

***

في المساء رحتُ أفكر: لعلها تريد أن تلهو قليلا؟ ولكنني تذكّرتُ حضور أمها والدموع التي ماجت في عينيها عندما أخبرتُها بأن تنورتها لم تعجبني!

ووصلتُ إلى قراري: اِنْسَها، وامنح علاقتك بديانا الوقت الكافي.

تلك المرأة!

فكَّرتُ في الأيام التي تفصلني عن يوم كريم: الأربعاء التالي! وجدتها طويلة، طويلة أكثر مما يجب! فتساءلتُ: لماذا عليّ الانتظار كل هذا الوقت لأخطو خطوة واضحة بعد البداية.

متلهِّفة بصورة لم أستطع فهمها كنتُ، لم أستطع العودة إلى البيت، قلتُ سأذهب في جولة على المكتبات، بحثتُ عن كتب ذلك الرجل الذي تمَّ تكريمه، بعد أن كتب لي كريم أسماء بعضها على ورقة، لم أجدها، بل كان الأمر أسوأ من ذلك! فكلّ مكتبة دخلتُها كان الردّ: لم نسمع بهذا المؤلف!

سبعون سنة ولم يسمع أحدٌ بهذا المؤلف! كنت غاضبة كما لو أنه أبي، أو شخص عزيز عليّ! كيف يكتب سبعين عاما، الأدقّ: خمسين عاما، ولا يعرفه أحد؟! ما هو الوقت الذي تحتاجه هذه البلد لتقول إنها تعرفُ أحدًا؟! العمى! ثلاثة أعوام أو خمسة أعوام حوَّلت بعض الكتّاب إلى مشاهير في هذا البلد أو ذاك! أم أن على الجميع أن يكونوا سلمان حتى يعرفهم الجميع؟! سألتُ صاحب مكتبة، في شيء من العبث، بعد أن أخبرني بأنه لا يعرف اسم ذلك المكرَّم: هل لديكم كتبا للأستاذ سلمان سعود؟! التفتَ إليَّ مُستغربا، وقال: أعرف أنه كان وزيرا والآن...، ولم يُكمل، ولكن هل هو مؤلف أيضا؟!

عدتُ في الأيام التالية إلى العمل مُنهكةً، ولكن مجرّد مشاهدتي لليافطة

الجديدة معلّقة تحت نافذة مكتبي كان كافيا للتّخفيف من ضياعي.

***

في التاسعة صباحا كان عليَّ أن أقابل امرأة، رجت السكرتيرةَ أن تحدِّد لها ذلك الموعد، وفي تلك الساعة، لأنها مضطرّة لذلك.

دخلتْ. سيدةٌ جميلةٌ وأنيقة في أواسط الأربعينات من عمرها، يمكن القول: لا ينقصها شيء.

- أعذريني، أظن أني أربكتكِ بهذا الموعد المبكر، ولكن هذا هو الوقت الوحيد الذي باستطاعتي أن آتي إليكِ فيه!

- بسبب ظروف عملكِ؟

- بل بسبب ظروف زواجي! في الثامنة أوصل الأولاد إلى المدرسة كل يوم، وقلت: إذا ما سألني لماذا تأخرتِ اليوم؟ يمكن أن أقول: حادث سير وقع، أو جهنم الحمراء هبطت على الأرض!

وبدأتْ تبكي.

هذا ما كنتُ أريده: صباحًا منقوعًا بالدّموع!

كانت على عجلة من أمرها، حتى أنني لم أستطع تسجيل أكثر من ثلث ما قالته.

- تمهّلي؟

- لا أستطيع!

في أقل من ربع ساعة، فهمتُ منها أنها متزوّجة منذ عشرين عاما، ومنذ عشرين عاما وهي تفكِّر في أن تتركه! هو أحد أقربائها، طبيب ناجح، ولكنه أسوأ مخلوق على وجه الأرض! كشفتْ ذراعها اليُمنى، ثم ذراعها اليسرى، فأحسستُ بالدم يفور ويغطي معصميَّ! نهضتْ وأغلقت الباب، عادتْ، وقفتْ قبالتي وكشفتْ أعلى فخذيها، كان المشهد مرعبًا! لا يمكن أن ينام معي قبل أن يضربني. في البداية كنتُ

أُغمض عينيّ حين يرتمي فوق جسدي، الآن أُغطي وجهي، أغطيه كي لا أراه، كي لا يقبّلني. في البداية كان يغضبُ حين أغطيه، ولكن بعد أن أصبحتُ أستفرغ كلّما قبّلني، لم يعد يعترض على بقاء وجهي مُغطى!

- منذ متى تعيشين هذه الحالة؟

- منذ البداية!

- منذ البداية وأنت تقبَلين بهذا، كيف تسمحين لنفسك أن تكوني عبدة إلى هذا الحد؟!

فوجئتِ المرأةُ بصراخي كما فوجئتُ: أعتذرُ لكِ، أعتذر!

نهضتْ بصمت وغادرتْ، تبعتُها وأنا أرجوها أن تهدأ، وتعود! لكنها ابتسمت ابتسامة أرعبتني، ابتسامة لا علاقة لها بالابتسامة الحزينة للمرأة الجميلة التي دخلتْ قبل عشرين دقيقة.

عدتُ إلى غرفة مكتبي، وفي الممرِّ، قلت للسكرتيرة، أطلبي من الأستاذة عبير أن تتابع قضاياي اليوم!

أغلقتُ الباب، وبكيتُ.

***

عدتُ إلى البيت مساء، وأنا أحسّ أن نوعا غريبا من التبلُّد المعجون باليأس قد أصابني، لفرط ما سمعتُ وعايشتُ من مآس ، وأن ما حدث لي هو أنني بتُّ أنظر وأحسّ بما أنا فيه، بقضيتي، باعتبارها قضية امرأة أخرى! هل تنبهتُ أخيرا لما أنا عليه وفيه؟!

أمسكتُ بمفتاح باب البيت، وتساءلت: ما الذي يفعله هذا المفتاح في يدي؟! ورأيتُ القفل، فاستغربتُ أكثر، وتساءلتُ: ما علاقة هذا المفتاح بهذا القفل؟! امتدّتْ يدي وحشرت المفتاحَ في ذلك الثقب الضّيق، فُتحَ الباب! استغربتُ ذلك أيضا! تذكرتُ تلك الجملة التي قالها لي كريم أمس: تبدو الحياة أكثر تشابكا ومكرا ودهاء مما نتصوّر، أليس ذلك

طبيعيًّا مادام البشر هم أبطالُ لعبتِها؟
أطلَّت الخادمة: هل تريدين شيئا مدام؟
- أريد أن آكل!
- حاضر مدام.
وحين وضعت الطعام أمامي لم ألمسه!

سخرية سوداء!

لن أكون عبقريًّا إذا قلت إن الإصابات تكون دائما من نوع العمل: البحَّارُ يغرق، أو تأكله أسماك القرش! متسابق السيارات تنحرف سيارته عن المضمار وتنقلب، أو تصطدم بأخرى! عامل الكهرباء يسقط من فوق عمود أو يصاب بصعقة! النجّار يفقد أحد أصابعه أو يده! البنّاء تنهار السقّالة تحته، أو تسقط الرافعةُ على رأسه! العدَّاء يُصاب بسكتة قلبية! لاعب كرة القدم بتلفِ ركبته أو كسر ساقه أو فقدان نصف أسنانه! الملاكم بارتجاج في الدماغ! وهكذا. لكننا نحن الذي لا نمارس أيّا من هذه الرّياضات والمهن أبدًا، قد تلحق بنا واحدة من الإصابات التي ذكرُتها أو أكثر! وهذا ما يمكن أن أدعوه السُّخرية السوداء!

ربما يكون الأستاذ الجامعي محظوظا إلى حدّ بعيد في هذا المجال، لكنني لم أكن أستاذا جامعيا فقط، فقد كنت زوجا لسنتين وأبا ليومين، ومغامرا حتى الآن! كلمة مغامرة لا تُعبِّر بدقّة عن الأمر، كنت شرهًا مفتونا بالنساء قبل الزواج، تغير ذلك تماما بعد أن تزوجتُ، ثم عدتُ إلى ما كنتُ عليه قبل الزواج بصورة يمكن أن تلامسَ حدود العبث! اعترف أن المرأة لم تعد أكثر من مغامرة، مغامرة خضتها! أحيانا كنتُ بحاجة إليها، وأحيانا لم أكن، لأنني كنت مرتبطا بأخرى في الوقت نفسه! كنتُ مثل ذلك الذي يقتُل من أجل القتل، بعد أن تناسيت مقولتي الطيبة إلى حدّ بعيد، المقولة التي كنت أردِّدها حين تزوجتُ: أنت تخون امرأتك،

فأنت خائن! أما أن تكون متزوِّجا وتقع في حب واحدة وتخون هذه الواحدة فأنت مومس!

كنت واضحا، وما زلت، فالخيانة خيانة، ولا أستطيع أن أتذاكى لأعثر لها على اسم آخر.

في مرحلة ما، أحسستُ أنكَ حين تحوّل الآخر إلى ما يشبه السِّلعة، فأنت تُسلِّع نفسك، قبل أن تُسلِّعه! تماما مثلما يحدث حين تنفي حقيقة واضحة كالشمس، فأنت تنفي نفسك بسبب تشبثك بالظلام.

أحيانا أحسّ بأنني كنت أنتقم لموت زوجتي، مع أنني، في الحقيقة، كنت أنتقم منها ومن ذكراها! قلت لديانا: إنني لم أتزوج سواها وفاءً، نعم! ولكن ما الذي يعنيه هذا الكلام؟! في الحقيقة لا شيء! أمارس الانتقام فقط لأمارس الانتقام! ومِن مَن؟! من نفسي أم من الأخريات؟! ولا علاقة لهن بذلك الموت. أم من الموت نفسه؟! دون أن يعني ذلك أن كل علاقة تخلّيتُ عنها، لم تكن تعني لي شيئا. إنها تعني كل شيء، لأنني استبدلتُ سعادتي فيها بخيانتي لها!

لا أستطيع أن أقول ما هي الصِّفة التي يمكن أن تُطلق على رجل يبيع قصص حبيباته بهذا الثمن! أقول حبيباتي لأنني أحببتهن فعلا، ولم أتخيّل من قبل مقدار تعلّقي بهنّ، إلا حين استعدتهنَّ بالكتابة! كما لم أعرف مقدار خيانتي لهنّ، إلا عندما قدّمتُ حكاياتهن لتتحوّل فصولا من سيرة عضو سلمان بيك.

وتساءلت: ما الفرق بين أن تبيعَ قصصهنّ إليه وأن تَبيع أجسادهنّ إليه؟!

صحيح أن حكاية زوجتك ظلَّت هناك بعيدة، كما لو أنك نسيتها! ولكن، هل خطر لك أن نسيانها كان اسما جديدا لحريتك في أن تحبَّ سواها؟ أن تعبث بسواها؟! وإلا، فكيف يمكن أن تحمي شيئا وأنت

تنساه؟! أنت تحميه حين تتذكره ولا تبيعه، أما حين تنساه في حمّى بحثك عن غيره، فإنك في الحقيقة تكون قد بعته! ثم من قال إنك لم تبع حتى حكاية زوجتك وطفلك؟! لقد بعتها لأنك حين رويتها كنت، دائما، تريد ثمنا لها، وكان الثمن هو أن تنال عطف هذه المرأة أو تلك، أن تثبت أنك إنسان، ووفيّ، ولكن، هل كنت وفيًّا لذكراهما فعلا، أم أنك استخدمتهما جسرا أو تذكرة لإغواء هذه المرأة أو تلك؟!

ها أنت تفتح كل الصفحات بتساؤلاتك هذه!

لنقترب أكثر من الحاضر، لماذا سامية بالذات؟! هل لأنك على يقين من أن ديانا لسواك، وتريدها كلّها لك؟! أم لأنك تريد شيئا بريئا، صافيا للمرة الأخيرة: سامية! فأنت تعرف، حتى لو لم يطردك سلمان بيك بسبب نُهى، فإن قرار التخلّي عنك وعن أمثالك أمر يكاد يكون طبيعيا، و بلا أيّ سبب! وأتفه الأسباب: عدمِ وجود أي سبب!

لكن لنعترف، أنت تتقدَّم من هذه البراءة الصافية، لا لتغدو جزءا منك، بل لتلتهمها كوجبة ملكيّة أخيرة! كانت نُهى، تلك الطالبة الماكرة على حقّ حين كانت تناقش نظريتك حول الفرد والمجتمع، لأنها فهمتْ أنك تريد ذلك الفرد، الذي كان هي، في حضنك، ولا شيء غير ذلك؛ لتلتهمها أولا، ثم تترك المجتمع يلتهمها من بعدك؛ لتُضعفها وتسحقها، حتى تُسلِّمها للمجتمع جاهزة. هل سبق لك أن لاحظتَ أن ذلك أفضل نفي لنظريتك؟!

ماكرة تلك الفتاة!

والآن تطلُّ سامية في اللحظة نفسها التي تقف فيها أنت على الخط الفاصل بين أن تبدأ بداية جديدة مع ديانا، مريحة ربما، ولكنها مفتوحة أيضا على كل الاحتمالات؛ سوى احتمال واحد هو أنك لا تستغلّها، فهي أنضج من ذلك! ولكن، هل هنالك قلب يمكن أن نصفه بـ (أنضج من ذلك) حين يتعلّق الأمر بالحبّ؟!

السقوط مرة أخرى!

في طريقي للقاء كريم، أحسستُ بأنني ذاهبة إلى بيتي، بيتي الحقيقي الذي غبتُ عنه أكثر مما يجب. لم أكن خائفة، وحين أوقفتُ الكورولا السوداء أمام البناية وترجَّلتُ منها، امتدَّتْ يدي داخل حقيبتي باحثة عن المفاتيح! أخرجتُها، ودون أن أفكر رحتُ أبحث عن مفتاح آخر لم أجده، مفتاح بوابة العمارة، مفتاح بيته/ بيتي! انتبهتُ، أخذت نفسًا عميقًا، سعيدة وحزينة كنتُ: إلى أيِّ مدى ستذهبين في هذه العلاقة؟ تعرفين أن سلمان سيحطِّمه إذا علِم بالأمر، وسيحطمكِ معه، ربما يقتلكما! أنا لا أستبعد هذا! رغم أنك سمعتِه في غير مناسبة يردّد مهددًا: كل الأشياء تبدو مقبولة، بل حلالا بالنسبة إليَّ، باستثناء شيء واحد هو القتل!

خفتُ، خفتُ أن أدخل البيت الوحيد الذي شعرتُ بأنه بيتي منذ فارقتُ بيت أهلي. لكن، ولمجرد أنني أعرف أن سلمان خلْفي، تقدَّمتُ، ضغطتُ مفتاح جرس باب العمارة، ففُتِح الباب فورا. هل كان ينتظرني خلف النافذة؟ أم أنه بات يعرف مدى حرصي على دقّة المواعيد؟!

كنت منهكة، حدَّثته عن تلك المرأة التي خرجت راكضة من مكتبي وكأنني الطاعون! كنت متمدِّدة على الأريكة الطويلة المخصصة لجلوس ثلاثة أشخاص. تركني أتحدّث دون أن يقاطعني، إلى أن ضبطتُ نفسي متلبسة في الحالة ومتأثرة، أبكي، وكأنني أتحدثُ عن نفسي!

اعتذرتُ له، نهضتُ باحثة عن الحمَّام.

أمام المرآة كنت امرأة أخرى، كنت تلك المرأة، غسلت وجهي ونظرت ثانية إلى المرآة، أصبحتُ في حالة أسوأ!

ما الذي يحدث لك، ديانا؟! لا أظن أن رجلا يحبُّ أن تبدأ علاقته بامرأة بفصل دراميّ؟! ثم لماذا تنهارين ضعيفة أمامه هكذا؟! كان عليك أن تنتظري لقاءك الخامس أو السادس به، قبل أن تبوحي بنصف مشاعرك التي اندلقتْ مثل كوب شاي ثقيل!

حين عدتُ إلى الصّالون، لم أجده هناك، كان في المطبخ. لاحظتُ أنه استبدل أغنيات ماريزا، بموسيقى جاز منعشة لكيني جيه. في اللقاء الأول أخبرته بأنني أحب كيني، في اللقاء الأول الذي لم أكن فيه كما أنا اليوم.

- تريدين قهوة؟ سألني حين وجدني مستندة إلى بوابة المطبخ.

- لمْ تسألني السؤال إلا لأنك تعرف أنني من ستُعِدُّها! قلت له وأخذتُ نفسًا عميقًا مبتلعةً آخر ملوحةِ الدّمع.

- على أيّ حال، البيت بيتك، يمكنك احتساء ما تريدين.

- دعنا نحتسي أي شيء غير القهوة، أظن أن آخر شيء بحاجة إليه الآن هو أن أصحو!

- متأكدة من هذا؟

- لا! ربما يكون الصحو هو أكثر الأشياء التي أنا في حاجة إليها!

- إذن تريدين قهوة.

- لا، لا أريدها، قدومي هنا، إليك، هو صحوي، لنقل أول صحوي!

تقدّم نحوي، وأمسك بيدي، وقال: لا شيء يبعث الصحو في الإنسان مثل الرّقص!

- أتريد مراقصتي؟! قلت له، ولكنني لا أستطيع الرّقص!

بحثتُ سريعا عن مساحة تتسع لاثنين في ذلك الصالون الصغير، لم أجدها!

- ستتعلّمين بسرعة. وخلع حذاءه.

كنتُ أطول منه بخمس سنتمترات على الأقل! قررتُ أن أخلع حذائي، فقال لا تفعلي: إذا خلعتيه لن تتعلّمي الرّقص!

- ولكنكَ حاف، وسأسحق أصابعك!

- أترين، لقد بدأت بتعلُّم الرّقص!

ضحكتُ: كيف؟

- لقد انتبهتِ إلى أن لديَّ قدمين حافيتين، ولذا ستكونين حريصة على ألّا تدوسيهما! يفشل الإنسان في الرّقص حين لا يتذكر أن لشريكه قدمين إلا بعد أن يدوسهما!

- يهيأ لي أن العكس صحيح، وهو أن المرء ما دام يتذكر أن لشريكه قدمين، فلن يرقص أبدا، إذ سيفكر في القدمين وينسى الرقص!

- وجهة نظر مهمة، ولكن دعينا نختبر نظريات الهواة هذه! اسمحي لي أن أعيد CD (كيني جيه) إلى المعزوفة الأولى: (قلب وروح).

- مع أن المفضلة لديّ هي الثالثة!

- تعرفين، إنها المفضلة لديّ، ولكن لا أريد أن أرقص معك للمرة الأولى على إيقاع معزوفة اسمها (السقوط مرّة أخرى) أو (الخريف مرّة أخرى)!

- لدي حلّ، ضع الثالثة، ولنستبدل اسمها باسم الأولى. فما دمنا نحن من سيرقص على إيقاع موسيقى ما، فإن لنا الحقّ في أن نطلق عليها الاسم الذي نريد، وأنا متأكدة: كيني لن يغضب!

بعد عشر ثوان صاح. لقد دستُ قدمه اليمنى، تراجعتُ، لكنه شدَّني إليه: ها أنتِ قد بدأتِ الرّقص! وليس هنالك دليل على أنك رقصتِ

معي أفضل من قدمي التي ستظلُّ تؤلمني حتى الأربعاء القادم!

ألقيتُ برأسي على كتفه، فمال برأسه نحوي، تلامس خدّانا. كنا نتحرّك في دائرة صغيرة للغاية، لكن ما أراحني، أن قدمَي اللتين حدّدتا إيقاعهما بدقة بالغة بعد ذلك، ساعدتاني على أن أحسّ بجسد كريم أكثر.

تحرَّك (شيء) ما، جفلتُ للحظة، لكنني لم أبتعد!

انتهت الرّقصة بسلام؛ سبقتُه وجلستُ على الكرسي الذي كان يجلس عليه، وتركتُ له مكاني على الأريكة الطويلة.

رأيته يحاول إخفاء إثارته، نظرتُ في اتجاه آخر. جلس.

صمتٌ ما عذبٌ كان يرفّ بأجنحته بيننا. صمتٌ مريحٌ، يمكن أن أدعوه السكينة! وسألتُ نفسي، ما الذي تريدينه الآن، ديانا: مواصلة تعذيب هذا الرجل اللطيف الذي أمامك؟! أم مواصلة تعذيب نفسك بقيامك بفتح جبهة جديدة، وأنت لا تعرفين أبدًا ما هو الخطر الرّابض على طرفها الآخر؟!

تركتُ مكاني، وقطعتُ الخطوتين اللتين تفصلاننا، وجلستُ بجانبه. وضعتُ يدي فوق يده. في تلك اللحظة، تصاعد رنين هاتفه، كان أمامنا تماما فوق الطاولة، تردّد هل يجيب أم لا؛ وكان ذلك كافيا بالنسبة إليّ لأن أرى اسم المتّصل: إنه سلمان! خفتُ، كما لو أنه أطلّ من الهاتف وسألني: وما الذي تفعلينه هنا؟!

- أجب، قلتُ لكريم. وقد تحوّل خوفي إلى فضول وأنا أسأل نفسي: ما العلاقة التي تربط سلمان بكريم ليتّصل به شخصيّا؟!

- سأتصل به مرّة أخرى، إنه صديق!

- أجبْ أرجوك!

أمسك بالهاتف، وسمعتُ صوت سلمان واضحا: أينك؟ لماذا لا تردّ؟!

- آسف، كنت بعيدًا عن الهاتف!
همستُ لنفسي: الذي لم يكذب لم يخلق بعد!
- أوكي، أنت لم تُرسل إليّ ما طلبته منك!
- سأرسله الليلة إن استطعت.
- بل ستستطيع!
- سأحاول.
- لا أريدك أن تحاول، أريدك أن تفعل!
- قبل الحادية عشرة، سأرسلها إليك!
- أريدُ شيئا جميلا، مؤثرا، مثل ذلك الذي أرسلته إليّ في البدايات.
- اطمئن.
وأغلقَ الخطّ.
- يبدو أنه صديق عزيز عليك! قلتُ، محاوِلةً السَّيطرة على أحاسيسي المتضاربة، صديق شخصيّ أم زميل عمل؟!
- شخصيّ! إنه شاعر!
- شاعر!
- لم أعرف أن لديك أصدقاء في الوسط الأدبي! لديك دواوين شعرية له بالتأكيد! ما اسمه؟!
- دعينا منه ومن دواوينه، صحيح أنه صديق عزيز ولكنه شاعر متواضع للغاية!
وقفتُ، عدتُ إلى مكاني قبالته. تأمّلته، كان مهمومًا، نفضَ رأسه، وسألني: عمَّ كنا نتحدّث؟!
التفتُّ إلى ساعتي: يبدو أنني تأخرتُ! كما أن وراءك واجبًا أظنُّ أن عليك إنجازه!
- أبدًا!

حاولتُ أن أضحك: أظن أنني استرقتُ السَّمع للطرف الآخر رغـما عني، كان هاتفك قريبا إليّ! ونهـضتُ. وكـم أدهـشني أنـه لم يقـل لي أيّ كلمة يؤكد فيه أن الوقت ما زال مبكرا، أو يكذبَ حتى!

***

وحيدة كانت سيارة الكورولا تنتظرني، وحين اندسستُ في داخلهـا، كنتُ على يقين من أنني أجلس في أقاصي لونها الأسود العميق!

- صديقه الشَّخصي! وشاعر!

المكالمـــة!

بعد كل ما أبدته سامية من لين، لامسَ حـدود الإغـواء، اختفـتْ. لم تعد تحضر المحاضرات! أزعجني أن أراها تختفي، وديانا تنهض منزعجـة وتختفي، وأنا لا أعرف إن كنت سأبقى أم أنني مثلهما سأختفي؟!

كان عليَّ أن أسأل: ما الذي حدث لزميلتكم؟ ما اسمها؟! تـذكرتُ، سامية! إنها غائبة منذ أيام؟!

- مريضة. أجابوا بصوت واحد.

بعد انتهاء المحاضرة تقدَّم مني أحـد زملائهـا وقـال: نحـن نفكّـر في زيارة سامية، سنشتري هدية جماعية لها، هل لديك مانع أن تساهِم في ثمن الهدية؟!

- على العكس. ومددتُ يدي وأخرجت مبلغًا وأعطيته إياه.

نظر إلى المبلغ وقال: هذا كثير دكتور، مائة دينار!

- لا تنس أنكم ما زلتم طلابـا تأخـذون مـصروفكم الشخـصيّ مـن أهاليكم. اشتروا لها شيئا يستحقّ!

- بهذا المبلـغ، يكـون لـدينا 250 دينـارا، سـنفكر في إهـدائها شـيئا ينفعها! ما رأيك أن نشتري لها لاب توب؟!

- اقتراح جيد! قلت له، وأوشكت أن أعرض عليـه مبلغـا آخـر، إلا أنني أحسستُ أنني سأكون مُبالِغًا في كَرَمي.

شكرني، وابتعد. ناديته، عاد فرحًا، قلت له: هل لديك رقم هاتفهـا،

ربما يكون من الجيد أن أطمئنّ عليها أيضًا!

- سيعني لها ذلك الكثير، دكتور!

***

اتصلتُ بها مساء من البيت، حيّرني أن صوتها كان طبيعيّا، لكنها عندما عرفتْ بأنني أستاذها، انطفأ صوتُها!

سألتها عن أحوالها، فقالت لي إنها تتحسّن، فصحّحتها اليوم أفضل من أيِّ يوم مضى. ولكنني لم أسألها عن مرضها، قلتُ لعله أمرٌ نسائي، فأحرجها!

- متى سنراكِ إذا، ما دمتِ والحمد لله، قد تعافيتِ؟!

- في أيّ وقت تريد، دكتور! قالتها بلهجة امرأة مشتاقة.

- في أي وقت أريد؟!

- فقط أحتاج يوما أو يومين لأتعافى تماما، اتّصل بي، لأنني في الحقيقة لم أجرؤ على الاتصال بكَ منذ أن أعطيتَني رقم هاتفك!

- بعد يومين سأتصل بكِ إذًا. سلامتك!

- الله يسلّمك دكتور. قالتها بصوت يقارب بحيويته صوتها الذي سمعتُه في البداية!

***

- في اللحظة التي بتَّ فيها متردّدا، ها هي تتقدَّمُ نحوكَ! عجيبة هي الدنيا! هل كان عليكَ أن تتردّد قبل هذا بكثير كي تصل إلى نُهى أخيرا؟!

- نُهى؟!

- أعني سامية!

- على أيّ حال، لن أجادلك الآن، لأنني أعرف أنك حين تمضي للقائها ستمضي للقاء الاثنتين معا!

***

نظرتُ إلى الأريكة، حيث كانت تجلس ديانا، افتقدتُها، تساءلتُ: أي شيء ذلك الذي عكَّر مزاجها أكثر مما هو مُعكَّر؟ هل كانت مكالمة سلمان بيك هي السبب؟! هل أكون ضايقتُها لمجرّد أنني أجبتُ على مكالمته؟! ولكنّها هي التي طلبتْ ذلك مني!

انتظرتُ طويلا أن تتّصل بي، لم تفعل. حاولتُ الاتصال بها، أرسلتُ إليها عشر إيميلات على الأقل.

لا جواب.

فقدتُها! أصبحتُ على يقين من أنني فقدتُها.

الشيء الغريب، أنني لم أستعمل كلمة فقدتها فعلا منذ وفاة زوجتي. حيّرني هذا. فكرَّتُ بزيارتها في مكتبها، وفعلتُ. هذا، في النهاية، هو الحلّ الأخير المتبقّي لي.

***

كما رأيتها يوم سبت، ذهبتُ إليها يوم سبت، فأنا أعرف أنها تأتي لتختلي بنفسها هناك، أكثر مما تعمل.

انتظرتُ الساعة الخامسة، الخامسة تماما، الخامسة التي كتبَ عنها لوركا قصيدته الشهيرة (مرثيّة مصارع الثيران)؛ كنت متأكدًا من أن هذه الساعة ستصرعني، أنها ساعة موتي، لكنني ذهبت!

لم أتعمّد أن أحمل معي باقة ورد أو أيّ شيء آخر متودِّدا إليها، ذهبتُ أنا بنفسي، كريم، وقلتُ: لها أن تفعل ما تريد، لكنني لن أقبل بأن تختفي هكذا من حياتي لسبب لا أعرفه!

قرعتُ الجرس، سمعتُ خطى تتقدَّم نحو الباب بتثاقل، وسمعتُ تأفُّفا. ثم هدأ كلّ شيء. لم يكن من الصّعب عليَّ أن أعرف أنها تنظر إليَّ عبر عين الباب السّحرية التي أعتَمتْ.

بعد عشرين ثانية على الأقل، رأيتُ يد الباب تتحرَّك، وسمعتُ لسان

القفل يتراجع في حركتين بطيئتين.

- تفضّل.! قالت لي، وسارت أمامي نحو المكتب.

جلستْ خلف مكتبها.

كانت رسالتها واضحة: لا يمكن أن تكون زيارتكَ هـذه كزيارتـك الأولى. كنتَ إنسانا خاصّـا، أمـا الآن، فلـستَ أكثـر مـن موكِّـل. وكـم فاجأتني حين سألتْ: ما هي قضيتك؟!

- نحن لسنا أطفالا، ديانا؛ لا يجوز أن تمتنعي عن الـردّ عـلى مكالمـاتي ورسائلي. إن كان هنالك أمرٌ سيء يمكن أن نتحدّث فيه، فأنا جاهز.

- هل أنت متأكد من هذا فعلا؟!

- مثل شاهد تحتَ القسَم! وصمتُّ قليلا وقلتُ: يمكنك أن تصدّقي أو لا تصدّقي ما سأقوله الآن، ولكنه جزء من كلامي تحتَ القـسَم: أنـا لم أفتقد إنسانا منذ وفاة زوجتي مثلما افتقدتكِ! أعرف أننـا لم نلتـق إلا مـن شهور، لكن هناك أشياء تتعلّق-وأرجو ألا تعتبري الأمر حذلقة- هنـاك أشياء تتعلّق بكثافة العلاقات، غِناها، إحـساس المـرءِ بأنـه ينتمـي فعـلا لشخص ما، ولذلك كلّه أنا هنا!

- أنتَ على استعداد إذًا لمصارحتي بكلِّ شيء؟!

هززتُ رأسي مؤكِّدا.

- ما هي علاقتك بسلمان سعود؟

- وكيف عرفتِ بأنني أعرفه؟!

- إنه صديقك الشاعر، أليس كذلك؟!

- نعم، كذبتُ عليك، إنه سلمان بيك؟

- تعجبني كلمة بيك هذه.

- ومن أينَ تعرفينه؟!

- ومن لا يعرفه؟! أنا متأكـدة مـن أن كـل مَـن في الأردن يمكـن أن

يكونوا شعراء باستثنائه! تعرف، مُبكية ومضحكة هذه الصِّفة التي ألصقتَها به تلك الليلة! كان يمكن أن تقول: أتحدّث مع تاجر! سأصدِّقك! مع سمسار أراض! مع مُهرِّب! مع قاطع طريق! مع تاجر أعضاء بشرية! لو قلت ذلك، حتى على سبيل الطرافة لتتهرّب من الإجابة، لصدَّقتك! أما أن تصِفه بشاعر، فهذه دمَّرتني! دمَّرتكَ في عيني! مَن لا يعرف سلمان يا كريم؟! صباح كل يوم أتوقّع أن أفتح الجريدة فأجد صورته تحت واحدة من تُهم الفساد الكبرى! منذ سنوات طويلة وهو يتجوّل حرّا من أيِّ تهمة، كما لو أن جسده مطليّ بمادة تحميه، بمادة تمنع التصاق التّهم به! (تيفال) يعني! بس (تيفال) من نوع آخر، قويّ! أرجو ألّا تقول لي، إن ما يربطك به علاقة عمل! أنا أعرف أن الجامعة التي تعمل فيها هي له تقريبا. ولكن ما الذي يربط رجلا رائعا مثلكَ، خريج فرنسا، إنسانا عطوفا وذكيا ومنفتحا بشخص مثل سلمان (بيك)؟! هل تريد أن نواصل الكلام، أم ننتهي هنا؟! صحيح أنك وضعتَ نفسك بنفسك تحت القسَم، ولكن أنت حرٌّ تمامًا في ألا تقول الحقيقة! وبصراحة، إذا ابتدأتَ الكلام، لن أقبل إلا بكلِّ الحقيقة، وبلا ذلك، عليك أن تنهضَ حرًّا وتمضي حاملا كلامك الآخرَ الذي لن أحتمل سماعه، لأنه سيُنهي كل شيء بيننا!

- موافق! قلتُ لها.
- تفضّل.
- هناك كلام سأقوله، ولكن هناك كلام يجب أن تقرئيه أولا!
- ماذا تعني؟!
- لديكِ إنترنت بالتأكيد؟ أريد أن أرى الإيميل!
- ستُرسل إليَّ رسالة؟!
- بل سأرسل إليكِ عشرين رسالة على الأقل كنت أرسلتها إلى

سلمان بيك!

- مَن؟!

- سلمان بيك.

- تفضل!

نهضتْ من خلف طاولتها. نهضتُ، وحين التقينا، وكدنا نـتلامس في تلـك المساحة بـين خزانـة الكتـب وطاولتهـا، تفجّـر بي شـوق مرعـب لاحتضانها. شددتُ أصابعي، ومرّتْ ريحها عاصفة قربي، فتزلزل كياني.

فتحتُ ذلك البريد الخاص برسـائلي إليـه، ظهـرتِ الرسـائلُ؛ كلُّهـا كانت موجهـة إليـه، إذ لم يـسبق لـه أن أرسـل إليَّ رسـالة واحـدة، كـان يهاتفني، ولأول مرة أُدرك ثانية أن شخصيته لم تكن تحتمل الانتظار!

بدأتُ بتحويل الرسائل الأخيرة، ذلـك سيـسمح لهـا بالبـدء بقـراءة الرسائل الأولى.

أغلقتُ البريد، وقفتُ، وكانت تجلس طـوال الوقـت أمـام الطاولـة، حيث كنتُ، قلتُ: تريدين الحقيقة؟! عليك أن تقرئيهـا بنفـسك. والآن، اسمحي لي، عليَّ أن أغادر!

وخرجتُ، في الوقت الذي بقيتْ فيه جالسة لا تعرف شيئا عن تلـك الحقيقة التي أصبحتْ في صندوق بريدها!

ما ظلَّ غامضا!

اتصلتُ بكريم بعد ساعات من البيت، لم يكن سلمان هنـاك، وحتـى لو كان، لكنتُ اتّصلت! كنت قد أنهيتُ قراءة القصص التي أرسلها.

حكايات عذبه عن مغامرات مجنونة لا تخلو من لمسات جريئة أحيانا، قرأتها، بل وأعدتُ قراءة بعضها بتلذّذ شديد. وتوقّفتُ كثيرا عنـد قـصة إيزابيل. قلتُ لنفسي: أنا متأكدة من أنني سمعتُ هذا الاسـم مـن قبـل، ولكن أين؟ لم أتذكر.

منذ زمن لم أقرأ شيئا بهذا الجنون. استغربتُ أن يكون كريم كاتبا ولا يخبرني بذلك! فما قرأته يستحقّ الثناء، لا الخجل! ولكن لمـاذا يرسـلها إلى سلمان؟! لماذا يرسلها إلى سلمان دون أن يكتب ولو كلمة واحدة كرسالة، يوضِّح فيها ما يريده من إرسالها إليه؟!

حاولتُ استعادة فتات بعض الحكايات، الحكايات التي كـان سـلمان يستعرضها أمامي، في الوقت الذي كنتُ أفكـر في أشـياء أخـرى كـي لا أسمعه، لم أنجح.

حين وصلتُ إلى القصص الأخيرة لم أعد أفهم شيئا، فقد كنـتُ عـلى يقين من أن واحدة منها، هي قصّة فيلم (سـويت نـوفمبر) وأخـرى هـي قصّة (9 أسابيع ونصف) مع تعـديلات بـسيطة لم تُـسقط ذلـك الجنـون الجسدي العاتي بين كيم باسنجر وميكي روكي. وقـصّة أخـرى بـدت لي أنها قصة فيلم بالتأكيد، رغم أنني لم أشاهده!

كاتب في البداية! سارق في النهاية! وسارق غبيّ! من يملك الجرأة على سرقة قصص أفلام شهيرة؟!

***

لم أفهم شيئا. اتّصلت بكريم وأخبرته: هناك اقتراح، إما أن أزوركَ أو تزورني!

- غدا الأحد، ولن أراكِ إلا يوم الأربعاء!

- ولماذا الأربعاء؟!

- لأنه الأربعاء، أنتِ تعرفين هذا.

كان الفضول يقتلني، ولكنني وافقتُ: الأربعاء إذًا! ولعلّي كنت في داخلي توّاقة لأن يظلّ للأربعاء معناه القديم.

***

أمضيتُ أسوأ أيام انتظار قاسية، لم أجد عزاء خلالها سوى العودة لقراءة القصص مرّة أخرى وأخرى، بعد أن أسقطتُّ منها تماما قصص الأفلام تلك. وتساءلت: هل كان يدرِّب نفسه على كتابة القصص فقام بتلخيص حكايات الأفلام؟! لكنها كانت الأخيرة التي كُتِبَتْ، وليست الأولى!

جاء الأربعاء أخيرًا.

قبل أن تلمس يدي جرس بوابة مدخل العمارة، فُتِحتْ. وحين وصلتُ إلى باب شقته كان مشرعًا. رحَّب بي بهزَّة من رأسه، وبابتسامة لم تستطع الوصول إلى شفتيه!

جلستُ فوق تلك الأريكة الطويلة، لسبب لا أعرفه، فتمنيتُ لو أنني جلست في المقعد المخصص لشخص واحد. كنتُ ضائعة، فزادني اتساع الأريكة ضياعا.

- لم أفهم شيئا!

- ماذا تعنين؟

- قرأتُ قصصا من تأليفكَ، ربما، وملخّصات أفلام أعرف بعضها ولا أعرف الآخر، وهي كلّها مرسلة إلى سلمان سعود، فأين الحقيقة التي وعدتَ بأن تقولها لي؟! مع أن إرسال قصص جميلة كهذه، يبقى أمرًا غريبًا، بل لأقل مثيرا للفضول، حين يتعلّق الأمر بكونها موجَّهة إلى سلمان!

- الآن، سأقول لكِ حكاية هذه الحكايات، لأنها هي الحقيقة التي عليك معرفتها!

***

حدّثني عن عمله في الجامعة، وعن ظروف العمل القاسية وعن استغلال الأساتذة الذي لا يختلف عن استغلال العمال الوافدين! حدّثني عن لقائه بسلمان بيك قبل أكثر من عام في منزل السفير الفرنسي، في واحدة من احتفالات السفارة، فكدتُ أنسى وأقول له: كنتُ هناك! لكنني صمتُّ في اللحظة الأخيرة: لو كنتُ قرب سلمان في تلك اللحظات لكان رآني!

أخبرني عن استدعاء سلمان له وطلبِ مجموعة من القصص العاطفية، لسبب رفض سلمان توضيحه! وكيف أنه كان مضطرًّا لكتابتها، لأن سلمان يملك قرارَي بقائه وفصله من الجامعة، وهو رجل، قال، تعرفين عنه أكثر مما أعرف!

ارتبكتُ، جمعتُ نفسي وسألته: ولماذا اختاركَ أنت؟ فأجاب: ليس لديّ سوى تفسير واحد هو أنه يعرف أنني خريج فرنسا، وأنني عشتُ الكثير من التجارب المشوقة هناك!

- هي تجاربك إذًا؟!

- بالطبع لا! ليس لدي تجارب مثل هذه فعلا! ولو كانت تجاربي لما

كنت على استعداد لأن أرسلها إليه، لأنني بهذا أكون قد بعته حياتي!

- وقصص الأفلام؟!

- بصراحة، اكتشفتُ أنه لا يشبع. ولو كنتُ شهرزاد نفسَها، لما استطعتُ أن أنجح معه، كما نجحتْ هي مع شهريار! ولذلك، وربما كنوع من السّخرية منه، ومن مطالبه التي لا تتوقّف، كنت مضطرًّا للبحث عن مصادر أخرى للقصص، ولم أجد أفضل من الأفلام، فأعدادها لا تُحصى!

لم أمنع نفسي من أن أبتسم، وأنا أتخيّل سلمان يقرأ هذه القصص دون أن يعرف بأنها قصص أفلام!

- ما الذي تريدين أن تعرفيه أيضا؟ سألني، وقد أحسَّ بأن الغيمة السوداء المطبقة على صدري قد انقشعت.

- أريد أن أعرف ما الذي يفعله رجل مثله بقصص كهذه؟ وتذكرتُ أنني لم أره في حياتي يقرأ قصة أو رواية من تلك الموجودة في غرفتي أو خارجها!

- الصحيح، لا أعرف!

- هل هذه حدود علاقتكَ به إذًا؟

- كما وصفتها لك!

- هنالك إذًا شيء غامض سيبقى، ولكن الإجابة عند سلمان، وهذا ما لن نعرفه!

ربتُّ على الأريكة، ودعوته أن يأتي ليجلس بجانبي.

- صافي يا لبن!

- صافي يا لبن.

نهضَ وجلس بجانبي؛ فقلت: إلهي كم افتقدتُ هذا الرَّجل!

المستحيل والمفاجِئ!

لم يكن رأسي قد لامس المخدة بعد، سمعتُ رنـين هـاتفي، وقبـل أن ألمسه كنت متأكدا من أنها ديانا.

كانت هي.

- قصصك!

- ما بها؟

- لقد عرفتُ قصَّتها!

- ماذا عرفتِ؟

- عمّان صغيرة يا كريم، صغيرة جدًا! هل تتصوَّر أنه كـان يرويهـا في سهراته باعتبارها من مغامراته؟!

- غير معقول!

- لقد سرقها منك، سرقها! أتتخيّل ذلك؟ لم يكفِ هذا الرّجل كل ما سرق فامتدّت يداه حتى إلى قصص الآخرين، حياتهم، وسرقها، ادّعاها، اغتصبها!

- غير معقول!

- لي عندك طلب واحد.

- سأنفذه.

- أليستْ قصصك؟!

- نعم قصصي!

- أنشرها! أنشرها إذن!
- ولي طلب واحد أيضًا.
- أُطلبْ!
- تزوّجيني!
- مستحيل!

***

كانت كلمة مستحيل التي ألقتها ديانا تدور في رأسي كنحلة شرسة، حين سمعت رنين الهاتف من جديد، قلت: لعلها تراجعتْ عن ذلك المستحيل! بسرعة أجبت!

- دكتور، اشتقتلك!
- سامية؟! كيف أنتِ اليوم؟
- ممتازة، وقويّة مثل حصان. غدا سأكون أول طالبة في القاعة!
- وسأكون أول دكتور في القاعة أيضا!

ضحكتْ، وأنَّبتُ نفسي على تبسّطي الزّائد: أراكِ غدا!

- ومتى سأراكَ؟! أعني خارج الجامعة؟!
- عليَّ أن أطمئنّ عليكِ أولا!

***

لم أنم تلك الليلة، متقلّبا كنت بين وجه ديانا، وإجابتها القاطعة: مستحيل! وبين وجه سامية وعذوبته التي أيقظت في جسدي، أشواق ذلك الولد الذي كنته في عشرينيات عمري، مع أنني قبل ثلاث سنوات لا غير، كان لي علاقات مع فتيات بعمرها!

صباحًا، كنت أول أستاذ يصل إلى الجامعة، حيّاني الحارس مستغربًا.

في الممر الطويل لبناية القسم، كان لقدميَّ وقْعُ قدمَي عسكري عائد للبيت بوسام البطولة الذي لم يستطع لمعانه أن يخفي أحزان الخسارات

وعيون القتلى!

قبل أن أصل باب مكتب سُهاد، أدركتُ أنها وصلتِ الجامعةَ قبْلي! تجمَّدتُ مكاني، فكَّرتُ بالعودة. أطلّ رأسُها. سألتْني: دكتور كريم! شو اللي صاير؟! لم أركَ من قبل في الجامعة في مثل هذا الوقت! ولم أر سواك أيضا!

- من الواضح أنك تأتين قبل الجميع! وحاولتُ تجميع نفسي لكي لا أُمكِّنها من رؤية طرف من أطراف سرّي!

- يا دكتور! أنت تعرف أن ليس لديّ شيء أفعله في الليل! مثلك! لكنكَ تتفوّق عليّ في شيء مهم، هو أنك تفعل أشياء في النهار لا أستطيع أن أفعلها أنا! ثم همستْ لي: أنت لم تزل تتذكّر صديقتي التي عرَّفتكَ إليها قبل أكثر من عامين! تذْكُرها؟ أمس سهرنا معا، وحدَّثتني عنكَ كما لو أنها تعرفكَ! حدّثتني بشوق. أمانة، هل حدث بينكما شيء في تلك الليلة؟! هي تنفي، وأنا أؤكد! هكذا أمضينا الليلة الماضية، ولكن حين قلتُ لها، سأرتِّب لك موعدا معه، ظَلّتْ صامتة. فما رأيك؟!

- سأظلُّ صامتا، لكي تفهمي من صمتي أنني غير موافق!

- خسارة، لو كنتُ مكانكَ، لما رفضتُ! وصمتتْ طويلا قبل أن تسألني: ما الكلمة التي تصفُ بها امرأة تعمل على دفع امرأة أخرى لرؤية رجل ما، مثلك: قوّادة، أليس كذلك؟!

- بل عاشقة، عاشقة لسوء حظِّها وسوء حظِّه ربما. عن إذنك!

- إذنك معك. انتبه لنفسك، انتبه كثيرًا هذه المرّة، يحزنني أنه لن يكون باستطاعتي أن أراك إن حدثَ شيء كبير!

***

كانت سامية أول من وصل إلى قاعة المحاضرات. لم أعرف حجم شوقي إليها إلا حينما دخلتْ ورأيتها أمامي، رفعتْ رأسها بعذوبة قاتلة،

ونظرت إليَّ وابتسمتْ، في الوقت الذي امتدَّت فيه يدها لتحشر خصلةَ الشَّعر المتمرِّدة خلف أذنها اليمنى، فكدتُ أصيح: إلهي كم هي جميلة هذه المرأة!

- صباح الخير. الحمد لله على السلامة، كيف أنتِ اليوم؟

- كما تراني!

- رائعة!

- شكرا! اتّصل بي الليلة!

***

لم أستطع تحديد الساعة الأنسب للاتصال بها تلك الليلة، في الثامنة اتَّصلتْ بي معاتبة: لماذا لم تتّصل؟!

- كنتُ سأتّصل الآن!

- القلوب عند بعضها. متى سأراكَ إذًا؟

- غدا إن أردتِ، ليس لديّ محاضرات، يمكن أن نلتقي عصرًا، ما رأيك أن نلتقي في بيتي؟!

- بل سنلتقي في مقهى، مطعم، أي مكان تريده، إلا البيت!

- تعرفين، من الصّعب أن نلتقي في مكان عام، ماذا لو حدث وكان هنالك زملاء لي أو زملاء لكِ؟ لن يكون الوضع لطيفا.

- معك حقّ! علّقتْ، وصمتتْ، فأدركتُ أنها تفكِّر.

- ماذا تقترحين إذًا؟

- سأفكِّر، وأجيبكَ بعد نصف ساعة، اتّفقنا؟

- اتفقنا!

***

- كان من الطبيعي أن تعتذر عن القدوم إلى بيتكَ، ألا تعتقد بأنك بالغتَ، وأنكَ أحرجتها وأنتَ تطلب منها أن يكون اللقاء الأول في

بيتك؟! ففي النهاية، هي لم تزل طفلة إذا ما قورنتْ بك!

- ولكن المقهى أو المطعم أمرٌ مستحيل أيضا!

- لماذا لم تفكِّر في السيارة؟! جولة واسعة مثل تلك التي كنت مضطرًّا للقيام بها، بسبب عدم وجود خصوصية في بيتك المستأجر ذاك! ومن يعلم، فقد ينتهي الأمر بشيء كبير كما انتهى مع إيزابيل! ألم تقل إنك فوجئتَ، في ذلك اليوم، بكون السيارة أوسع من أيّ سرير نمتَ فيه؟!

- ولكن إيزابيل أجنبية، لا أحد يعرفها هنا، أما مع سامية فالأمر مختلف؛ فإذا كان المطعم أو المقهى مساحتين غير آمنتين، فسيكون كلّ شارع وكلّ إشارة ضوئية، بل وكلّ مطبٍّ، وليس هناك ما هو أكثر من مطبّات عمّان! ستكون هذه كلها منصّات نموذجية لأعين ركاب وسائقي آلاف السيارات في شوارع العاصمة! وكيف يمكنك أيضًا أن تتأكد من أن كل هذه الشوارع ستكون خالية من طلبتك وزملائك وأقاربها ومعارفها ومعارفك؟!

تصاعد رنين الموبايل.

- هناك مكالمة لكَ، لعلها وصلتْ إلى حلٍّ يُرضيك!

- دكتور، فكرتُ كثيرًا، ووصلتُ إلى حلٍّ وسط! قد يكون مُحرجا لي كثيرًا، ولكن، لا أظن أن هنالك حلًّا آخر غيره، إذا قلتَ (لا) سأحترم رأيك، وأقول (لا) معكَ أيضًا!

- ماذا تقترحين؟

- أرجوك دكتور، إذا لم يعجبك اقتراحي، حاول أن تتصرّف كما لو أنك لم تسمعه! تعدني؟!

- أعِدكِ!

- لماذا لا نستأجر غرفة في أحد فنادق الدّرجة الأولى؟! يمكن أن أُقنع أهلي أنني ذاهبة في رحلة إلى العقبة. ما رأيك؟!

مفاجئًا كان الاقتراح، فلم أستطع إلا أن أصمتَ.

- اتركيني أفكّر قليلا، وسأجيبكِ!

- إذًا أرجوك إنسَ اقتراحي! أرجو أن تقول لي إنكَ لم تسمعه، لقد أحرجتُكَ وأحرجتُ نفسي، سامحْني، سأغلق الخطّ!

- انتظري، انتظري. ربما هو خوفي عليكِ الذي يجعلني متردّدًا!

- وهل كان يمكن أن اقترح حلًّا كهذا لو لم أكن حريصة عليك وعلى صورتك؟!

- اتفقنا إذن! ما هو أفضل يوم بالنسبة لك؟

- واحدة من ليلتين، ليلة الجمعة، أو ليلة السبت، ما رأيك؟

- ولكن، ربما، من الصعب أن تُقنعي أهلكِ بأنك ستذهبين إلى العقبة وتنامين ليلة واحدة!

- أتقصد أن علينا حجز ليلتين؟!

- لا، لا، لا أقصد ذلك.

- سأخبرهم إذًا أن هناك رحلة إلى وادي رَم، وكثير من الناس يُمضون هناك ليلة واحدة، ما رأيك؟

- معقول!

- ولكن هناك شرطًا واحدًا يهمّني كثيرًا، تستطيع أن تقول: معنويًّا لا يمكن أن أتنازل عنه!

- وما هو؟

- أنا التي ستستأجِر الغرفة، وأنا التي ستدفع للفندق!

- ومن أين لكِ أن تدفعي أجرةَ ليلة في فندق درجة أولى؟!

- كنتُ ادّخرتُ قليلا، ثم إن زملائي الذين جاؤوا لزيارتي، قرّروا أخيرا أن يعطوني ثمن الهدية التي كانوا سيهدونني إياها، لأشتري الهدية التي أريد!

- لن أقبل بهذا.

- اسمح لي أن أغلق الخطَّ إذًا!

- انتظري، انتظري!

رحتُ أفكر في اقتراحها، فوجدتُ أن الفرصة ستضيع إن لم أوافق.

- لا تنس، كريم، أنك ساهمت بمائة دينار في هديتها التي ستهديك إياها. وافقْ بسرعة، وافق!

- خلاص، موافق!

- شكرا لكَ! بعد ثلاثة أيام إذن نلتقي في الفندق، بين الثالثة والرابعة من مساء الخميس، بمجرد أن أحجز، سأتصل بك وأعلمك باسم الفندق ورقم الغرفة. اتفقنا؟!

- اتفقنا.

أرض المعركة!

اتَّصلتُ بسامية بعد خمس دقائق مـن انتهـاء المكالمـة معهـا. فوجئـتْ باتصالي، كأنّه الأول، وسألتْني: هل غيرتَ رأيك؟! ولم تكن المسافة التـي تفصلنا تمنعني من التقاط حالة الرّعب التي سكَنَتْها!

طمأنتُهـا: لا لم أغـيّر رأيـي، فقـط أريـد أن أسـألك في أي فنـدق ستحجزين؟

- أفكر بالشيراتون، المريديان، حيـاة، لنقـل أفكّـر في الأول والثـاني، ذكريات الثالث صعبة منذ تفجيرات عمّان! ما رأيك بالماريوت؟!

- لا أعرف!

- لماذا تشعرني بأنك متردّد أيضا بشأن الفندق؟! دكتور مـن الممكـن أن نُلغي الفكرة تمامًا، أنا فقط أبحث عن أفضل حلٍّ يرضيكَ!

- ليست هناك مشكلة أبدًا، فقط أخبريني باسم الفندق.

***

أول شيء فعلتُه في اليوم التالي هو زيارتي للفندق الـذي حجـزتْ لنـا غرفة فيه! كنت أعرفـه نعـم، وحـضرتُ فيـه حفـلات زواج وحفـلات استقبال أجنبية، لكنني لم أكن أفعل شيئا في المرات الماضـية أكثـر مـن أن أتتبّع السَّهم الذي يؤدي إلى موقع الحفل، فأصل! لم أفكّر مـرّة بـالتجوال داخله ومعرفة بعض التفاصيل الصغيرة التي تهمّني الآن!

كنت أعرف أن الكاميرات باتـت في كـلِّ مكـان، وأنهـا ترصـد كـلّ

حركة يقوم بها أي شخص في الدّاخل، وأعرف أن مَن خلْف الكاميرات باتوا حذرين بحيث يمكن أن يُحصوا كم لقمة ابتلعتَ وكم رشفة بقيتْ في قعر فنجان قهوتك!

شربتُ قهوة في البهو، شربتها على مَهل، وأنا أدَّعي القراءة في كتاب (أسطورة العودة الأبدية) لميرسيا إيلياد، بالفرنسية. كتاب عربي ربما يجلب الشبهة! فكَّرتُ! وعملتُ على تصفيف شَعري بحيث يكون أقرب ما يكون إلى شعر ريتشارد جير، بعد أن أخبرتني ديانا بأن شَعري ذكَّرها بشَعره!

لم أكن أسمر، بقدر ما كنت مائلا إلى البياض، وهذا يعني أن أولئك القابعين خلف الكاميرات، لن يخصِّصوا لي كاميرا طوال جلوسي!

حرصتُ على أن أقلب الصفحة في الوقت اللازم لقراءة صفحة. لم أكن سريعا في القراءة، لم أكن أُنهي أكثر من خمس وعشرين صفحة في الساعة، فتأمّلتُ الصفحات متتبِّعا إيقاع سرعتي القرائية المعتادة.

أول ما كان عليَّ أن أعرف موقعه هو المصعد، أو مجموعة المصاعد المتجاورة، ذلك كان الأمر الأكثر أهمية. الخطوة التالية، كان عليَّ أن أعرف خطَّ سير نزلاء الفندق من البوابة الرئيسية حتى المصاعد؛ بعد ذلك انتقلتُ إلى المرحلة الثالثة: مراقبة موظفي الاستقبال بدقّة، لمعرفة مدى اكتراثهم بالدّاخلين والخارجين، وبخاصة المتوجِّهين إلى المصاعد.

بعد ساعة أصبحتُ أكثر اطمئنانا، إذ لم ألحظ ما يشير إلى أيِّ إزعاج للصاعدين إلى الغرف أو الهابطين منها، وقلت، لعل الأمر يعود إلى وجود بعض المطاعم والصالات في الطبقات العليا.

***

غادرتُ بهو الفندق، والكتاب يتأرجح في يدي، متوجِّها إلى سيارتي، التي أوقفتُها على بعد مائتي متر تقريبا في الشارع، فآخر شيء يمكن أن

أفعله هو أن أسلِّم مفتاحها لأحد العاملين في الفندق ليوقِفها في مكان لا أعرفه، وأكون بذلك مضطرّا لانتظاره، وقتا قد يطول، وكلّي خوف من أن يراني أحد!

***

وصلتُ إلى البيت مطمئنًا. كانت أرض المعركة واضحة في رأسي، فانتابني شعور بالرّاحة لأن عملية الاستطلاع التي قمتُ بها، ستحرّرني من أيّ أحاسيس مزعجة قد تسكنني في أول لحظاتِ لقائي بسامية.

نمتُ مطمئنًا.

الثمانية الكبار!

لم أكن سعيدا بدعوة مسؤول كبير سابق، عُرِفَ عنه أنه سليط اللسان، كما عُرِفَ بوقاحةٍ لا تُراعي أبسط شروط اللياقة! لكن إصرار واحد من المجموعة على ضخِّ دم جديد فيها، جعلني أوافق في النهاية. قلت: سأجرِّبه، لن أخسر شيئا؛ وإذا التزم حدوده ولم أر منه سوى خفّة دمه، التي يقال أيضا إنها واحدة من سماته، فسأفكر في دعوته مرة أخرى؛ أما إذا تطاول، فانا أعرف نفسي، قادر على إيقافه عند حدّه، ولديَّ خبرة واسعة تشكّلت بعد ذلك العمل الذي لن أسمّيه!

أعرف أن بمستطاعي أن أسأله عشرات الأسئلة المُربكة التي ستضعه في الزّاوية إذا لزم الأمر! فأنا أعرف على الأقل تفاصيل درِّينة من القضايا التي تُحرجه!

لم يكن ذلك المسؤول غريبا عنّي، كما لم أكن غريبا عنه بالطبع، لكن لقاءاتنا كانت عابرة دائما، ولم يحدث أيّ تقاطع في العمل بيننا!

***

المفاجأة المذهلة أنه أمضى السّهرة الأولى مثل أيّ ضيف خجول يجد نفسه مدعوّا لبيت يدخله للمرة الأولى! كلّ كلمة قالها كانت لطيفة، وكل نكتة أطلقها كانت في حدود الأدب! وإذا كان هنالك شيء أزعجني فيه، فهو شكله! حيث لم أستطع إلا أن أفتعل نظرة بين حين وآخر، لسبب أو لآخر، نحوه لأتأمله خطفًا! كان نموذجا حقيقيا لتلك

النظرية التي تقول إن الإنسان تطوّر عن قرد! وإذا ما أردتُ أن أكون صادقا سأقول: إنه من مخلّفات المرحلة الوسطى لذلك التطوُّر! أي أن شكله ليس شكل قرد تماما وليس شكل إنسان تماما؛ كان أقرب ما يكون إلى شمبانزي حقيقي!

تخيّلته أكثر من مرّة دون ملابسه، فوجدته شخصيّة تدعو للضحك حتى لو لم يفتح فمه ليروي لنا نكتة! تخيّلته يتقافز فوق الطاولات ويلتهم كل ما في سلّة الفواكه الكبيرة، السلة المتوَّجة بقرون الموز الصومالي!

فاجأني، كان مؤدَّبا! وهكذا دعوته ثانية، وأنا شبه متأكِّد من أن اسم مجموعتنا سيصبح: الثمانية الكبار!

***

الدكتور رجب، أستاذ التاريخ، كان الوحيد من طاقم الجامعة الذين أسمح له بحضور لقائنا الخاص. كان ماهرا فعلا في استدراج الناس للحديث عن تجاربهم الغرامية. لم يكن أقلّ براعة مني في انتزاع الأجوبة بيسر! مع أنني لا أنكر أنني أمرتُ بتوثيق بعض الذين استجوبتهم على شكل قوس هو أقرب للدائرة! لكن الفرق بيني وبينه: هو أن الناس كانت تستفيض أمامه بسعادة، على العكس مما كان يحدث معي، إذ إن كل جملة كان (المتّهمون) يقولونها، كانت أشبه باقتلاع سنٍّ أو ضرس من أفواههم!

الغريب أن ذلك الشمبانزي انطلق في لقائنا الثاني -كما لو أنه تخفّف من خجله، أو أراد أن يثبتَ أنه يستحق الانضمام إلينا- انطلق في سرد حكايات غرامه منذ الطفولة ببساطة، كما لو أننا أصدقاء من ألف عام! كان يسخر من نفسه أيضًا دون تحفّظ، كأن يقول: بالطبع، ارتعبتِ الفتاةُ حينما أتتْ لتقابلني أخيرًا، بعد أن دوختُها برسائل غزلي الجميل! ويلتفتُ إلينا ويضيف: وهذا أمر مفروغٌ منه! كانت أشبه ما تكون بنادية لطفي

وأنا كما ترون لا علاقة لي أبدا برشدي أباظة -ضحكنا-.

كل لقاء أوّل، له، مع أيِّ فتاة، كان يسميه (الصَّدمة والتَّرويع)، قال -ضحكنا- وأضاف: لكن هذا الإحساس يصبح ذكرى بعيدة بعد نصف ساعة أو أقل! خذوها نصيحة: المرأة تحبُّ ذلك الذي يُضحكها كثيرا، شرط ألّا يتحوّل إلى مهرج! وإذا استطاع أن يكسب ثقتها أيضا، فآخر شيء يمكن أن تراه حين تنظر إليه هو خِلْقته! أي سِحْنَته، وأنا أعرف رجالا جميلين في نظرنا، إلى درجة أن الواحد منا قد يفكِّر فيهم!- ضحكنا طويلا- لكن النساء تنفرُ منهم، وقد قالت لي امرأة جميلة ذات يوم عن واحد من هؤلاء: إنه يشعرني بالتقزّز!

***

سعدتُ بكل ما قاله! وهمستُ لنفسي: ما داموا يصدّقون الروايات الغرامية لهذا الشمبانزي، فإنهم يصدِّقون ما أقوله أكثر ألف مرة على الأقل! أنا تطوَّرتُ! أما هو فبقي هناك في العصر الوسيط للتطوّر، إذا ما أخذنا بتلك النظرية التي لا تعجبني أصلا!

التفتَ الدكتور رجب إليَّ وقال تلك الجملة التي سمعتُها منه مِرارا، الجملة التي كنتُ أنتظر سماعها: ولوْ سلمان بيك ألا تريد أن تُكرِّمنا بواحدة من حكاياتك، فنحن ضيوفك؟! كانت تلك مقدِّمة بارعة تتيح لي التمنّع قليلا، وادّعاء الخجل، والتّواضع أيضا! لكنني في النهاية أنطلق في الحديث.

فوجئت بنفسي أقول لهم: سأروي لكم حكاية من أيام الشباب، أيام الطيش يعني، ولكن اسمحوا لي، سأغيب دقائق وأعود!

- أرجو ألا تكون ذاهبًا لتعيش الحكاية مباشرة وتعود! قال الشمبانزي.

فأجبته: يا ريت، يا ريت أستطيع ذلك، فهذا يعني أنني قادر على

استعادة أيام الشباب!

في الحقيقة، لم أستظرف تعليقه، رغم رضاي عن تعليقي!

حين عدت، قال لي الشمبانزي: لقد تأخرتَ علينا كثيرا سلمان بيك! فاعتذرتُ لهم: صلاة العشاء! فوجئ، فأضفت: لم يكن ممكنا أن تفوتني! تعرفون، يبدو لي، ولكل منكم رأيه بالتأكيد: كل الأشياء تبدو مقبولة، بل حلالا بالنسبة إليّ، باستثناء ترْك الصلاة!

أخذ الشمبانزي جرعة كبيرة من كأسه، وقال: لنعُد لحكايات شبابك، ونرجو أن تكون جميلة مثل تلك التي سمعناها منك في السهرة الماضية!

***

كانت الحكاية عن علاقتي كرجل أعمال منغمس في التفاصيل إلى حدٍّ قاتل، وكيف أقابل فتاة جميلة اسمها شيرين، وأقع في حبها! لكنها تكون دائما متضايقة من موبايلي الذي لا يتوقّف رنينه! وفي لحظة كانت قد بدأت فيه تتعرّى، رنّ، فأمسكتْ به وقالت: إذا أردتَ أن تنام معي، فعليك أن تُلقي بهذا الهاتف هنا، وإلا فإن عليك النوم مع هاتفك! كانت ترفع في يدها زهرية، ألقت بالزّهور التي فيها بعيدا، زهوري! فلم يبق إلا الماء!

كانت جميلة إلى ذلك الحدّ الذي جعلني أمدُّ يدي إليها وأناولها الهاتف، أما أغرب ما حدث، فإنني كنتُ أراقب حركة يدها العذبة وهي تتّجه للزّهرية، أكثر ما كنت أنتظر المصير الذي ينتظر هاتفي. أعدمتْهُ!

التفتتْ إليَّ، وسألتني: غاضب؟! هززتُ رأسي نافيا ذلك، فابتسمتْ.

بعد ذلك لم أعد أجرؤ على الذهاب إليها وأنا أحمل هاتفا، وأصارحكم، لقد كانت على حق، إذ أحسستُ فعلا بأنني حرٌّ وسعيد

أيضا، إلى أن ضبطتْني أنظر إلى ساعتي، رولكس رائعة أهداني إياها (...) لن أقول! المهم، أمسكتْ بالساعة وفتحتْ نافذةَ غرفتنا، عشّنا السّريّ في الطابق الرابع، وألقتْها للأسفل؛ وأنا أتساءل أيّ اكتفاء وصفاء وقناعة تجعل هذه الجميلة تحتقر كل ما يمتُّ إلى المال بصِلة؟!

بعد أن أرتْني سعادة لم أر مثلها في حياتي، أدركتُ أن الزّمن الحقيقي، الزّمن المثالي الذي يجب أن تتطلّع إليه البشرية كلّها، هو زمن هذه المرأة، زمن جمالها! ولكني لا أكتمكم، كان الشيء الوحيد الذي شغلني هو أن تكون الساعة وقعتْ فوق رأس واحد من المساكين وهشّمته -ضحكوا- !

وصمتُّ قليلا، مُبديا حزني العميق، قبل أن أقول: حين تصل السعادة إلى هذه الدرجة من الكمال، عليك أن تبدأ بالخوف عليها، وهذا ما حدث! فبعد شهر كامل، هو بالتأكيد أجمل شهور حياتي، شهر تشرين الثاني ذاك! وصلتُ إلى عشنا لأُمضي معها ليلة جميلة أخرى. لم أجدها في تلك الشقّة، وحين لاحظتُ اختفاء ملابسها، أدركتُ أنني لن أراها ثانيةً! في طريقي إلى الباب كنتُ متّجهًا، حين لمحتُ ذلك المظروف، أنه رسالة منها! فتحته، كانت رسالة وداع! أقسى رسالة وداع في الوجود! تحدَّثتْ عن ذلك الشهر باعتباره أهم شهور حياتها، الشهر الذي كانت بحاجة إليه لكي تستطيع مواجهة الموت، وفي الجملة الأخيرة من الرسالة تخبرني عن إصابتها بالسرطان!

صمتُّ قليلا، مبديا تأثرًا واضحًا.

فعلّق الشمبانزي: أيّ كلام سيقال بعد ذلك سيكون قلَّة أدب، فالقصة أبكتْني فعلا! نظرتُ إلى عينيه الضيِّقتين، وبدا لي أن فيهما آثار دموع! فقلتُ للدكتور رجب: أرأيت! كنت تريد حكاية، وهذه هي النتيجة! فعلق الدكتور رجب بتأثر: ليس من المعقول أن تكون النهايات سعيدة دائما.

أحببتُ جملته في البداية، ثم حين فكرتُ فيها، أقلقتْني!

***

بدأ رجال مجموعة الثمانية الكبار بلملمة أطرافهم استعدادًا للرحيل، فنهض الشمبانزي -كان قد شرب الكثير، لكنه بدا متماسكا-.

سألته بلطف: حديد؟!

فقال: بل بطيخ! ولكن هذه هي اللحظة التي علينا أن نعترف فيها بأهمية وجود سائق في الانتظار!

لاحظتُ أنه يتلكأ في المغادرة، متعمِّدا أن يكون الشخص الأخير الذي يخرج!

ابتعدتْ السيارات، فسألته: هناك عِظام في بطنك أسمع قرقعتَها!

- كنت أريد أن أقول لك لا ترو هذه الحكاية مرّة أخرى!

- لأنها حزينة جدًا، أليس كذلك؟ أبكتْكَ!

- بل لأنها تشبه إلى حدٍّ غير عادي قصّة فيلم شاهدتُه مع بناتي؛ فأنا أجاملهنَّ أحيانا وأشاهد بعض الأفلام معهن!

- لا يعقل أن يكونوا قد سمعوا بحكايتي وحوّلوها إلى فيلم عربي! قلتُ وأنا أحاول ما استطعتْ أن أبدو هادئا.

- إنه فيلم أمريكي!

- هذا لا يعقل!

- اسمه، إذا لم تخنّي الذاكرة، سويت نوفمبر، يعني بالعربي، تشرين الثاني الحلو، أو العَذْب! وللمصادفة! لفرط ما أعجبتني المثلة سألت عن اسمها فقالوا لي تشارليز ثيرون. اسم صاحبتك كان شيرين أليس كذلك؟!

- نعم!

- نصيحتي، إنس هذه القصة، وإذا ما أردتَ أن أكون صادقا معك

أكثر، فانس القصة التي قلتَها لنا في اللقاء السابق أيضا!

- لماذا؟

- لأن هنالك فيلما آخر قصّتُكَ تشبه قصتَه تماما! هل أقول لك اسمه؟!

- لا!

- هي مصادفات بلا شك، ولكن علينا أن نتّقي مواطن الشُّبهات حين تكون الأمور متشابهة إلى هذه الدرجة، فقد لا يفسِّرها لئيم ما باعتبارها شكلا من أشكال المصادفات!

شكرته، بل بالغتُ في شكره وأنا أردِّد: فعلا الدنيا غريبة! فردَّ قبل أن يختفي: يقال يخلِقُ من الشّبه أربعين، وربما تكون هناك لكلِّ قصة أربعون قصة تشبهها. لا عليك! لكنني اتخذت قرارًا، أحبُّ أن أقوله لك بنفسي!

- تفضل!

- جلسة ليس فيها سوى إعادات باهتة لحكايات الأفلام، مشاهدةُ الأفلام أفضل منها!

وما إن أصبح في داخل سيارته حتى أطلق قهقهةً عالية، ظلَّتْ تُحوِّم في المكان إلى أن اختفتْ أضواء سيارته، ثم راحت قهقهتهُ تحوِّم داخل رأسي!

أمسكتُ بهاتفي باحثًا بجنون عن رقم كريم!

القلعة الغامضة

كنت قد أصبحتُ متردِّدا بشأن سامية، حتى قبل اتصال سلمان بيك الغاضب الذي أربكَ حياتي ثانية. كان يتكلَّم وكأنني تحرّشت به هذه المرّة! به شخصيًّا! بل كأنني انتهكته أمام أصدقائه الذين لم يجمعهم وينفق عليهم ويدللهم إلا ليروي لهم بطولات شيئه! وإذا بي أنتهكه أمامهم! أمام البلد كلِّه! أمام العالم!

كنت أفكِّر في سامية، وأتساءل: ما الذي يمكن أن تحصل عليه من فتاة بعمرها، أن تُقبِّلها؟ تضمَّها؟ تعرِّي جزءا من جسدها، ما الذي سيضيف إليكَ ذلك؟!

وجاء الاتصال.

- وما الذي يمكن أن تخسره أيضا؟! أسوأ ما حدث قد حدث، لقد فُصلتَ، لن تعود إلى الجامعة! ولكن العاملين في الجامعة وطلابها لن يسمعوا بخبر فصلك قبل يوم الأحد، ثلاثة أيام كاملة أمامك. هي فرصتك الأخيرة! فمن يَعرف إذا ما كانت سامية ستأتي أم لا، إذا ما سمعتْ بخبر طرْدكَ؟! لعل أقصى ما يهمّها، فيك ومنك، هو العلامة الكاملة التي ستنالها! وحين تتأكّد من أنك لستَ الذي سيمنحها إياها، ستحجز غرفة لها ولأستاذها الجديد! وتكون قد ساهمتَ بمالك في تهيئة الجوِّ الملائم لهما لكي يحلِّقا عاليا على حسابك!

اذهب يا كريم، اذهب، كنتَ تعتقد أنها قد تكون فرصتك الأخيرة،

وها هي تصبح فرصتكَ الأخيرة للخروج من عملك الطويل بعلاقة أنت الآن بحاجة إليها أكثر من أي شيء آخر، فها أنتَ ترى ديانا، غامضة، تتقدّم خطوة وتتراجع خطوة، وحين تمدّ يدك لتلمسها، ترتبك، كما لو أنها لا تريد من حبك إلا الحبّ! وتسألها: تزوَّجيني! فترمي تلك الكلمة في وجهك: مستحيل!

اذهب إلى سامية، ولتكن واحدة من علاقتين، علاقة احتياط، إن فشلتْ هذه تنجح تلك! ومن يدرِي، ربما لن تكون مضطرًّا في علاقتك بسامية مستقبلا، إلى حجز غرفة في فندق، بل بالتأكيد لن تحتاج لذلك، إذ ستأتي إلى بيتك بحرِّيّة كاملة، فلا هي مُحرجَة، لأنها كانت قد أمضتْ معك ليلة في فندق، ولا أنت مُحرِج لأنها لم تعد طالبتك!

نصيحتي اذهب.

نصيحتي لن تخسر شيئا.

***

مثل الذّاهب إلى موعده الأول كنتُ، مثل من لم يتحدَّث مع امرأة في حياته. لم يسبق لي أن عشتُ تجربة مماثلة لهذه، ولا تحرّكت بكل هذا الحرص. أوقفتُ السيارة بعيدًا، وحملتُ كتاب إيلياد نفسه، كما لو أنه بندقيتي التي سأدافع بها عن نفسي ساعة الخطر! اتّصلتُ بها وأنا متكئ على سطح السيارة: وصلتِ؟

- وصلتُ!

- بعد دقيقتين أكون عندك.

- لا تتأخّر!

كان الفندق أمامي أشبه بقلعة؛ قلعة غامضة، كأنني سأدخلها للمرّة الأولى. سرتُ مدَّعيا الثّقة. كان عليَّ أن أفعل ذلك، فموظفو الفنادق لا يختلفون عن موظفي أمن المطارات، حواسّهم مستنفرة دائما، وقادرون

على شمِّ رائحة الخطر والارتباك بسرعة جهنّميّة!

تعمَّدتُ ألا ألقي التحيّة على أحد! كنتُ أرسم ابتسامة مُغتصَبة لمن يشير برأسه خارج البوابة مُرَحِّبا، ولمن تجلس جوار الباب في موقع استعلامات، أو استقبال متقدِّم، وأتقدَّم نحو بوابة المصعد مثل رجل آليّ يعرف تماما مساره المحدَّد له.

انتظرتُ المصعد خائفا أن ينحشر فيه، في اللحظة الأخيرة، واحد أو أكثر ممن أعرفهم.

وصلت امرأةٌ أجنبية بدينة تلبس سروالا طويلا أسود وقميصًا مشجَّرًا. سمعتُ جرس المصعد الخافت الذي ينبئ باقتراب وصوله. وصلَ، دعوتُ المرأة الأجنبية بابتسامتي ذاتها للدخول. شكرتْني، فلم أردّ، ودخلتُ خلفها.

كان انغلاق باب المصعد على وشك أن يكتمل، حين فُتح ثانية، ورأيتُ خمسة شباب وفتاتين في عمرهم يدخلون ضاحكين!

فزعتُ! يا للهول، ماذا لو كان أحدهم من طلابي؟ كيف سأتصرف حينها؟!

أُغلقَ البابُ أخيرا. صعدنا؛ فانتابني شعور من الفرح والخوف مثل ذلك الذي ينتاب رجلا عالِقًا في جوف بئر وصله حبلُ النّجاة؛ فَرِحٌ لأن الحبل وصل، وخائف أن ينقطع وهو في طريقه إلى الأعلى!

وسمعتُ دقّات قلبي الهادرة، إلى درجة أنني لم أعرف إن كنتُ أنا كريم الذي طاف العالم، أو واحدًا غيره! إنه العمر إذن، إنه الخوف من كل شيء، من الطلبة ومن المعارف ومن تلك التي ما كان يمكن أن تحسب لها حسابا لو كنتَ في العشرين أو الثلاثين أو حتى في الأربعين من عمرك!

توقَّف المصعد في الطابق الخامس، نزلت المرأةُ الأجنبية، توقّف في

السّادس. غادرتُه؛ وواصل الشباب الخمسة والفتاتان صعودهم!

لم يكن صعبا عليَّ أن أعرف موقع الغرفة التي أقصدها، فالأسهم والأرقام توضّح كلَّ شيء.

قطعتُ أكثر من عشرين خطوة في ذلك الممرِّ الخافت الإضاءة، إلى أن وصلتُ أمام ذلك الرّقم الذي لن أنساه: 615.

نقرتُ البابَ بأصابعي، لم تَفتح. في النهاية، كنتُ مضطرّا أن أضغط مفتاح الجرس، فعلتُ، وفجأة أُشرع البابُ، وانطلقتْ الأصوات مدوّية: أهلا دكتور! أهلا دكتور!

كان كل طلبتي الذين يشاركون سامية في المحاضرة هناك!

بصعوبة استطعتُ أن أراها خلْفهم ترمقني بتلك النظرة الرّهيبة، وهي تحشر خصلةَ شَعرها المتمرِّدة خلف أذنها اليمنى!

تراجعتُ وهم يصيحون: إلى أين دكتور؟! ويضحكون.

خمس أو ستّ خطوات قَطَعْتُها مبتعدا، وضحكاتهم وأصواتهم تتابعني: إلى أين دكتور؟! خمس أو ست خطوات قبل أن أسقط كحجر ضخم مرتطما بالأرض! أمسكتُ بصدري وقد أدركتُ أن قلبي سيخرج منه إن لم أفعل ذلك، ثم تحوَّل رماد الممرِّ إلى ليل!

قصة

السلحفاة التي فقدت درعها

أرَق

بعد ثمانية أشهر مما يمكن أن نسميها (ليلة الأفلام)، وجد سلمان بيك نفسه فارغا من جديد، فانتابه حس عارم للعودة إلى قراءة الحكايات التي أرسلها إليه كريم، لأنه اكتشف أنه نسيها تقريبا.

شيء ما كان يؤلمه، في مكان ما، غامض، لا يعرف موقعه، مع أنه في جسده!

***

حين وصل البيت مساء، توجَّه نحو طاولته، حاول أن يتذكّر عنوان بريده الإلكتروني الوهميّ، الذي تقبع فيه الحكايات التي أرسلها كريم إليه، لم يستطع! ثم تذكّر أنه دوَّنه في مكان ما. تذكّر: دفتر مذكراته!

وجده.

الشيء الوحيد الذي ما كان يمكن أن ينساه: كلمة المرور: اسم ديانا مكرّرًا ثلاث مرات!

فتح بريده. طالعه كم هائل من الرسائل المتطفّلة المرسلة إليه. بدأ بشطبها واحدة بعد أخرى، محاذرًا أن يشطب رسالة من تلك الرسائل الغالية! وفجأة، وجد عينيه مثبتتين على رسالة إلكترونية من كريم، لم يسبق له أن فتحها! عنوانها: أعدكَ ببداية جديدة! نظر إلى تاريخها، فوجئ، كانت قديمة!

تردّد كثيرًا، وقد راح كلّ ما في داخله يحترق.

فتح الرِّسالة!

وجد أن كريم يعرض عليه إرسـال حكايـات جديـدة، حكايـات لم يفكِّر يوما أن يبوح بها!

وأكملَ قراءة الرّسالة.

كان كريم واضحًا: *ليكن تعاملنا خارج الجامعة، فأنت لم تُعدْني إليها، إلّا لأنك تريد (تلك المغامرات)، وأنا على استعداد أن أزوّدك بحكايـات حقيقية، معتذرًا إليك لإرسـالي حكايـات الأفـلام تلـك! ولأعـترف: في لحظة ما، أحسستُ أنّ من العبث أن أعطيك حياتي كلّها!*

أرسل إليك الحكايـة الأولى مـع هـذه الرسـالة، وإذا أعجبتـكَ، كـما أتوقع! سأقبل بألف دينـار في الـشهر، وأعـدكَ بـأن تجـد في كـلِّ حكايـة سأرسلها ما يُدهشكَ ويدهش سامعيك!

أرجو أن تضع المبلـغ في حـسابي؛ وبمجـرّد أن أتأكـد مـن وصـوله، سأرسل إليك الحكاية الثانية!

كانت ألسِنة النار تتصاعد من جـسد سـلمان بيـك غـضبا، ولكنـه لم يستطع مقاومة فتح المِلفِّ المرفق بالرسالة.

فتحَ الملفّ، فطالعه ذلك العنوان الذي انقبض له قلبه:

(صاحبة الكورولا السّوداء!)

ممر معتم آخر!

لم أنشغل بشيء، مثلما انشغلتُ بانتظار ظهور ديانا فجأة أمامي عـابرةً بوابة المكتبة، لكن وقتا طويلا قد مرّ ليحدث ذلك! ولم أحزن كما حزنـتُ وأنا أحدّق في تلك الباقة التي أوصلها عامل في أحد محلات بيـع الزّهـور بعد أن سألني عن اسـمي، وتأكّـد مـن أنني الـشّخص الـذي سيـسلمه (الطَّلبية)، وابتعد.

لسبب ما انتابني إحساس وحيد، أنها باقتها!

حين فقدتُ الأمل تمامـا بوصـولها، امتـدّتْ يـدي إلى البطاقـة المثبتـة بالباقة، سحبتُها بقوّة، تمزّق طرفها من موضع الثّقب الصغير الذي يمرُّ به خيط أحمر؛ وحين وقع نظري على الكلمات المكتوبة فيها، والتّوقيع: ديانا، راح قلبي يخفق بشدة، وبتّ على ثقة من أن النوبة القلبية الثانيـة، القاتلـة، لا بدّ آتية!

كنتُ غاضبًا.

أخذتُ نفسًا عميقًـا، ووضـعتُ البطاقـة في جيبـي الـدّاخلي. وحـين انتهى الحفل، تساءلتُ: هل من اللائق أن آخذ الباقة، من بين كلِّ الباقات التي أُرسلتْ أو أُحضرتْ؟ أم أن اللياقة تُحتّم عليَّ الاكتفاء بالبطاقة، لأنها الأمر الخـاص الوحيـد؟! تجـاوزتُ حالـة غـضبي، وأنـا أسـتمع لـذلك الصوت الذي بتُّ أعرفه: كريم! إنها منها، منها هي بالذات، لا سواها!

***

بعد ما حدث في الفندق خشيتُ أن أهاتفها، خشيتُ أن تأتي إلى المستشفى، وخشيتُ ألا تأتي، خشيتُ أن تكتفي بإرسال باقة مثل هذه، خشيتُ من كل الأسئلة التي توجّه إلى مريض، مثلي، نجا بأعجوبة من نوبة قلبية: كيف؟ ومتى؟ أين؟ ومع مَن؟!

كان جواب أي من هذه الأسئلة فضيحة كاملة.

قررتُ إخفاء ما حدث، كما أخفيتُ القصة الحقيقة لما حدث في الممرّ المعتم في ذلك الفندق.

لكن ما لم أستطع تجاوزه بعد ذلك الكمين الشيطانيّ، كان طلب ديانا: أُنشرها. بعد أن وجدتُ نفسي ثانية في الشارع، بكل ما تعنيه الكلمة.

فكرتُ، ووصلت إلى تلك النتيجة: الذين سمعوا هذه القصص من سلمان، قلّة؛ وإذا ما نشرتُها، لن يستطيع القول بأنها له، وإنني سرقتها منه! هذا إذا قرأها! لأن شخصا مثله لا يجرؤ أن يقول للناس إن هذه الحكايات حكاياته، وإنه عاشها؛ شخص مثله لا يمكن أن ينشر فضائحه بنفسه، أو يطلب من أحد أن يكتبها له!

***

كانت النسخة الأولى من الكتاب في يدي، وكنتُ أفكر في سلمان الذي انتظرتُ رسالة منه، دون جدوى، ردّا على عرضي الأخير الذي قدّمته إليه، كحلٍّ معقول، بعد انكشاف حكايات الأفلام!

اتصلتُ بديانا، ديانا التي اختفتْ تماما. كنت أريد أن أقول لها: لقد تحقّق ما أردتِ، نشرتُها. لكن هاتفها كان مغلقًا.

عشرة أيام كاملة حاولتُ!

ولكن، بدل أن تأتي، أتتْ باقة الورد!

***

كانت اللياقة تستدعي أن أشكر موظفي المكتبة الذين فعلوا الكثير

من أجل نجاح الحفل. صافحتُهم واحدا واحدا؛ حملتُ الباقة، وانسللتُ نحو البوابة. عرضوا عليّ أن يوصلها أحدهم إلى السيارة؛ شكرتهم، وخرجتُ.

خطآن قاتلان وقعتُ فيهما تلك الليلة، هذا ما سأكتشفه بعد دقائق، أولهما: أنني خرجتُ من المكتبة! إذ كان عليَّ أن أوافق على تمديد حفل التّوقيع حتى صباح اليوم التالي! وثانيهما: أنني لم أقبل أن يرافقني أحد الموظفين ليوصل باقة الزّهور إلى سيارتي!

***

الساحة الواسعة جوار ذلك السّوق التجاريّ الكبير كانت شبه فارغة، حين ألقيتُ عليها نظرة قبل وصولي إلى سيارتي المتوقّفة فيها. الساحة الواسعة بدت لي موحشة، وقد سقط المطر، أثناء وجودي في المكتبة، وأحالها إلى بحيرة من طين.

هل كان يمكن أن تكون النتيجة مختلفة لو أنني ركنتُها في الكراج؟!

أخيرا وصلتُ: فتحتُ الصندوق الخلفي لسيارة الهوندا سيفيك، وانحنيتُ لأضع الزّهور. ثبّتُّ الباقة بحيث ضمنتُ عدم تدحرجها وانسكاب الماء من حوضها البلاستيكي. سمعتُ خطوات مستعجلة. أغلقتُ الصندوق بسرعة، كما لو أنني لا أريد أن يكتشف ذلك القادم سرّي!

بخطى مسرعة، كان يتقدّم نحوي مخوِّضا في الطين. استدرتُ؛ رأيته يلوّح بكتاب في يده، قلت: قارئٌ آخر وصل في اللحظة الأخيرة! وتخيَّلتُ مدير المكتبة يغمزني بعينه كما لو أنه يقول: هل رأيت؟ ما زال الناس يأتون!

- أستاذ كريم! أرجو المعذرة، تأخّرتُ! هل يمكن أن توقّع لي الكتاب؟

- بالطبع.

- أرجو ألا أؤخركَ بطلبي، فهذه الليلة ليلتكَ، كما يقال!

نظرتُ إلى وجهه، بدا لطيفا بصلعته، الصلعة التي باتت موضة بين الشباب، بعد خمسين سنة من ظهور الممثل يول براينر بها!

- أبدًا، لم تؤخِّرني!

أمسكتُ بالكتاب، كتابي، وأبعدتُ الغلاف، فبدت الصفحةُ البيضاء مستعدّة على نحو كامل لاستقبال تلك الكلمات التي سأكتُبها.

عدتُ ونظرتُ إلى الشاب، وأنا أحاول الابتسام، وإنهاء الأمر بسرعة؛ فلم يكن يشغلني شيء مثلما يشغلني دخول السيارة والاختلاء بتلك البطاقة الصغيرة التي في جيبي!

سألته بلطف، هل هي لك، أم ستهديها إلى شخص ما؟

- أرجو أن يكون الإهداء لي، مع أنني سأقدِّمها هدية لشخص آخر!

نظرتُ إليه منتظرًا أن ينطق اسمه، لكنه لم يفعل! كما لو أنه صديق قديم أعرفه، ومن غير اللائق أن أسأله عن اسمه! سألته: اسمكَ من فضلك!

- قاتِلُك!

- ماذا؟!

- قاتِلُك!

وقبل أن أُظهر أيّ علامة استنكار لمزاح بهذا الثِّقل، أحسستُ بطعنتين عميقتين تشقّان جسدي، والصفحة البيضاء يحتلّها السّواد.

امتدَّت يده تستعيد الكتاب الذي هوى معي، التقطتْهُ، حتى قبل أن يلامس الأرض!

كل ما تمنّيته في تلك اللحظة أن يبتعد، لكنه لم يفعل؛ انحنى، وأحسستُ بيده تتجوّل في جيب سترتي الدّاخلي. لم يجد صعوبة في

الوصول إلى ما يريد. أخرج البطاقة، دسّها في جيب قميصه، ثم خطا ثلاث خطوات مبتعدا.

سمعت صندوق السيارة يُفتح، ثم يُغلق من جديد، وحين استطعتُ أن أفتح عينيَّ، رأيته يبتعد حاملا باقة الزّهور!

البداية!

طلب سلمان بيك من سائقه أحمد أن يأخذه في جولة، وعندما انهمر المطر شديدا، غاسلا نهايات كانون الثاني، بقوة، طلب من أحمد أن يوقف السيارة. كانا قد وصلا إلى أطراف منطقة (زَيّ) المطلّة على منطقة الأغوار وجبال نابلس.

- هل هنالك شيء يا بيك؟

- أبدا!

استمع سلمان بعمق لأصوات ارتطام المطر بصفيح المرسيدس، وتساءل: إلى أي مدى سيختلف صوت المطر لو أنني كنت في الهمَر أو اللكزس أو..؟! بعد وقت طويل قال لأحمد: سأرسلك اليوم في مشوار؛ هناك سهرة كبيرة سأقيمها في البيت، وأريدك أن تحضر كلّ ما يلزم!

- فقط أخبرني ما هو عدد المدعوّين، وسيكون كل شيء جاهزا يا بيك!

- سأدعو سبعة لا غير!

- سبعة؟! السبعة نفسهم الذين لم نرهم منذ زمن؟!

- بل سبعة غيرهم!

- تعرف يا بيك! كلما قلتُ في نفسي أن أوضاع هذا البلد ستتحسّن، ازدادت سوءا!

- ماذا؟

- لا شيء يا بيك، لا شيء!

تحرّكت يد أحمد نحو مفتاح المذياع، تجاوزت عشر إذاعات FM، الإذاعات التي كانت تطلق الأغنيات بكثافة تفوق مطر السماء قوة، أغنيات حب وأغنيات تتحدّث عن وطن لا يقهر، قبل أن يصل إلى نشرة أخبار.

- لا أريد سماع أخبار يا أحمد!

تظاهر أحمد بأنه لم يسمعه.

(ومن موجز النشرة إلى تفاصيلها.. بدأت انتفاضة شعبية غير مسبوقة في مصر يوم أمس، احتجاجا على الأوضاع المعيشية والسياسية والاقتصادية السيئة وما اعتبر فساداً في ظل حكم الرئيس محمد حسني مبارك.

وكانت الثورة التونسية الشعبية التي أعقبت قيام الشاب التونسي محمد بوعزيزي بإحراق نفسه، قد أطاحت بالرئيس التونسي زين العابدين بن علي قبل عشرة أيام... لكن لم يتسن لهذا الشاب البقاء حيا ليرى ثمار الانتفاضة التي أشعلها..

- قلت لك أغلق المذياع يا أحمد!

- إنهم يتحدثون عن الثورة والشاب الذي أحرق نفسه يا بيك!

- ولماذا يحرق نفسه أصلا؟

- لأن الحياة يا بيك لم تعد تُحتمل، والله، إنني أفكر أحيانا في أن أفعل ما فعله يا بيك!

- ولماذا تفعل ما فعله؟ هل ينقصك شيء؟!

- لم أسمع سؤالك يا بيك!

- سألتك: هل ينقصك شيء؟!

- ما الذي ينقصني؟! ما الذي ينقصني؟! ثلاثة دنانير يا بيك!

- ثلاثة دنانير؟! لمَ لم تقل ذلك؟!

استدار أحمد إلى الخلْف محدّقا في وجه سلمان بيك: يا بيك، ينقصني كل شيء، كل شيء يا ...!

كظم سلمان بيك غيظه، وأمره: تحرّك. عُد بي إلى لبيت! وفكَّر: هذه المرّة سأطرده، سأطرده مهما كان الثمن! لكن أحمد فاجأه حين أشرع باب السيارة، ووقف تحت المطر!

- ما الذي تفعله؟ قلت لك أعدني إلى البيت!

انحنى أحمد، بحيث أصبح نصف جسده داخل المرسيدس. أطفأ المحرك، وسحب المفتاح.

- ما الذي تفعله؟! قلت لك أعدْني إلى البيت الآآن!

أخرج أحمد نصف جسده من السيارة، وسار عدة خطوات وألقى ، بالمفتاح، بكل ما فيه من غضب، بعيدا نحو المنحدر. ثم عاد وانحنى من جديد، محدّقا في وجه سلمان بيك: تستطيع أن تعود بنفسك، يا بيك، إن استطعتَ!

***

أسوأ ساعات انتظار تلك التي أمضاها سلمان بيك وحيدًا في السيارة، كما لو أن شللا أصابه! أو كما لو أنه سلحفاة فقدت درعها! كانت السيارات العابرة تبطئ سرعتها قليلا، فيحدّق من فيها، باحثين عن أمر مشبوه يدور داخل المرسيدس الفارهة! لكن زجاجها الأسود، والمطر، كانا يحولان دون رؤية سلمان بيك وحيدا في ظلمتها.

أبرقت السماء ورجّ المكان رعد قويّ، فأدرك أن النزول من السيارة للبحث عن المفتاح أمر مستحيل. انتظر وانتظر، لكنه في النهاية تذكر أن لديه هاتف، وأن عليه أن يتّصل بمدير مكتبه، فهو الوحيد الذي يمكن أن يستنجد به، ولأنه السبب في كلّ ما حدث!

***

صامتين أمضيا نصف الطريق تقريبا، إلى أن وصلا بلدة (صويلح).

أحسّ سلمان بيك أنه سينفجر إن لم ينفجر في وجه مدير مكتبه! فانفجر! معيدًا كل كلمة قيلت في حديثه مع السائق، وكيف ألقى بالمفتاح بعيدا! وبعد صمت قال: ألا يكفيني ما فعله ذلك الكلب كريم؟!

استمع مدير مكتبه بصمت، وواصل صمته إلى أن أحسّ بأن سلمان بيك قد تخفّف من سطوة غضبه الأولى.

- هل تسمح لي بالحديث الآن يا بيك؟!

واصل سلمان صمته، فاعتبر مدير مكتبه أنه أذِن له بالكلام!

- يا بيك، لنعترف، الدنيا تغيّرت، أو هي في طريقها إلى ذلك.

وصمت طويلا إلى ذلك الحدّ الذي دفع سلمان بيك أن يقول له: أنت لم تقل شيئا!

- أظن أننا، يا بيك، على أبواب زمن مختلف، وربما يكون من الأفضل يا بيك أن تختار مجموعة جديدة لا تشبه في شيء المجموعة القديمة؟!

- ما الذي تعنيه؟!

- أنت بحاجة يا بيك إلى مجموعة من القيادات الوطنية؟! من اليسار، خصوصًا، يا بيك؟!

- ماذا؟! أتريد أن تخرب بيتي؟!

- يا بيك، حاول أن تتذكّر كم شخصية حكومية انتقلت من اليمين إلى اليسار؟ عشرات، من الوزير إلى الباشا! وكما ترى لم يتضرروا أبدا، بل أصبحوا أعلاما، لهم احترامهم، والجميع يحاول نيل رضاهم، الدولة واليسار وما بينهما!

- أتعني أن مجموعة السبع الجديدة يجب أن تكون من ...؟!

- تماما يا بيك، تماما!

راح سلمان يفكر في الأمر ويستعيد وجوها شكَّل خروجها من عملها مع الدولة بداية جديدة، في الوقت الذي توقع فيه الكثيرون نهاياتها.

قرب الدوّار الثامن، سأل سلمان: أعرف أنك تعرف لماذا كنت متمسكًا بكريم ذاك!

- أعرف يا بيك، أعرف، لكي يسلِّيك بحكاياته!

- صحيح!

- لكن ما أنت بحاجة إليه اليوم وغدًا، يا بيك، حكايات أخرى، مختلفة تماما!

- ما الذي تعنيه؟!

- أنت بحاجة يا بيك لشخص كان له تاريخ وطني مشرِّف، عاش حكايات كبرى وبطولات كلها صبر واحتمال!

- ومن أين يمكن أن نحصل على واحد كهذا؟!

- سهلة يا بيك، سهلة! أعرف واحدا أمضى أربعين عاما على الأقل يناطح الصخر، وانتهى الآن شبه جائع، لا أحد يتذكّره!

- وهل تعتقد أنه سيوافق؟!

- اطمئن يا بيك، سأقنعه بأهمية أن تُسجّل ذكرياته للأجيال القادمة! وستكون العلاقة بيني وبينه مباشرة، لكي نتجاوز ما حدث مع ذلك ... كريم!

- ولكنني دعوت الليلة سبعة من كبار رجال البلد!

- يا بيك، أطعمْهم هذه الليلة، وأسقِهم، ومهِّد طريق انتقالك إلى الطرف الآخر، بحيث يكون اللقاء أشبه ما يكون بحفل وداع!

- ومتى ستُحضِر حكايات ناطح الصخر ذاك؟ سأل سلمان سؤاله وقد بدا سعيدًا بالفكرة.

- بعد ثلاثة أيام ستكون الحكاية الأولى بين يديك! معقول؟!

عاد سلمان بيك إلى صمته. ألقى مدير مكتبه نظرة عبر المرآة، فرأى طيف ابتسامة تملأ المقعد الخلفي لسيارة المرسيدس!

إبراهيم نصر الله

مواليد عمّان، من أبوين فلسطينيين أقتلعا من أرضهما عام 1948

* صـــدر له شعرًا (الطبعات الأولى):

الخيول على مشارف المدينة، 1980. المطر في الداخل، 1982. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984. أناشيد الصباح، 1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب 1989. حطب أخضر، 1991. فضيحة الثعلب، 1993. الأعمال الشعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994. شرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى، 1997. بسم الأم والابن، 1999. مرايا الملائكة، 2001. حجرة الناي، 2007. لو أنني كنت مايسترو، 2009.
أحوال الجنرال، مختارات، 2011.
عودة الياسمين إلى أهله سالما، مختارات، 2011
على خيط نور.. هنا بين ليلين 2012

* الروايـــات: (الطبعات الأولى):

براري الحُمّى، 1985. الأمواج البرية، 1988. عَـــوْ، 1990. مجرد 2 فقط، 1992. حارس المدينة الضائعة، 1998.
الملهاة الفلسطينية (الطبعات الأولى):
(كل رواية مستقلة تماما عن الأخرى)
طيور الحذر، 1996، طفل الممحاة، 2000، زيتون الشوارع، 2002، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004،
زمن الخيول البيضاء، 2007- اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009.
قناديل ملك الجليل، 2012
الشـــرفات: (الطبعات الأولى):
(كل رواية مستقلة عن الأخرى)
شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، 2009. شرفة العار، 2010،

* كــتب أُخرى (الطبعات الأولى):

هزائم المنتصرين - السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000
ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002
السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006
صور الوجود ـ السينما تتأمل 2008

* ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنمركية، التركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، السويدية...

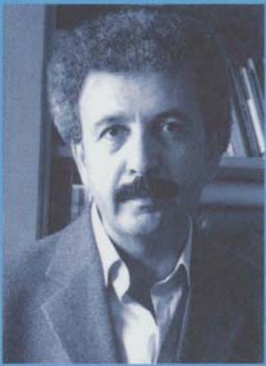
* أقام أربعة معارض فوتوغرافية
وشارك في معرض (كتّاب يرسمون) معرض مشترك لثلاثة كتّاب (فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله)- عمان، 1993 .

* عضو لجنة تحكيم في عدد من الجوائز الأدبية والمهرجانات السينمائية.

* نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:

. جائزة القدس للثقافة والإبداع (الدّوْرة الأولى) 2012.
. جائزة سلـطان العـويس للشـعر العربي، 1998.
. جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.
. جائزة عرار للشعر، 1991.

لـن أكـون عبقريًـا إذا قلـت إن الإصابـات تكـون دائمـاً مـن نوع العمـل: البحّـارُ يغـرق، أو تأكله أسـماك القرش! متسـابق السـيارات تنحـرف سـيارته عـن المضمـار وتنقلـب، أو تصطـدم بأخـرى! عامل الكهرباء يسـقط مـن فوق عمود أو يصاب بصعقة! النجّار يفقد أحد أصابعه أو يـده... الملاكم بارتجاج في الدماغ! وهكذا. لكننا نحـن الـذي لا نمارس أيّـا مـن هـذه الرّياضـات والمهن أبدًا، قد تلحق بنـا واحدة من الإصابات التـي ذكرُتهـا أو أكثر! وهذا ما يمكن أن أدعوه: السُّخرية السّوداء!



الشرفات

شرفة الهذيان

شرفة رجل الثلج

شرفة العار

شرفة الهاوية

IBRAHIM NASRALLAH
BALCONY OF ABYSS

شُرفة الهاوية

هذه رواية عن طبقات النفس الإنسانية مثلما هي عن طبقات بناء السلطة العربية، وقدرتها الفائقة على تغيير ظاهرها، دون أن يتغير في مضمونها شيء يُذكر.

وزير متنفذ، وأستاذ جامعي، ومحامية، شخصيات ثلاث منقسمة، في واقع منقسم، تتحرك في مدى زمني يمتد عشرين عاماً ما قبل الثورات العربية، حتى لحظة الانفجار الكبير. حيث المتنفذُ لا يتقن شيئاً مثلما يتقن انتهاك الأوطان، والأستاذ الجامعي لا يتقن شيئاً مثلما يتقن التحرّش بطالباته، والمحامية لا تتقن شيئاً مثلما تتقن افتقادها لتحقيق العدالة لنفسها! وفي خلفية الصورة، يبدو الهامش البشري، تحت الحصار، وحده القادر على مقاومة ذلك كله بمكر المغلوبين!

(شرفة الهاوية) رواية مفعمة بالحوارات العميقة، وبالمفارقات التي تذهب بعيدًا في تفاصيل البنية الاجتماعية السياسية الاقتصادية السائدة، معرّية القشرة الخارجية البراقة لشخصيات هشّة، رغم ما تدعيه من سطوة، وشريحة اجتماعية تعيش على النهب والسرقة والفساد. وهي رواية المساحة المفتوحة لنماذج تتساقط للأعلى! ورواية المقايضة التي تستعيد (فاوست) وصفقته مع الشيطان بطريقة أكثر بؤساً، في زمن تمّ فيه تسليع كل شيء، وتحويل، حتى الذكريات الجميلة والأحلام، إلى سلعة تباع لإرواء ظمأ الكوابيس، وزمن تنتهك فيه الأوطان كما ينتهك البشر.

ويبقى سؤال الرواية محوّماً بعد الإنتهاء من قراءتها: هل ستكون قدرة الأنظمة العربية على التأقلم وتجديد نفسها في زمن التحوّلات الذي بدأته منذ نهاية الثمانينات من القرن الماضي، هي قدرتها المتقنة نفسها ما بعد زمن الثورات؟!

يقدم إبراهيم نصر الله رواية متعددة الأصوات، مركّبة فنياً بطريقة تدعو القارئ للمساهمة في إعادة بناء النص، ربما، كجزء من محاولة للمضي أبعد، تتمثل في إعادة بناء الحياة!

الناشر

ISBN 978-614-01-0675-8
9 786140 106758
مكتبة كل شيء
e-mail: info@kul-shee.com
www.kul-shee.com
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com